

إبراهيم العريض

فن المتنبي

بعد ألف عام

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

دار الهادي
بيروت - لبنان


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


فن المتنبي
بعد ألف عام

فن المتنبي

بعد ألف عام

تأليف
إبراهيم العريض

دار الهادي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: MCS٢٠٧٧٧-٢٢٥٩٧ بلاغ.
ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان.

What is truth ? said jesting Pilate , and would not stay for an answer .

Francis Bacon

قال بيلاطس هازلا : «ما الحق ؟»
ولم يتريّث ليسمع الجواب .

فرانسيس بايكون

الإهداء

إلى أبي الطيّب

« بمناسبة ذكرى مرور ألف عام ميلادي على وفاته »

ربَّ البيان ! حملت سيفك والمأ ... وغرست معنى العشق في ابطالها
واكبتَ « الفأ » ، وهي دائبة على ... دورانها ، متجدّداً كهلالها
نعب الغراب على الرؤوس ، بمحفل ... يرعاه غيبك في حشود رجالها
أتلاه ، ينكر : كيف شقّ هزبرُها ... قلب التوى ، حتى لصيقُ نعالها
شهدوا وغبت ، فذرهمُ وهراءهم ... في هيكل للضاد ، عذتُ بفالها !
أنت الذي بلغتْ بك الفصحى — وان ... عاداك أهل النقص — اوجَ كمالها

• • •

يا من رعى بفؤاده من صغره ... هممَ الملوك ، مطوّحاً بهُزالها
هل من معان في الحياة جديدة ... فتضاف في الفصحى إلى أمثالها ؟
هيهات ، ما حدثت لغيرك عبرة ... إلاّ وبين يديك صورة حالها

قالوا : الحقيقة مرّةٌ ، هلاّ إذن ذاقوا على شفتيك عذب زلالها
حدّثتهم حتى عن المجد الذي تُبنى مآثره على اموالهـــا
لاموك للآيات تتلى بيننـــا عن دولة أحسنت وصف قتالهـــا
وبودّنا لو كنت شاهد حالهـــم فتهزّهم أنفـًا لمثل فعالهـــا
إنّ الحياة دم ، ومن لم يشـترع بالسيف نُجعتهـا ، فليس بخالها

* * *

ما بعد منزلة الخلود محلّـــةٌ تسمو اليهـا النفس في آمالهـــا
فانعم بها ملء الجفون ، مخلّفـاً « ذكراك » ، تُسهر شاعراً في بالها

ابراهيم العريض

كلمة لا بدّ منها

حديثي هو عن المتنبي ، أشعر شعرائنا على الاطلاق .

كنتُ . وأنا في زهرة شبابي وتباشير عهدي بالأدب العربي ، مأخوذاً بعظمة المتنبي في شعره .. وشخصيّته ، واذكر اني حرصت منذ ثلاثين عاماً ان أكتب فصولاً عنه – نُشر بعضها في مجلـة « العروبة » ، وبقي الآخر مخطوطاً – حاولت ان اجعل من اضمامتها مقدّمة لدراسته ، ولكن تبيّن لي – بعدُ – اني كنت في تلك المحاولات كمن يتخبّط في الظلام فيتوكّأ على أكتاف الآخرين ، هم مثله لا يكادون يتبيّنون حتى معالم الطريق .

وأعرف الآن اني كنت اتخبّط في الظلام ، لأن اطلاعي آنذاك لم يكن يتجاوز عيون شعره إلا الى بعض المختار من هنا وهناك لزمرة من الشعراء ... معدودين . فما كنت ألمّ بما كان لا بدّ لمن يتصدّى لمثل هذا البحث من ان يلمّ به ، من الاطلاع على وضع الادب العربي في القرن الرابع الهجري ، وما سبق القرن الرابع من شيات هذا الأدب وتطوّره في العصرين العباسي والأموي وقبلهما ... لثلاثة قرون زاخرة بالشواهد حافلة بالتطوّرات ، وما يتأصّل لها كلها من جذور

في الشعر العربي القديم – كفنٌ من الفنون – في العصر الجاهلي الذي بزغ فيه الاسلام بكوكبه الوهّاج .

كما انّ اطلاعي كان نزراً بالنسبة إلى الوضع السياسي الذي كان راهناً في البلاد الاسلامية آنذاك ... على سعة أطرافها المترامية ... بله الظروف السياسية التي نجم عنها مثل هذا الوضع عبر الثلاثة قرون الاولى منذ صفّين .

لقد كان أنسي بتلك المحاولة وأنا في غرّة العمر وغرور الشباب . ثم تبيّن لي – بعد لأي – ان هذا الشاعر العظيم إنما حاول موفّقاً « ان يجعل شعره جماع ما مرّ باللغة من تجارب قديمة وجديدة كان بعضها في اعتبار أهل عصره شوائب ، وبعضها عندهم حسنات ، نختلف في تقييمها معهم الآن . » (١)

وقد عناني – منذ تبيّن لي ذلك – ان أوضّح لنفسي ، قبل كل أحد ، لماذا نختلف – نحن وهم – في هذا التقيم . فهذا الذي اقتضاني أن أدرس الاصول الفنّية التي ترتكز عليها أذواقهم ، واستعرضها – بعد وزنها في ميزان القيم – على ضوء الاصول الفنّية التي أصبحنا نعوّل عليها اليوم . وكل هذا استلزم – كما ذكرت – الاستنجاد بالتاريخ ، والاستعانة بالمعارف ، والاستئناس بالفنون ، والاستظهار بالآداب ، حتى غير العربية منها ، لوضع الأمور في نصابها ، وكشف القناع عن وجه الحق والحقيقة بين طوايا هذه الملفّات .

ثم ان المتنبي « فطرته العربية كانت أغلب فكان بالرغم من كل ما آخذه عليه الناس من حقّ وباطل أصدق صوت عربي أخذ من حضاراتهم السائدة بنصيب بعد ان فطمته روح البادية » ، ولم يتح

١ محاضرة المؤلف في الدورة الرابعة لمؤتمر الدراسات العربية للجامعة الاميركية ببيروت عام ١٩٥٤ .

لي استجلاء كل هذا إلا بعدَ أن خلعت برد الشباب ، وركنت بي تجارب العمر إلى وقار السنين .

على انّ المتنبي ليس بالغمر ، ولا كان أمره مجهولاً طوال هـذه القرون ، فقد قتل المحقّقون محارته بحثاً وتنقيباً ، ودرساً وتمحيصاً، ونقداً وتحليلاً ، كما لم يتركوا زاوية في شعره إلا اثاروا غبارها لعين الشمس ، ووضعوا محتواها على المشرحة تحت المجهر ، ومع هذا بقيت جوانب من حياته وعبقريته غامضة ، بخل بها الزمان على أقرب الناس لعهده وما تلا من عهود ، فلم يفض بها إلا همساً إلى آذان افراد ، من وراء ستار صفيق من التدليس والاوهام .

وليس معنى هذا اني انكر ما في كتب الاقدمين من نخبة صالحة ، استوعبت فوعت ، كمثل « الموازنة » و « الايضاح » و « الوساطة » و « اليتيمة » و « الابانة » و « الصبح المنبي » ، وانّ فيها جميعاً لمادة غنيّة للدارسين ، ولكنها في معدنها الترب لا تتعدى كونها مادة خامة لا تعين الباحث إلا بقدر استعداده لاستخراج الجوهر منها ، بعد الجمع بين قرائنها ، وقياس أشباهها على نظائرها ، والاستدلال باللمح الذي لا يكاد يدوم عندهم — في ومضه — الا ثوان .

وقد استدلّ بمثل هذا اللمح أساتذة قلائل أعدّ منهم عباس محمود العقاد (المطالعات) ومحمود محمد شاكر (المتنبي — عدد المقتطف) وعبد الوهاب عزّام (ذكرى أبي الطيّب بعد الف عام) ومارون عبود (الرؤوس) وعمر فروخ في تحقيقاته التاريخية . أما الكثرة الكاثرة من الباقين — وكنت في الحداثة منهم — فظلّوا يبدأون من حيث يعيدون ، سائرين في ركـاب من سبقهم من الطـلائع ، — شرقية وغربية — حذوك المدة بالقدّة .

فلم يتح لي كلّ هذا — وعلى ضوء ما حققه الأساتذة المذكورون —

إلا منذ عهد قريب . وها أنا أعود من جديد إلى الموضوع « الشائق ، الشائك » الذي شغل ذهني وقلبي وقلمي أيّام كنت غرّاً ، ولكن على هدى وبصيرة هذه المرّة ، وكلّي ايمان ان يجد قرّاء العربية في هـــذه الفصول « مقدّمة » لدراسة المتنبي ، ما كان أحوجه اليها وأجدره بها منذ القديم ، وما أسعدني وأدعاني إلى الفخر والاعتزاز بوضعها الآن ... بعد ألف عام .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، واليه أنيب .

يوم الجمعة ٢٧ يوليو ١٩٦٢

البحرين

ابراهيم العريض

على عتبة الموضوع

المتنبي بين شراحه وناقديه

هذا ديوان المتنبي بين يديّ .

حقّاً ان صاحبنا لربّ المعاني . ولكن يخيّل لي كلما قلبت النظر – وراءه – في هذه الشروح الكثيرة التي تزخر بها المكتبة العربية للديوان ان الشرّاح هؤلاء – قديماً وحديثاً – جنوا على عبقريّته العربية جناية لا تغتفر من حيث لا يشعرون . فقد ظلّ وكدهم – خلفاً عن سلف – ان يبيّنوا للناس ماذا يحاول الشاعر ان يقول ، أي أن يكشفوا بالجهد الجهيد مادّة الشعر الخامة في معانيه . ولا مشاحة ان المتنبي – كغيره من شعرائنا – يشارك في ظاهرة حمل التراث هذا عن الاسلاف ، فهو يغرف منهم بدواً وحضراً تحت راية الضاد هذه المادة الخامة ، سواء أكان ذلك من ناحية مفردات اللغة ، أم مذاهب القول ، ام تقاليد البيئة ، أم قضايا التاريخ ، ام حتى سنن التطوّر نفسها في كل هذه الامور . بينما الذي كان يجب على هؤلاء الشراح أن يتمحلوا له قصارى جهدهم هو أن يتبيّنوا لأنفسهم كيف خلص هذا الشاعر ،

بحكم عروبته الأصيلة ، من وراء هذا التراث الخام من المعاني إلى الافضاء بدخيلة نفسه ... في كل شعره ، ثم مدى توفيقه في هذا الافضاء بها كاملة غير منقوصة . وإلى اسماع من ترى ؟ لا إلى الناس كلهم وإنما إلى « أمّة » من الناس . ففي ذلك — لا غير — سرّ عبقريته كلها ...

فهذا ما كان ينبغي أن يتبيّنه الشراح في ديوانه ، لا مجرد حل أبياته في كلام مبتذل ، ينثرونها به نثراً ، ويسردون مادة معانيه — في غير ألفاظه — مسلوبة الروح سرداً محرّفاً عن قصده .

أما أنا فأصبحت اوٴمن ان معجزة المتنبي البيانيّة ليست هي في « ماذا » قال ، فهذا — كما رأيت — لا يتجاوز مادة شعره الخامة ، وإنما هي في « كيف » أفضى بما أراد . فهذه الكيفية — أو الطريقة أو أسلوب البيان — هي هي « روحه » من وراء تلك المادة ، التي جعلتها تلتهب في الادب العربي كشواظ من نار . تأمّل كيف يشير إلى هذه « الطريقة » في بعض شعره الذي مدح به ابن العميد ، ولكنه في الحق ما كان يعني إلا نفسه :

أنت الوحيد ، إذا ارتكبت طريقة ومن الرديفُ وقد ركبت غضنفرا
قطف الرجال القول وقت نباته وقطفت أنت القول لما نوّرا (١)

---

١ واليك على سبيل المثال ما جاء في « شرح » البرقوقي (وهو آخر الشراح) حول البيتين من تطنيب بلا طائل :

الغضنفر الاسد ، والرديف الراكب خلفك ، وارتكبت طريقة ، يروى ركبت طريقة . يقول : أنت فرد الطريقة في كل أمر تحاوله لا يقدر أحد ان يحذو حذوك في طرائقك لصعوبتها وامتناعها كراكب الاسد لا يقدر احد أن يكون رديفاً له . قال الواحدي : وعلى هذا المعنى يكون الغضنفر مركوباً ويجوز أن يكون حالاً للمدوح أي لا يقدر أحد ان يكون رديفاً لك لأنك غضنفر .

يقول : ان أقوال الناس كالثمرة تقطف قبل ينعها وادراكها فهي خداج ليست بحلوة ولا غناء فيها أما أنت فقولك كالنبات إذا نور — أزهر — وبلغ اناه فهو حلو معسول قد بلغ الغاية في الحسن والكمال .

فمعاني أبي الطيب هذه من حيث هي ، أي إذا جرّدناها من نصوصها ، عادت لا روحاً ولا جسدا . فأي أهمية آنئذ تبقى لها ؟ انها بدون ذلك النظم « العجيب » (والكلمة للجاحظ) الذي لابست به على فمه ألفاظها إلى أبد الآبدين لا يمكن لها ان تحمل أية دلالة على نبض قلب عاش في كنف سيف الدولة عاشقاً مدلهاً ، بله تحفّز نفس تخبّ في وجه أيامها ناقمة ثائرة لا يستقر بها مكان .. وإنما تتأتى للمعاني — سواء أعند المتنبي أو عند سواه — مثل هذه الدلالة أبداً في « منطق » الشاعر نفسه ... كلا حسب صياغته . لأنها بفضل هذا المنطق تصبح « تعبيراً » عن هذا الاحتفال القائم في كل مكان ... احتفال الخلائق (الذين لا يكون الشاعر إلا أحدهم) بالحياة ، جيلاً بعد جيل ، وان هي لم تتجاوز ذلك عندهم — مثله — وتتغلغل وراءه لتمسي « تفسيراً » لاحتفال من نوع آخر ، أكبر من الاول وأعم ، هو احتفال الحياة نفسها بهذه الخلائق من البشر والهوام ، على مدى الاجيال .

فهذا — فيما أعتقد — هو الذي قام عليه مدماك المتنبي الفني وصرح مجده ، لا تلك المعاني المجردة من نصوصها . فالمعاني الشعرية — كما قلت مرة — لا تأتي من الخارج ، وإنما هي في النفس ، وتثيرها الالفاظ من النفس — من جديد — بحكم تداعيها . فالمهم هنا هو « الجو » الذي يسبغه المعنى على مراد الشاعر ، لا المعنى نفسه . (١)

١ راجع كتاب « جولة في الشعر العربي المعاصر » للمؤلف . ويظهر الفرق واضحاً بين « معنى الشاعر » و « مراد الشاعر » في البيت :

ابا المسك ! هل في الكأس فضل اناله فاني اغني منذ حين وتشرب

الذي أنشده المتنبي بين يدي كافور . فلو كان هناك حقيقة كأس وغناء وشرب لكان قوله تصويراً لواقع الحال . ولكن الشاعر لم يكن معنى بهذه الصورة لذاتها : وإنما اتخذها مجازاً ، ليستقصي التمثيل ، تمثيل حاله مع كافور وما كان يريده منه . فقيمة البيت اذن هي في هذا الجو الوحي الذي اسبغه البيت على ما غاب من مراد الشاعر ... لا في معناه .

وهذه بعض « طريقة » المتنبي جرى عليها في كل شعره ... إلى مراده ، « الاستقصاء الفني في التمثيل » كما سنوضح ذلك بعد في شرح طريقته .

والحديث عن مراد الشاعر قد يطول ولا أود ان أختصر اليه من هنا الطريق . وإنما الذي لا بد من تقريره هنا هو ان وراء معاني ابي الطيب التي يتلاطم بها ديوانه – ولا تلاطم المحيط– يتجلى شيء أكبر من هذه المعاني ، تلك هي قدرته الخلاّقة على أن يفسّر احتفال الحياة بنا – هذه الحياة التي يشترك فيها الاحياء جميعاً – وذلك للعرب وحدهم، وكأنه صاحب « رسالة » منهم واليهم ، تفسيره القومي الصحيح ، (١) لا مجرد التعبير عن حياته الخاصة أو حياتهم العامة تعبيراً فنياً – وهو الاحتفال بالمعنى الاول – كما يفعل الشعراء الآخرون .

ولنا عودة إلى هذه النقطة الحساسة بعد .

فهذا ما كان من أمر المتنبي مع شارحي ديوانه

* * *

وإذا كان هؤلاء الشرّاح – كما رأيت – قد أساءوا إلى المتنبي من حيث أرادوا اليه الاحسان ، فان ناقديه – بقضّهم وقضيضهم – هم الذين ظلوا يحسنون اليه – وراء قصدهم – وهم إنما يريدون به السوء والمهانة . ولقد كان شأن المتنبي مع ناقديه هؤلاء من جهات عديدة ، لا جهة واحدة ، على خلاف شأنه مع شارحيه . إذْ ظلّت كل فئة منهم – على تطاول العصور – تؤاخذه بأشياء لعلها لم تكن كذلك في عين سواها ، أو تحاكمه على أشياء طالما بدا لها عند غيرها ما يكفي من المبررات . فكانت تتعاقب هذه الفئات – وما أكثرهم لو ذهبت في تعدادهم منذ عصر الشاعر إلى اليوم – ويختلف ريح

---

١ تأمل مثلا آيته في عبرة الزمان :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

إلى آخر العشرة الابيات ، فهو إنما ينظر فيها إلى الموضوع من الزاوية العربية . ولعلك الآن تستطيع ان تستنتج » شيئاً وراء غمزات معاصريه حول «تعاظمه» وما زعموه من ادعائه «النبوة».

أصحابها بينهم باختلاف النوازع والاهواء والمذاهب والعصور .

أما وجه المؤاخذة عليه فقد اقتصر شأنه عند أوائلهم على ناحية اللغة .

(أ) في مفرداتها . في مثل قوله : أحاد ام سداس في احاد .

وقوله :

شديد البعد من شرب الشمول   ترنج الهند أو طلع النخيل

وقوله :

جفخت ، وهم لا يجفخون بها ، بهم   شيم على الحسب الأغر دلائل

(ب) أو في ضرائر النحو في مثل قوله :

بيضاء يمنعها تكلم دلّها   تيهاً ، ويمنعها الحياء تميسا

فنصب بلا ناصب . وقوله :

حملت اليه من ثنائي حديقة   سقاها الحجا سقي الرياض السحائب

ففرّق بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول . وقوله :

وتكرّمت ركباتها عن مبرك   تقعان فيه وليس مسكاً اذفرا

فثنّى الفعل لاسم جمع .

(ج) او في تعسّف الاعراب في مثل قوله :

وفاؤكما كالربع — اشجاه طاسمه — بان تسعدا ، والدمع أشفاه ساجمه

وقوله :

الطيب ، انت (إذا أصابك) طيبه   والماء ، أنت (إذا اغتسلت) الغاسل

وقوله :

فتبيت تسئد ، مسئداً في نيّهـا — اسآدها في المهمه — الانضاء

فقدّم وأخّر في الكلام .

(د) أو في الولع بالغريب في مثل قوله :

هذي ! برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثنيت ، ومـا شفيت نسيسا

وقوله :

لساحيه على الاجداث حفش كأيدي الخيل أبصرت المخالي

وقوله :

وما أرضى لمقلتـه بحلم إذا انتبهت ، توهّمه ابتشاكا

فاستعمل كلمات غير حضرية .

وقد كفانا « الشارح » (كما سماه المتنبي) ابو الفتح ابن جني مؤونة الرد على هؤلاء ، قال :

« وان كان في بعض ألفاظه تعسّف عن القصد في صناعة الاعراب ، من التمسك بأهداب شاذ ، أو حمل على نادر ، فعن غير جهل كان منه ولا قصور عن الوجه الأعرف به . ومن هنا تشبّث قوم لا دربة لهم بعلم العربية بأشياء مـن ظاهر لفظه ، إذ لم يكن لهم خبرة بدخلة أمره . »

قال الأستاذ عبد الوهاب عزام معقباً :

« ولا ننسى ان الشاعر كان كوفياً يميل إلى آراء الكوفيّين . وكثير مما أنكر عليه له مساغ عندهم . ومن قرأ املاء على الابيات الشاذة من شعره ، ورأى كيف يحتج لهـا ويسوق

الشاهد بعد الشاهد ، عرف ان الرجل لم يؤت من جهل باللغة ، بل من سعة علم بها . »

* * *

وألحق آخرون بالمآخذ اللغوية بعض ما تنطّع فيه من الكلام .

(أ) كتكرار اللفظ في مثل قوله :

ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله ويجهل علمي انه بي جاهل

وقوله :

إنما الناس حيث أنت ، وما الناس بناس ، في موضع منك خال

وقوله :

ملولة ما يدوم .. ليس لها ، من ملل دائم بها ، ملل

(ب) او كاستكثاره من قول ذا في مثل قوله :

اريد من زمني ذا أن يبلّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وقوله :

ابا المسك! ذا الوجه الذي كنت تائقاً اليه ، وذا الوقت الذي كنت راجيا

وقوله :

يضاحك في ذا العبد كل حبيبه حذائي ، وأبكي من أحبّ وأندب

(ج) أو كتبذّله في مثل قوله :

أغرّكم طول الجيوش وعرضها ؟ عليّ شروب للجيوش أكول

وقوله :

وان ماريتني فاركب حصانا ومثّله ، تخرّ له صريعا

وقوله :

اني على شغفي بما في خمرها لأعفّ عما في سرابيلاتها

كما نظروا إلى آداب السلوك فاتهموه أيضاً .

(د) بقلّة الذوق في مثل قوله :

فغدا اسيراً قد بللت ثيابه بدم ، وبلّ ببوله الافخاذا

وقوله :

خف الله ، واستر ذا الجمال ببرقع فان لحت ، حاضت في الخدور العواتق

وقوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله ، بعرانا

(هـ) وبالجهل بآداب المخاطبة في مثل قوله :

أغار من الزجاجة وهي تجري على شفة الامير ابي الحسين

وقوله :

ومن ركب الثور بعد الجواد انكر اظلافه والغبب

وقوله :

وهل سمعت سلاما لي الم بها ؟ فقد أطلت ، وماسلّمت من كثب

وإنما مرجع كل هذا — لو تدبّرنا أمره — إلى عنجهيّة فنية واثر نشأته البدوية ، التي جعلت منه — بين ما يتجمل به أهل الحضر من

آداب السلوك – رجلاً غريب الاطوار ... في صراحته البالغة ودقّة ملاحظته .

*

وقامت وراء هؤلاء فئة ثالثة من حاسديه ناقشوه في أصول معانيه ، محاولين بذلك أن يمسكوا عليه أنفاس كل قول . كالذي يروى من انه لما أنشد بين يدي سيف الدولة ميميته :

وا حرّ قلباه ممن قلبــه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ولهذه القصيدة قصة – وراءها مأساة – ليس هنا موضع تفصيلها الآن ، فوصل في انشاده إلى قوله :

يا أعدل الناس إلا في معــاملتي فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم

قال ابو فراس : مسخت قول دعبل وادّعيته ، وهو :

ولست ارجو انتصافاً منك ، ماذرفت عيني دموعاً . وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبي :

اعيذها نظرات منك صادقــــة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم ابو فراس انه يعنيه . فقال : ومن أنت يا دعيّ كندة ، حتى تأخذ اعراض الامير في مجلسه ؟

واستمر المتنبي في انشاده ولم يرد عليه إلى أن قال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلســنا بأنني خير من تسعى بــه قدمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبــي وأسمعت كلماتي من به صممُ

فزاد ذلك أبا فراس غيظاً . وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد في قوله :

أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت
دهراً ، وأظهرتْ اغراباً وابداعا
حتى فتحت ، باعجاز خُصصت به ،
للعمي والصمّ ابصاراً واسماعا

ولما وصل إلى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال أبو فراس : وماذا أبقيت للأمير ، إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الامير ؟ أما سرقت هذا من قول الهيثم بن الاسود النخعي الكوفي المعروف بابن عريان العثماني ؟

انا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى
وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فقال المتنبي :

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الانوار والظلم

قال ابو فراس : وهذا سرقته من قول معقل العجلي :

إذا لم أميز بين نور وظلمة بعينيّ ، فالعينان زور وباطل

ومثله قول محمد بن احمد بن ابي مرة المكي :

إذا المرء لم يدرك بعينيه ما يرى فما الفرق بين العمي والبصراء ؟

وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها ، فضربه بالدواة التي بين يديه . فقال المتنبي في الحال :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح ، إذا أرضاكم ، ألمُ

فقال أبو فراس : أخذتَ هذا من قول بشار :

إذا رضيتم بأن نُجفى، وسرّكم قول الوشاة ، فلا شكوى ولا ضجرا

ومثله قول ابن الرومي :

إذا ما الفجائع اكسبنني رضاك ، فما الدهر بالفاجع

فلم يلتفت سيف الدولة إلى ما قال ابو فراس ، وأعجبه بيت المتنبي ورضي عنه في الحال ، وأدناه اليه وقبّل رأسه ....

إلى آخر الرواية . ولنا حول هذه التهم من « السرقات الشعرية » التي كان يكيلها أدباء تلك العصور بعضهم لبعض جزافاً .. ونكالاً .. بيان يرفع إشكالها موعده في هذه الفصول غير بعيد .

° ° °

ووجهت فئة رابعة كان مجالها البلاغة عنايتها إلى ما اعتبرته في شعره نكوصاً عن الجادة .

(أ) كتعلّقه بغموض المتصوّفة(١) في مثل قوله :

إذا ما الكاس ارعشت اليدين صحوت ، فلم تحل بيني وبيني

وقوله :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح ، لها منها عليها شواهد

وقوله :

ولكنّك الدنيا .. إليّ حبيبة فما عنك لي ، إلا اليك ، ذهاب

(ب) وكافراطه في المبالغة حتى الاحالة في مثل قوله :

---

١ قتل الحلاج عام ٣٠٩ بعد فتنته الشهيرة ببغداد ، والمتنبي صبي لم يتجاوز السادسة .

ولو قلم ألقيت في شق رأسه — من السقم، ماغيرت من خط كاتب

وقوله :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم
إذا رأى غير شيء ، ظنه رجلا

وقوله :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه — لعوّقه شيء عن الدوران

وحتى لو أدّى ذلك عنده إلى التهاون بالعقيدة في مثل قوله :

إن كان مثلك كان أو هو كائن — فبرئت حينئذ من الاسلام

وقوله :

تتقاصر الافهام عن ادراكه — مثل الذي الافلاك فيه والدُنا

وقوله :

او كان لجّ البحر مثل يمينه — ما انشقّ حتى جاز فيه موسى

ولا نكران ان هذا المذهب في الغلو « عاهة » — نقولها بلا مبالغة — ابتلي بها الادب العربي . ولكن ليس المسؤول عنه المتنبي إذ كان فيه عالة على سواه . وإنما يقع إثمها على الشعراء قبله — عباسيين وأمويين — ممن اتخذوا الشعر صنعة صرفاً وزجوه بضاعة للكسب في الاسواق . ففتحوا بذلك البابَ للعبث بالتراث العربي ، إذ دأب الشعراء بعدها — وصاحبنا في الطليعة — على التلاعب بالمعاني التقليدية ، وتقليبها على وجوه — مما دعوه « أخيلة شعرية » — امعاناً في الصنعة . حتى آل بهم الأمر أخيراً إلى تقرير القاعدة المشؤومة : أعذب الشعر أكذبه .

ولا يكاد يقضي المرء عجباً من هذا الصراع الذي كان ينشب في

نفس المتنبي لجريه في هذا الشوط مع معاصريه إلى نهايته ، وهو يعلم انه معهم من عشوته في cul-de-sac لا ينتهي به إلى نافذ . فكان يتناكص عنه في الفينة بعد الفينة جرياً على طبعه الاصيل بين يدي الممدوحين . مما أدّى بأهل عصره إلى الانتقاص حتى مما نهج فيه من الاقوال ما توحي به الفطرة في مستهل بعض قصائده ، كمثل قوله :

لا يحزن الله الامير ، فانني لآخذ من حالاته بنصيب

وقوله :

« اوه » بديل من قولتي « واها » لمن نأت ، والبديل ذكراها

وقوله :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكنّ امانيا

لا لشيء إلا لأنه لم يلتزم هنا — في عرض بضاعته — ما يلتزمون . (١)

* * *

ورفعت رايتها فئة خامسة هم الرواة سلّطوا ضوءهم على عمود هذا الشعر المشرق فوجدوا فيه شيئاً لم يألفوه فيما سبق من علمهم هو ما سموه نزوح صاحبه إلى طريق الفلسفة ، مع ان عصرهم قد كان عصر علوم وفلسفة ، فرموه بالشذوذ في مثل قوله :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبه

١ هذا العرض للبضاعة المصنوعة — وأهل العلم حتّى القدامى منهم كانوا يفرقون لهذا بين « المطبوع » و « المصنوع » منها — هو الذي جعل عندهم لبيعها قواعد سلوك التزموها ، من براعة الاستهلال ، وحسن التخلص ، وبيت القصيد ، والمسك في الختام . وكلها — لو تأملت — من ملتزمات الصنعة التي اصطلحوا على وضعها بينهم . فأخذها عنهم المتخلفون كقضية مسلمة .

فهذه الارواح من جـــوّه   وهـذه الأجسام من تربـــه
لو فكّر العاشق في منتهـى   حسن الذي يسبيه لم يســـبه
لم ير قرن الشمس في شرقـه   فشككّت الأنفس في غربـــه
يموت راعي الضأن في جهله   ميتة جالينوس في طبّـــــه
وربمـا زاد عـلى عمــره   وزاد في الامن عـلى سربه
وغايـة المفرط في سـلمه   كغاية المفرط في حربـــه
فلا قضى حاجته طـالـب   فؤاده يخفق من رعبـــه

وهذا أيضاً من ذاك ، فهو ينظر في البيت الاخير نظرته العربية .

فماذا يقال لهؤلاء ؟ ألا يكفي صاحبنا فخراً انـه أوّل من شقّ لنا في الشعر هذا الطريق .. وقد الفناه بعده ؟ إنه يقف فيه – وحده – على رأس مدرسة كان من تلامذته فيها ابو العلاء .

* * *

ونجمت أخيراً نابتة – هي بـين ظهرانينا اليوم – تتلمذت للغرب ، شاءت ان تتجاهل أمر كل هذا التطور الزمني الذي شرّق المتنبي فيه وغرّب ، فلم تجد ما تنعى عليه في كل ذلك إلا التزلّف والصغار . ألأنه عرض بضاعته في زمانه كما يعرض الناس ؟ وماذا كان يسعه في عصر كعصره غير ذلك ؟ ثم كيف نقدّر لعبقريّ مثله الخروج على ما كان – إلى أمس قريب – يعتبر في محافلنـا الادبية التزاماً على الشاعر لطبيعة فنّه ؟ ومع هـذا فهو قـد كان أول الخارجين – كما رأينا – على نوع هذا الالتزام ، إذ لم يقف بتّراث هذا الشعر (الذي لولاه لضلّ – وها هو فعلاً قد ضلّ – في هذه المتاهات سبيله) هادياً على مفترق طرق سواه .

ويا ليت هؤلاء تلبّسوا روح ذلك العصر لتقييم اثر نوابغه . إذن لبان لهم ان في هذا المذهب الشعريّ من تقصيد القصائد في باب المديح

الذي جرى عليه شعراؤنا إبّان مجدهم ميداناً واسعاً للتنافس بينهم. شأنهم في ذلك شأن ميخائيل انجلو ورفائيل وغيرهما من فنّاني اوروبا في العصور الوسطى ، إذ كانوا – مثلهم – يتعلّقون بالقصور في عرض روائع آثارهم الفنّية . وانما اريد أن أقول تلك أمة خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فلو حاولوا تفهّم ذلك على الوجه الذي أراده ذووه إذن لرأوا شاعرنا « يجلّ عن الملام » .

لكن الجاهلية – جاهلية العصر – أبت إلا فتح الباب على مصراعيه ليمرق منه كبار قريش إلى اتّهامه بكل شاردة وواردة . فهذا يتهمه بالقرمطية لقوله في بني قومه :

بكل منصلت ما زال منتظري حتّى ادلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحلّ دم الحجاج في الحرم

وهذا يتهمه بالشعوبية لقوله في فارسي :

ابا شجاع ، بفارس ، عضد الدولة ، فنّاخسرو ، شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة وإنما لذّة ذكرناها

وهذا أخيراً يَسمه بجنون العظمة لقوله في نفسه :

أيّ محل ارتقي أي عظيم اتقي
وكلّ ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقَر في همّتي كشعرة في مفرقي

والمتنبي باق موقفه من أكبر هؤلاء ابداً كموقفه من أصغر اولئك ، مصداقاً لقوله :

لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

ومع هذا فقد بقيت للأولين منهم والآخرين فضيلة يشكرون عليها، إذ ظلّوا يسدون للغة الضاد في ابنها البكر يداً بيضاء من حيث لا يعلمون . فان تظافرهم جميعاً من كل حدب وصوب وفي مختلف العصور والازمنة على نبش الترب في منجم ديوانه ، واثارة الغبرة حوله ترك معدنه الوهّاج عارياً للعيان .

وهذا ما كان من أمر المتنبي مع ناقدي الديوان .

° ° °

قال الاستاذ العقاد وهو من الذين خلعوا على الشاعر برد شبابهم في حديث له منذ أيام :

المتنبي يمثّل العبقريّة العربية من الناحية العملية .

لقد عاش المتنبي قبل ألف عام (٩١٥ – ٩٦٥) متنقّلاً في هذه البقعة المباركة من الأرض بين لبنانها وأردنها وفلسطينها وعراقها ، من بادية الشام جنوباً إلى الاناضول شمالاً ، ومن القاهرة غرباً إلى شيراز شرقاً . ولم تكن الحضارة في عصره تتمتع بمعجزة العلم في بعض ما نراه من هذه الوسائل الآلية الميسورة للناس اليوم في كل صقع ومكان . فكان حاله في تنقّله كما وصف نفسه قبيل مغادرته مصر :

واني لنجم تهتدي صحبتي به	إذا حال من دون النجوم سحاب
غنيّ عن الاوطان ، لا يستخفّني	إلى بلد سافرت عنه ، اياب
وعن ذملان العيس ، ان سامحت به ،	والا ففي اكوارهن عقاب
وأصدى ، فلا أبدي إلى الماء حاجة	وللشمس فوق اليعملات لعاب
وللسرّ مني موضع لا يناله	نديم ، ولا يفضي اليه شراب
وللخود مني ساعة ، ثم بيننا	فلاة ، إلى غير اللقاء تجاب

يكشف صفحته للشمس ويقطع مفاوزها وحيداً من الخلاّن .

ولقد رأى المتنبي في هذه البقعة المباركة وجوهاً من الفتن حيث سار ،

في الدويلات المتمزّقة ، أنكرها قلبه ولسانه ، ربما لا تختلف حالها عن الحال التي نراها قائمة لهذه الفتن فيها فننكرها مثله في ضمائرنا . ولم يكتب له ان يرى كل النعم التي أنعم الله بها على البلاد رؤية عصرنا لها ، وان أدرك بجوارحه طاقات ابنائها العرب ، ولعلّ أعداءنا يلمّون بها خيراً منا . ولو شئت تعداد هذه النعم اليوم ، لما تعدّيت ما قلته أمس ، في الدورة الرابعة لمؤتمر الادباء العرب بالكويت عام ١٩٥٨ :

فنحن لا غيرنا نشرف من هذه البقعة المباركة مما يسمونه الشرق الاوسط على ممر تاريخي بين الشرق والغرب ولا كالممرات ، كان بالامس جسراً بين حضارتين قديمتين قبل بزوغ الاسلام بينهما ، وهو اليوم إن شئنا أو أبينا حلقة اتصال بين حضارتين كذلك ، هما الحضارة التي يتعلّق الشرق بأدق معانيها ، والحضارة التي يكدح لها الغرب في أوسع مجاليها ، حلقة لم تزدها هذه الطائرات التي تعمل في سماواتنا كل ساعة من ليل أو نهار إلاّ شدّاً من أطرافها وإحكاماً . فهذه واحدة من النعم وما أجلها من نعمة ...
ونحن لا غيرنا نجثم من هذه البقعة المباركة فوق موارد غنية ، بات لا غنى للعالم عنها في مجال صناعاته وأسلحته ، جعلها الله تحت أقدامنا . فما علينا إلا ان نخلص لأنفسنا لنجني منها كل ما نبتغي من الثمرات لصالحنا وصالح سوانا معاً . فهذه ثانية من النعم وما أعظمها من نعمة ...

ونحن لا غيرنا نطل من هذه البقعة المباركة بين المذاهب المتضاربة المتنافرة على الطريق السوي . فلا يجوز لنا ان نغرق في روحانية الشرق التي تتنكر لواجبات الحياة وان اعترفت

بقيمها ، ولا يجوز لنا ان نغطس في مادية الغرب التي تتنكر لقيم الحياة وان عرفت واجبها . وإنما يحسن بنا بحكم وضعنا الخاص ، ان نجمع بين قيم الحياة وواجباتها قدوة مثلى للآخرين . فتلك ثالثة من النعم وما أظهرها وأكبرها معاً ...

إن العرب لجديرون بهذه النعم وان خير سبيل للاستفادة منها هو ان ينعموا عيناً بوحدتهم في العروبة التي تفرضها عليهم أرضهم ولغتهم وتاريخهم ، وان يسعوا إلى تحقيق ما أنيط بهم من الرسالة ، رسالة الاعتدال التي يستحيل على سواهم فهمها والاضطلاع بها في عالم انشطر على نفسه .

• • •

ما كان للمتنبي أن يدرك لبعد زمانه كل هذه النعم ، لكنه كان يؤمن مثلنا بالوحدة في العروبة وهي هي سياجها المتين ، وظلّ يحلم بها للعرب طيلة حياته . ومن منا لا يؤمن شرواه بوحدة العرب في الرسالة التي بلّغوها في فجر تاريخهم إذ كانوا على أعتاب الجاهلية ... جاهليتهم؟ وانهم لمكلفون بادائها ... إلى اليوم ... وهم على أعتاب جاهلية جديدة .. جاهلية سواهم .

هذا ما عاش له المتنبي قبل ألف عام ومات قتيلاً ، تاركاً لنا مخطّطات تلك « الرسالة » في هذا الديوان .

المفتاح

لتراث العرب الشعري

من أغرب المظاهر التي يقف امامها المرء مشدوهاً ، والتي تفرض « الفنون » بها نفسها على الناس في كل عصر وجيل ، صفة في الفنون موغلة في القدم ، تبرز جلية للعيان عند جميع الشعوب من باديها وحاضرها على السواء هي .

إنّ صاحب الفن لا يستطيع إلا أن يعيش لفنّه ، ولكنه لا يستطيع ان يستأثر بفنّه .

هو لا يستطيع إلا أن يعيش لفنّه فيكرس كل حياته له مسيّراً لا مخيّراً ، لأنه لو لم يفعل ذلك . موقداً نفسه طيه في « لمجمرة » عوداً بين يدي ربة فنّه لما استطاع ان يتسامى بروحه حتى تنتشر عبقاً في هيكل الفنون . ولذلك ترى هذا لحرص من الفنان على أن يجعل صباح كل غد يستقبله ، خيراً من عشيّة أمسه الذي أدبر ، بالنسبة إلى تدرّجه الفنّي وتطوره فيما يبدع . ففي اليوم الذي يشعر هو فيه بالعجز أو الكلال عن ذلك ، أي عن المضي في « المحاوله » مجبراً غير

مختار . فقد انتهى أمره كفنان ، وينفصم « العقد » بينه وبين من كانت ترعاه من آلهة الفنون .

ثم هو لا يستطيع ان يستأثر بفنه ، أو يلتزم به لنفسه دون الناس . وأنّى يستطيع ذلك والاستئثار هنا إنما هو بمثابة الخروج على الالتزام طبيعة فنّه ؟ لأنّ الفن أصلاً هو « تعبير » ولا شيء سواه ، وما دام هو كذلك فالناس كلهم يكون لهم — أو يجب ان يكون لهم — نصيب منه ، لاشتراكهم مع الفنان في الدواعي اليه وإلا كان زائفاً لا يصدق على موطنه ، إذ هو وسيلتهم أيضاً — ان لم يكن « خير » وسائلهم — إلى أغراضهم الـتي تقتضيها ظروف هذا الوطن عن طريق التعبير . فلا بدّ إذن في تاريخ كل فن من وجود ما يسمونه « الجمهور » (Audience) ... هذا الجانب من المجتمع الذي يقابل جانب الفنان كفرد فيه . ومن سخرية الاقدار ان يستغل سراة الجمهور (Patrons) دائماً جهود الفنان بينهم ، في سعيهم الاقطاعي ، لينالوا بالفن — على حساب الفن — مراميهم ، وسواء بعد ذلك لدى الجمهور وسراته إذا كان الفنان قد بلغ أو لم يبلغ بفنّه مراده منهم . (١)

ولكن هذا لا يهم مطلقاً ما دام الفن قائماً بنفسه ، فمكافأة الفنان في مجال « القيم » تبقى كامنة في المحاولة الفنية نفسها ، كما ان ثواب

---

١ لقد صور العباس بن الاحنف ما يهدف اليه كل فنان في حياته وما ينتهي اليه في النهاية أمره ، وذلك بصورة غير مباشرة ، في بيتيه اللذين ليس بعدهما في تصوير « نذر الفنان» زيادة لمستزيد :

أحرم منكم بما «اقول» ، وقد نا ل به العاشقون ، من عشقوا
صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس ، وهي تحترق

فترى هنا مثلا الاشارة إلى محاولات الفنان للتعبير عما يحس به ، تفصح عنها كلمة « أقول » في صيغة المضارع ، وهي الحالة التي تلازم كل فنان طيله حياته الفنية . ثم هو قد يظفر أو لا يظفر من « المحاولة » بما يطمح اليه شأنه في ذلك شأن الشاعر هنا الذي كان نصيبه الحرمان . وأخيراً وراء الموقف كله هذه الجمهرة من « العشاق » — في الحالين — وم الذين يتاح لهم ان ينالوا بفضل جهوده الفنية مبتغاهم من الحياة دونه .

الفضيلة يبقى مستتراً في الحياة بهـا بين الناس ، لا فيما تجلبه مـن المنافع لذويها .

فهذان هما الوجهان لسكّة كل فنّ ، يكون ذهبها غير مغشوش .

صفة في الفنون موغلة في القدم تصدق على الفن الشعري عند العرب كما تصدق على كلّ ما عند سواهم من الفنون ، فهم وأبناء سائر الأمم فيها على السواء . فإذا هم اختلفوا بعد ذلك عن غيرهم من الشعوب في مظاهرها الأخرى ، التي لم تثبت عندهم ، كما لا تثبت عند غيرهم ، على حال — وان الاختلاف بيننا لكبير — ففي ما أتيح للعرب أصلاً دون غيرهم وفيما حجّر عليهم خلاف سواهم من « المجال الحيوي » بآية معيشتهم الخشنة في البادية وضراوتها .

* *

سقنا هذه الكلمة لتعليل ظاهرة فريدة تعمّ الأدب العربي كله وتفيض من جانبيه (١) ، يقف أمامها من يحاولون درسها من رجال الاستشراق مذهولين ، ألا وهي ظاهرة « المديح » الذي يشغل بفنه معظم الصفحات في دواوين جميع شعرائنا ، ومن قديم العصور . فلمـاذا كانت هذه الظاهرة بالذات التزامـاً من الشاعر العربي لطبيعة فنّه ، وظلت كذلك عندنا إلى عهـد جـدّ قريب ؟ وأنّى كان منشؤهـا في التاريـخ ؟

وقبل أن نواصل الحديث نودّ ان نقرّر حقيقة ربمـا التبس أمرها عند هؤلاء الناس . فيخطىء من يظنّ منهم ان للاخذ بهذا الالتزام كان في تلك العصور يحمل أي معنى للزراية بالفنّ الشعري أو هوان الشعراء ، فقد كان الممدوحون — وهم من الملوك والوزراء والقـادة والوجهاء — يبرزون بصفحتهم ، وينتظرون في المواسم وفود هؤلاء

١ في الادب الاسلامي بفارس والهند كلتيهما . فان ما ينظم من الشعر في اللغة الفارسية وشقيقتها الهندية « اردو » هو على غرار الاوزان العربية ، ومذاهب قولهما فيه هي مذاهبه المتبعة عندنا .

الشعراء عليهم ، ويتهيّأون لهم في صدور المحافل لكل مناسبة خاصة أو عامة . لأسباب ذات صلة بما طرأ من التطور على سكان هذه البقعة من العالم بعد الفتح الاسلامي ، فكأنما هم كانوا يدعون الشعراء لهذا المقام بلسان الحال . فمن لم يطرق بابه منهم كان مزرياً عند كل قبيل وتحاشى الناس بساطه بدعوى لؤمه وبخله وذمّوه بكل لسان . وهذا كان أخشى ما يخشاه من له بينهم – حتى من الاعاجم – أدنى وجاهة ، في مجتمع اسلامي دعم كيانه العرب فتغلغلت اليه التقاليد العربية .

ومعنى هذا ان القضية كانت نوعاً من المقايضة لمعنى من معاني « المجد » بين الشعراء وممدوحيهم . فلا الشاعر كان بذي غناء عن محافل السراة ، لأنهم الطريق الاوحد إلى مجده ، فبدونهم تضرب عليه عزلة لا يحسّ به فيها انسان فكأنما هو يتنفّس منها في قوقعة مغلقة على نفسه ، ولا السراة هم في غنى عن تردّد الشاعر عليهم أو توظّفه عندهم ، لأنه كان – في بعض ما كان – بمثابة داعية لهم يرفع لواءهم بين الانام وينشر صحيفة امجادهم في الآفاق . (١)

لندع هذا إلى حينه .

فهذا الالتزام من قبل الشاعر لمذهب المديح – إذن – له عذره . ويرجع في أصول تطوّره على هذه الشاكلة إلى جملة أمور :

منها ان حياة العربي في البداوة كانت « بسيطة جداً » ، فلم يعرف

---

١ فلو ان هذا التهافت على المديح كان خالصاً لوجه الكبرياء في الممدوح أو ذلة في مادحه لما استطاع ان يسقط ابو تمام و البحتري في زمانهما – كما يروي التاريخ – خمسمائة شاعر ما منهم إلا مجيد لفنه ، و لا كان من أمر المتنبي ما كان مع شعراء عصره . و إنما الذي كان وراء ذلك هو شيء أكبر بحقيقته ، احتفل له الشعراء بكامل طاقاتهم الفنية ، قدرها لهم الممدوحون أحسن تقدير و ذلك برفع طبقاتهم بين الناس . كما ان عناية الممدوحين بأصحاب الشعر الرفيع هذا رفعهم بدورهم – في مجتمع عاد يؤمن بالطبقات – عن أمثالهم من ذوي الجاه درجات .

من الحياة إلا لونين ، فما لم يكن أبيض فهو أسود عنده ، إذ لم تكن في البادية التي يسرح فيها ظلال » ، (١) مما سدّ على العربي (الذي كان كلّ ما يأوي اليه بيت من صوف أو شعر) منابع الفنون كلّها ، سواء أكان نحتاً أو تصويراً أو موسيقى ، لاستحالة نبعها لديه فوق منسرح تلك الرمال ، وعدم قراره في بيئته الظامئة تلك على حال ، باستثناء نبع غزير واحد هو لغته . فقد وجدت مخيّلته فيها وحدها ما يعيض عن كافّة هذه المنابع ، ومنطلقاً للاحتفال بنزعته الفنّية . وقد نوّرت براعمها على شفتيه في شعره الذي أنشده ملء شدقيه ، ممّا لا تحسنه إلا لغة الضاد .

ثم ان احتفال العربي في وحدته بهذه النزعة الفنية نشط أول الامر على مجرد وصف عابر ماديّ لما يترك اثراً في نفسه المتطلعة من المناظر والمشاهد التي تقع حوله ، كلما دار بنظره في البادية من فوق راحلته ، أو قلّب من وراء خيمته طرفه في قبّة سمائها ، والا على نجوى نفسه كلما ضاق بوحدته فيها . وظهر الحشد الباني لهذه الاوصاف في محاولات هلاميّة جاءت بعدُ لضمّها معاً في سموط ، نرى اثرها عند أصحاب المعلّقات من تقصيد القصائد لكن على غير نسق أو نظام ، وابتدائها بذكر الاطلال وديار الأحبة . فهذا هو الداعي لصنع امرئ القيس :

قفا نبك ، من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدّخول فحومل

أو صنع طرفة :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ولما جرى عليه الشعراء من العوائد — بعد — في مدائحهم التي صاروا يستهلونها مثلاً بوصف الاطلال .

* * *

١ راجع الفصل الثاني من « الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث » للمؤلف .

ومنها ان الشعر عند هذا العربي تبلور في مجتمع البادية كفن « – اول ما تبلور – على غرار الخطابة . فكان يلقى بـه في المحافـل والاسواق – كسوق عكاظ وغيرها – ليؤدي مثلها (أي مثل الخطابة) خـدمة اجتماعية . وقد كان هذا لا بدّ منه بـين أقوام نشأوا على الأميّة فكل اعتمادهم في تأمين الحياة لأنفسهم لا يتجاوز آصرة نسب بـين القبائل وقوة السلاح ، وكل اعتمادهم في صحة قضيتهم لا يتعدّى عمل الذاكرة وما تتناقله ألسنتهم من الاخبار . » (١) ويظهر ذلك بأجلى صورة في معلّقة عمرو بن كلثوم (وهي احرى ان تسمى « خطبة العرب ») وقوله فيها :

أبا هند ! فلا تعجـل علينـــا	وأنظرنـــا نخبّرك اليقينـــــا
بأنّا نورد الرايـات بيضـــاً	ونصدرهنّ حمراً قد روينـا
ورثنا المجد عن عليـــا معـدّ	نطاعن دونـه حتّى يبينـــا
كـأنّ سيوفنا منـــا ومنهـــم	مخاريق بأيدي لاعبينـــــا
ألا لا يجهلن أحـــد علينـــا	فنجهل فوق جهل الجاهلينـا
بأي مشيئة ، عمرو بن هنـد ،	تطيع بنـا الوشاة وتزدرينـا ؟
فان قناتنـــا يا عمرو أعيـــت	على الاعـداء قبلك ان تلينـــا
وقـد علم القبائل من معـدّ	إذا قبب بأبطحها بنينـــا
بأنا المطعمـون إذا قـدرنـا	وانا المهلكـون إذا ابتلينـــا
وانا المـانعـون لمـا اردنـــا	وانا النـازلون بحيث شـينا
وانا التـاركون إذا سخطنـــا	وانا الآخـذون إذا رضينـا
ونشرب ان وردنا المـاء صفواً	ويشرب غيرنا كدراً وطينـا
إذا ما الملك سام الناس خسفـاً	أبينا ان نقرّ الخسف فينـا
لنا الدنيا ومن أمسى عليهـــا	ونبطش حين نبطش قادرينـا

١ راجع المصدر السابق . وسنعول في بقية هذا الفصل على المخططات الرئيسية هناك .

ملأنا البرّ حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملأه سفينا
إذا بلغ الفطامَ لنا صبيّ ... تخرّ له الجبابر ساجدينا

فانها ليست سوى خطبة أمدّها الشاعر العربي بنفَسه الطويل . ونرجو ألا تفوتك دلالة الاندفاع العاطفي من قبل صاحبها وراء كلماته . فسترى كيف ساء اثره في العصور التالية عندما ولع الشعراء بالتهويل ... وكيف أصبح – بعد – ضربة لازب في الشعر العربي كله .

وإذ كانت وظيفة الشاعر الاجتماعية آنذاك بحكم هذه الظروف القاسية لا تتجاوز تمجيد القبيلة ورؤسائها وتسجيل أيامهم بين القبائل ومفاخرهم ، لأنه لسانهم الناطق ، فان هذه الوظيفة هي التي كانت تفرض عليه – في بعض ما تفرض – ان يقوم بعمل السفارة أحياناً عند حلفائهم من القبائل كلما دعا لذلك داع .

ومن هنا كان أول منبثق المديح بشكله المأثور في الشعر العربي .

فقد نشأ المديح بمعناه الفني – إذن – أول ما نشأ ، في قصور الملوك من المناذرة في العراق والغساسنة في الشام في عصر « الاحلاف » ، وذلك قبيل الاسلام بقليل ، عندما كان يتردد عليهم الشعراء من أمثال النابغة الذبياني وحسان بن ثابت ويشيدون بفضلهم ومعروفهم على الشاعر وقبيلته بحكم سفارتهم في بلاطات هؤلاء الملوك . وعلى هذا الاساس يجب ان يفهم ما قاله هؤلاء فيهم .

تأمل مثلاً قول النابغة في عمرو بن الحارث الغسّاني :

عليّ لعمرو نعمةٌ ، بعد نعمة ... لوالده ، ليست بذات عقارب
وثقت له بالنصر ، إذ قيل : قد غزت ... كتائب من غسّان ، غير أشائب !
إذا ما غزوا بالجيش ، حلّق فوقهم ... عصائب طير ، تهتدي بعصائب

جوانح .. قد أيقنّ ان قبيلـه ، إذا ما التقى الجمعان، أوّل غـالب
فهم يتساقون المنيّة بينهـم بأيديهم بيض ، رقاق المضارب
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود ، والاحلام غير عوازب
ولا عيب فيهم، غير انّ سيوفهم بهنّ فلول ، من قراع الكتائب
رقاق النعال ، طيّب حجزاتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب

أو قول حسان بن ثابت في جبلة بن الايهم :

لله درّ عصابة ! نادمتهم يوماً بـ «جلّق» ، في الزمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها مشي الجمال إلى الجمال البزّل
والخالطون فقيرهم بغنيّهم والمشفقون على الضعيف المرمل
أولاد « جفنة » حول قبر أبيهم قبر ابن « مارية » الكريم المفضل
يسقون من ورد «البريص» عليهم «بردى» ، يصفّق بالرحيق السلسل
يسقون درياق الرحيق ، ولم تكن تدعى ولائدهم لنقف الحنظل
بيض الوجوه ، كريمة أحسابهم، شمّ الانوف ، من الطراز الأوّل
فلبثت أزماناً طوالاً فيهم ثم ادّركت ، كأنني لم افعل

لتدرك معنى هذه السفارة بوضوح .

وربما أدى العربي بمديحه ثمن معروف اسدي اليه شخصياً ، كما فعل الاعشى حين مدح المحلّق بقوله :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرّق
تشبّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى « والمحلّق»
رضيعيْ لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرّق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندوانيّ رونق
يداه يدا صدق ، فكفّ مبيدة وكفّ ، إذا ما ضنّ بالمال، تنفق

فكان ذيوع أبياتها سبباً لانقاذ الممدوح من ازمة عائلية ، إذ كان مشهوراً

عن هذا الشاعر تكسّبه بمدائح « الملوك » ، فرفع ذلك من قدر الممدوح .

وكان الاعشى في آخر عمره قد عزم الرحلة إلى « الداعي الهادي » بالحجاز بقصيدة أعدّها في مدحه ، فتعرّض له القرشيّون وصرفوه عن عزمه باعطائه مائة من الابل تفادياً لعاقبة الرحلة ، مما يدلك على ما أصبح للأعشى وأضرابه من منزلة مرموقة بين القوم ، لا تقلّ عن منزلة الصحافة الحزبية في عصرنا الحديث .

يجري هذا كله والاسلام في فجره .

* * *

ومنها انه لما جاء الاسلام بثورته الاجتماعية على الطبقات ، لم يتنكر لهذه العادة التي أصبحت مألوفة في البيئات العربية . فقد تردد الشعراء على النبي عليه السلام يمدحونه فاستمع اليهم وأثابهم .

ولحادث كعب بن زهير دلالة خاصة على ما نحن بصدده . فقد وفد على النبي فأنشده مشوبة في مطلعها غزل :

بانت سعاد ، فقلبي اليوم متبول — متيّم اثرها ، لم يفد ، مكبول
وما سعاد ، غداة البين ، إذ رحلوا — الا أغنّ ، غضيض الطرف ، مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم ، إذا ابتسمت — كأنه منهل بالراح معلول

على جاري عادة القوم ، فأسبغ بمقامه هذا بين يدي النبي (الذي ألقى له بردته) قدسيّة على سنّة اتّبعها الشعراء في المدائح منذ ذلك اليوم .

ويروى ان النابغة الجعدي أنشد بين يدي النبي :

بلغنا السماء ، مجدنا وجدودنا — وانّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي : إلى أين يا أبا ليلى ؟

فأحرج الشاعر ، فقال : ... إلى الجنّة ، يا رسول الله .

فضحك النبي ، وقال له : ان شاء الله .

وقد عميت دلالة هذه الحادثة في حياة النبي على أكثر الرواة .

وهكذا اتسع للمديح صدر الاسلام ، وبقي يتناشده العرب بين أنفسهم ، وملتزماً به لأنفسهم في السلم والحرب ، وهم الذين ما وعوا الحياة إلا قبائل وشعوباً . « فلما اجتمعت بالاسلام كلمة العرب وقام لهم به كيان كأمّة ، ساروا تحت راية القرآن يحملون نوره إلى ما جاور الجزيرة من الآفاق ، ويؤدّون رسالته إلى أمم تعيش من طبقاتها في ظلمات . فآمنت كرهاً برسالتهم وهي لا تكاد تفقه سرّ العربية » . (١)

أما الشعراء من بني الجزيرة فلم تبق أمامهم – بعد ان توطّدت بالاسلام السنن – إلاّ أن يتخلّوا عن مهمتهم كخطباء في السياسة والحرب . وقد قاموا بها إلى حين على أحسن وجه ، فعادوا بما حذقوه من اسلوب الخطابة إلى المسامرة والحديث في ظل فردية طاغية ، يحاولون ان يشقّوا لهم بها في الشعر مسالك جديدة .

فكان منهم من انطوى على نفسه يغني بالحب في نطاق لم ينكره الاسلام ، كالعذريين من أمثال جميل بثينة :

أرى كل معشوقين . غيري وغيرها يلذّان في الدنيا ويغتبطان
وأمشي وتمشي في البلاد كأننا اسيران للاعداء ، مرتهنان
أصلّي . فأبكي في الصلاة لذكرها لي الويل مما يكتب الملكان
ضمنت لها ألا أهيم بغيرها وقد وثقت مني بغير ضمان

وقيس بن الملوح :

أعدّ الليالي . ليلة بعد ليلة وقد عشت دهراً لا أعدّ اللياليا

---

١ راجع المصدر نفسه .

أراني إذا صلّيت يممت نحوها ... بوجهي ، وان كان المصلّى ورائيا
وما بي اشراك ، ولكن حبّها ... كحلق الشجا اعيى الطبيب المداويا
احبّ من الاسماء ما وافق اسمها ... وأشبهه ، أو كان منه مدانيا

وكان منهم من عاد يتّخذ الناس سخرياً لأنه وجد مجتمعاً جديداً قائماً بعضه أو كلّه على نفاق ... وكم تردّد في القرآن صدى كلمة « المنافقين » ... كالحطيئة مثلاً الذي كان يعالج في نفسه شيئاً ولا يستطيع الافصاح به إلا تجمجما :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلّما ... بسوء ، فلا أدري لمن أنا قائله
ارى ليَ وجهاً شوّه الله خلقه ... فقبّح من وجه .. وقبّح حامله

ويزعمون انه أنشد البيت الثاني مستقلاً ، عندما أطلّ برأسه في بئر ، فرأى وجهه فيها .

وكان منهم من استمر في التنابز بالالقاب اظهاراً للشخصية ، بعد ان ضاعت معالمها في قبيلة ، كالثالوث الهجائي الذي شغلت نقائضه حتى صفوف المحاربين من الخوارج :

لنستمع مثلاً إلى الفرزدق ، ويصدق الرواة ، فلولا شعره لذهب ثلث العربية :

خالي الذي غصب الملوك نفوسهم ... وإليه كان حباء جفنة ينقل
انّا لنضرب رأس كل قبيلة ... وأبوك خلف اتانه يتقمّل

أو الاخطل :

قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم ... قالوا لأمهم : بولي على النار
فتمنع البول ، شحاً ان تجود به ... ولا تجود به إلا بمقدار

أو جرير :

قتل الزبير ، وأنت عاقد حبوة ؟ تبّـاً لحبوتك الـتي لم تحلـل
وافاك غدرك بالزبير على « منى » ومجرّ جعثنكم بـذات الحرمـل
بات الفرزدق يستجير لنفسـه وعجان جعثن كالطريق المعمـل

وكان منهم من مضى ممعناً في لهوه وعبثه يخوض في شؤونها أمام الناس ، كهؤلاء الغزليين الاباحيين من فتيان قريش . فهذا عمر بن ابي ربيعة مثلاً ينشد :

« قومي تصدّي لـه ليبصرنـا ثم اغمزيه ، يا أخت ، في خفرِ »
قالت لها : « قد غمزته ، فـأبى » ثم اسبطّرت ، تمشي على اثـري
قالت لهـا أختهـا تعـاتبهـا : « لا تفسدنّ الطـواف في عمر ! »

وانه ليتحدث بما يحصل له كل يوم أثناء الطواف .
وهذا أبو دهبل يتغزّل في عاتكة أخت يزيد بن معاوية :

وهي زهراء . مثل لؤلؤة الغوّاص . ميزت من جوهر مكنون
وإذا مـا نسبتهـا لم تجدها في سناء من المـكارم دون
ثم خاصرتهـا إلى القبّـة الخضراء . تمشي في مرمر مسـنون

فلا يستطيع ان يعمل فيه أمير المؤمنين ابوه شيئاً سوى أن يأمـره بالخروج من دمشق .

وقد اطلت في التحدّث عن هذه الفترة التي أعقبت ثورة الاسلام ، لأنها تركت آثاراً باقية لغوايتها فيما تلاهـا من الشعر العربي في القرنين التاليين ، إذ عـاد الشعر على أثرهـا « مباهاة بالقول وفخراً أو حماسـاً في غير مجال بعد أن كان سجلاً للعرب حافلاً بجلائل الاعمال » . (١)
أما دولة المديح فقـد ظلّت قـائمة في هذا الدور داخـل دواوين

١ راجع المصدر نفسه.

الخلفاء وخارجها على عطايا الامراء والقوّاد وزعماء الفرق ورؤساء الاحزاب .

وكل حزب بمـا لديهم فرحون .

* * *

تلك هي الاسباب العريقة الـتي دفعت بالمديح في هذا المضيق ، كالتزام من الشاعر لطبيعة فنّه ، منذ أيام الجاهلية ؛ وعلى هذه الشاكلة كان منشؤه في التاريخ العربي . أمّا ما جد بعد ذلك في القرنين التاليين من التطور على طبيعة هذا الفن فاني مبيّن أسبابه الآن .

وقبل أن أمضي في شرح هذه الاسباب يقتضيني الموضوع ان ألمّ هنا بحقيقة اسفر عنها وجه البيان في النضال العربي عبر التاريخ . فان الشعر الذي تدوول بين الناس في هذه الفتن كان في معظم الحالات — على غرار ما سبق من منابعه أيام الجاهلية — يرسل ارتجالاً ، فلم يخل قط من مآخذ فنية تؤخذ عليه .

إنه كان يرسل بلا روية (إذ لم تكن لديهم فسحة للتروي والاختيار) مما كان يوقع صاحبه كثيراً في عثرات بيانية من اقتضاب للمعنى في مثل قول المتلمّس الضبعي :

لا تأخذن ضيماً ، وتقبـل ضؤولـة   وموتن بها حرّاً ، وجلدك املـس
فما الناس إلا ما رأوا وتحدّثـوا   وما العجز إلا ان يضاموا فيجلسوا
ومن حـذر الاوتـار مـا حزّ انفـه   « قصير » ، وخاض الموت بالسيف « بيهس »
« نعامة » لمـا صرع القوم حولـه   تبيّن في أثوابـه كيف يلبس

فقد أراد أن يقول في بيته الثاني ان الرجل بأعماله الطيبة ، وان الناس لا يتحدثون إلا بمـا يلمسون من اثر هـذه الاعمال في حياة الرجال ، وان الذكر عمر ثان ... كل ذلك في شطر من بيت . ثم أراد أن يتم

كلامه ان الحياة كلها مجازفات محفوفة بالاخطار ، فمن العجز ان يقبل المرء ضيماً على نفسه طلباً للسلامة ، أو يجلس عن المعالي حباً في السلامة ... وذلك في شطره الآخر . فتأمل كيف التوى عليه القصد ، فأتى بالمعنى مقتضباً لا يكاد يبين .

أو من تطرّف في حشر المعنى في مثل قول ضرار بن الخطاب القرشي :

اری ابني لؤيّ اوشكا أن يسالما وقد سلكت أبناؤهم كل مسلك
فيا ابني لؤي ، إنما يمنع الخنا اولو العرض والاحساب والمتمسّك
فان انتم لم تثأروا بأخيكم فدكّوا الذي انتم عليه بمدّك
ألم يك منا الجار فيكم ، فتغضبوا لما نيل من عرض ، ومال منهّك؟

فقد أراد ان يقول لابني لؤي في بيته الثالث « ان هذا الذي جمعتماه من النوق لدفع الدية لا يحل المشكلة . فان الشر لا يدفعه إلا الشر ، وليس من العدل الا يأخذ الظالمون بنصيب مما جنوه . فلو كنتما تريدان عيشة السلم لما عكّرتما صفوه على الآخرين » . فتأمل كيف حشر هذه المعاني حشراً حتى أصبح كلامه رطانة لا تفهم .

أو من عدم ايضاح المعنى لمناسبة ماسّة في مثل قول الوليد بن عقبة ابن ابي المعيط :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فانك من اخي ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدم المعنى تهدد في دمشق ولا تريم
فانك والكتاب إلى « عليّ » كدابغة وقد حلم الاديم
لك الويلات ، اوردنا عليه وخير الطالب الترة الغشوم
فلو كنت القتيل ، وكان حيّاً لشمّر ، لا الفّ ولا سؤوم

فقد أراد الوليد أن يقول لمعاوية في بيتيه الاخيرين بعد أن لامه أشدّ

اللوم على تردّده في غزو العراق حيث استقر الامام ، « لو كان عثمان حياً وكنت أنت القتيل لأسرع إلى أخذ الثأر من الجانين عليك بلا كل هذه المطاولة » . فتأمل كيف انتقل إلى هذا المعنى اعتماداً على فطنة صاحبه ، دون ان يكون في سياق كلامه ما يؤدّي اليه ، مما اشكل معه أمر الضمير في قوله « ولو كان حياً » إلا على الملم بأحداث الاسلام .

أو من الحياد عن المعنى لغير مناسبة في مثل قول ابي خراش :

فوالله ما ربداء، أو علج عانة ... وما ان تيس رمل مصمّم
أتبّت حبال في مراد يروده ... فأخطأه منها كفاف محزّم
يطير إذا الشعراء حامت بجنبه ... كما طار قدح المستضيف الموشم
كأنّ الملاء المحض خلف ذراعه ... صراحيّة ، والآخنيّ المخذّم
بأجود مني إذ تكفّتّ غاديا ... وأخطأني خلف الثنيّة اسهم

فقد أراد أن يصف فراره من الاعداء وكيف أخبّ عدواً حتى سلم من السهام . فتأمل كيف حاد عن القصد لغير مناسبة ظاهرةفأخذ في وصف التيس الذي زعم انه اشبهه في العدو . وقد كان يقتضي السياق أن ينتقل من بيته الاول إلى البيت الاخير مباشرة ، حتى يستقيم له وجه الكلام .

أو من التفاتات سمجة في مثل قول النابغة الجعدي :

وكان الخليل إذا رابني ... فعاتبته ، ثم لم يعتب
هواي له ، وهوى قلبه ... سواي ، وما ذاك بالأصوب
فاني حريّ على هجره ... إذا ما القرينة لم تصحب
ادوم على العهد ما دام لي ... فان خان خنت ، ولم اكذب

فقد أراد أن يقول انه يدوم على العهد ما دام له صاحبه ، فاذا رابه

ولم يجد معه العتاب تركه غير آسف عليه . فتأمل كيف شدّد الخناق على نفسه بهذه الالتفاتات السمجة التي جرّته اليها القافية ، حتى ذهبت برونق كلامه . وتدرك مدى تقصير هذا الشاعر إذا قارنت بين قوله وما يروى لعبد الرحمن بن حسان في معناه :

وكنت إذا ما رأيت الصديق يأبى عن الوصل إلا انفتالا
تنكّبت عنه ، وألفيت لي منادح أعمل فيها الجمالا

أو من حشو مخلّ في مثل قول عمير بن حلبس الطائي :

كبرت فلم اسطع قتالا ، ولن ترى أخا شنعة يوماً عزيزاً كأوحدا
وان رجال المرء في يوم ضيمه يردّون عنه كيد من كان أكيدا

فقد أراد ان يقول ان المرء قليل بنفسه كثير باخوانه . فأخذ يمطّط هذا المعنى حتى أفقده ما له من أثر حسن على السامع بهذا الحشو المخلّ الذي لم يزد الكلام إلا ضعفا .

وحسبنا ما مرّ شاهداً على ما كان يرضى به القوم لأنفسهم من اللفظ السقيم والبناء المعقّد فيما ينظمون .

* * *

ألممنا بهذه المآخذ في مداولات القوم والقائهم الكلام على عواهنه ، لنخرج منها إلى تقدير هذا الذي حصل من التطور في طبيعة هذا البيان وخاصة في مذهب المديح الذي هو ركاز موضوعنا . بفضل عنصر جديد مررنا به لماما هم « الموالي » الذين التحقوا بالعرب من أشتات هذه الامم .

فانه « لم يمض القرن الاول حتى كان الموالي قد بدأوا ينازعون العرب حبل كل شيء ... حتى الشعر . فنافسوهم في نظمه حسب تقاليد عربية ، ولكن تدفعهم عليه دوافع لا عهد للعرب

بها » . (١)

يروى عن بشار انه قال : ما زلت منذ طرق سمعي قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير . رطباً ويابساً لدى وكرها . العنّاب والحشف البالي

وأنا أحاول تشبيه شيئين بشيئين ، حتى تمّ لي ذلك في قولي :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا . ليـل تهاوى كواكبـه

ولا تنس ان بشار كان أعمى .

وأيضاً دخل عليه أحد الأدباء وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس ، فقال له : يا أبا معاذ من القائل :

ان في بردتيّ جسماً ناحلاً لو توكّـأت عليه لانهـدم

قال : أنا . قال : من القائل أيضاً :

في حلّتي جسم فتى ناحل لو هبّت الريح به طاحـا

قال : أنا . قال : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله اني لأرى ان لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الامم الخالية ما حرّكتك من موضعك !

فهذا يقيناً ما كان يقع للشاعر العربي في جاهليّته .

فهم تارة يحاولون صياغة معاني العرب القديمة في قوالب فنية جديدة اظهاراً لقبضهم على ناصية اللغة ، واستقطاراً لامكانياتها ، وتنكيلاً بالعرب البداة .

يسمعون مثلاً قول الشماخ في راحلته :

اليك بعثت راحلتي ، تشكّـى كلوماً بعد محفدها السـمين

---

١ راجع المصدر نفسه .

إذا بلّغتني وحملت رحلــــي «عرابة» ، فاشرقي بدم الوتــين

فيقول ابو نواس :

فلم اجعلك للغربـان نحـــلا ولم أقل : اشرقي بدم الوتـــين

ويكرّرها في موضع آخر :

وإذا المطيّ بنـا بلغن محمـدا فظهورهنّ على الرجال حـرام
قرّبننا من خير من وطـأ الثرى فلهـا علينـا حرمـة وذمـام

ويسمعون قول حميد بن ثور يصف الذئب :

إذا ما غدا يوماً ، رأيت غمامة من الطير ، ينظرن الذي هو صانـع

فيقول مسلم بن الوليد :

وعوّد الطير عادات وثقن بهـا فهنّ يتبعنـه في كل مرتحـل

ويسمعون قول منصور النمري في ولي العهد :

رأيت المصطفى هارون يعطي عطـاء ليس ينتظـر السـؤالا

فيقول أبو العتاهية :

وإنّا إذا ما تركنا السـؤال فلم نبغ نائله ، يبتدينـا
وان نحن لم نبغ معروفه فمعروفـه أبـدأ يبتغينا

ويسمعون قول الأعشى في الخمرة :

تريك القذى من دونها ، وهي دونه ، إذا ذاقهـا من ذاقهـا يتمطّـق

فيقول عليّ بن جبلة :

كأن يـد النـديم تـدير منهـا شعاعـاً ، لا يحيط عليه كاس

ويسمعون قول حاتم الطائي في نفسه :

إذا كان بعض المال رباً لأهله فاني ، بحمد الله ، مالي معبّد

فيقول ابو نواس :

أنت للمال إذا أمسكته وإذا أنفقته فالمال لك

ويسمعون قول الخنساء في أخيها صخر :

وما بلغ المهدون نحوك مدحة وان اطنبوا ، الا وما فيك أفضل

فيقول ابو نواس :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني ، وفوق الذي نثني

ويسمعون قول ابي جويرية في سليمى :

تزين الحلْي ان لبست سليمى وتحسن ، حين تلبسها ، الثياب

فيقول بعضهم غير جاد :

وإذا الدّر زان حسن وجوه كان للدّر حسن وجهك زيْنا
وتزيدين أطيب الطيب طيباً ان تمسّيه ، أين مثلك اينا !

ويسمعون قول النمري في الشباب :

وإذا توسّل بالشباب أخو الهوى ألفاه نعم وسيلة المتوسّل

فيقول ابو نواس :

كان المشفّع في مآربه عند الفتاة ، ومدرك القبل

والشواهد على ذلك لا تحصى . وابو نواس هذا هو الذي قال .:. بلسان حالهم جميعاً :

عاج الشقي على رسم يسائله وعجتُ أسأل عن خمارة البلد

وهم طوراً يوغلون في استقسار أخيلة ملوّنة ، اقتبسوا ظلالها من آداب الفرس – في أكثر ما فعلوه – كان ينفر منها الذوق العربي أحياناً ، لأن الفطرة التي فطر الله العرب عليها وطبيعة لغتهم في سماتها الواضحة تأباها كقول ابي نواس في جنان :

يا قمراً أبصرت في مأتم يندب شجواً ، وسط اتراب
يبكي ، فيذري الدّر من نرجس ويلطم الورد بعنّاب

وقوله في ثانية :

ألا يا قمر الدار ويا مسكة عطّار
ويا نفحة نسرين ويا وردة أسحار
ويا جدول بستان على شاطئ انهار
ويا كعبين من عاج ويا غرّة دينار
ويا « نرداً » لفتيان ويا « لعبة » ابكار
ويا مسواك جمّاش ويا طنبور شُطّار

ولا نريد أن نستقصي .

وهم يسرفون بعد في التلاعب بقيم الالفاظ واظهار محسّناتها ، كهذا الذي يرشح على الورد عطره ليجعله فوق الورد .

كقول ابي نواس :

بصحن خدّ لم يغِض ماؤه ولم تخضه أعين الناس

أو قوله :

مباحةٌ ساحة القلوب له يرتع فيها أطايب الثمر

أو قوله :

وإذا بدا اقتادت محاسنه قسراً اليه أعنّة الحدق

أو قوله :

فتى لا تلوك الخمر شحمة ماله ولكن أياد ، عوّد وبواد

وفي شعر هذا الشاعر كفاية عن سواه .

وقد اتخذوا في كل هذا مقياس الحسن وحدة البيت ، لا القصيد ، « أخذوا بها أنفسهم قسراً ، وفرضوه على الشعر العربي بعدهم فرضاً » . (١)

فهذا الذي أحال المديح منذ ذلك اليوم إلى نوع من المقايضة بمعنى « المجد العربي » بين الشعراء والممدوحين . حتى قال فيه أبو تمام :

لو يفاجي ركن المديح « كثيرا »(٢) بمعانيه ، خالهنّ نسيبا
طاب فيه المديح — والتذّ — حتى فاق وصف الديار والتشبيبا

* * *

« كل هذه تجارب كانت تمر خلال العصور بالعرب ولغتهم كالأمواج التي تغشى الشاطئ بهديرها من مدّ إلى مدّ ، وتنحسر — بعد لأي — الأمواج ، ولسان حال البادية يسأل دائماً : هل استحدث العرب جديداً ؟ حتى كان هذا الجديد — بعدُ — في هذه الاخوانيات التي ابتدعها العصر العباسي الاول ، وفي شعر ابي تمّام الذي لقّح الشعر بالثقافة الجديدة ، والبحتري الذي لحّن الشعر بالموسيقى ، وابن الرومي الذي جوّد الشعر بفنّ التصوير . »

---

١ راجع المصدر نفسه .
٢ يعني كثير الشاعر .

فلا غرو ان يختلف الشعراء هؤلاء – بعد هذا النضج – في الاداء الفني الذي به تبين طريقة عن طريقة ،وكيف يجب أن يكون ؟ فتفرّقوا إلى مدرستين :

رأى الأوّلون الذين انتهت إمامتهم إلى أبي تمّام ، المثل الاعلى ان يُبتدع للشعر اداء خاص بـه ، يكون أعظم مميزاتـه « البلورة » و « التركيز » ، وقياس الحسن هو البيت « الفرد » ، لعدم ارتبـاط اللاحق منه بسابقه إلا معنوياً . والعلاقة الخفيّة بـين معاني القصيدة لا تحتّم عندهم ربط العبارة بين قوالب أبياتها أو التأليف النحوي بـين أجزائها ، وإنمـا تتعاقب المعاني في شعرهم كلمحات البرق لا صلة بين وميضه الاول والآخر إلا ما يصدع الدجى من نور ، في أفق من الخيال واسع يحلّق فيه ذهن الشاعر المهيمن مطلق الجناح ، أو يرتدّ الطرف خاسئاً وهو حسير .

فمن هذا النوع مثلاً قول ابي تمام يرثي ابا نصر الطائي :

أصمّ بك الناعي ، وان كان أسمعا — وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعـا
للحد « أبي نصر » تحيّـة مزنـة — إذا هي حيّت ممعراً ، عاد ممرعـا
فلم أر يوماً ، كان أشبه ساعـة — بيوم ، من اليوم الذي فيه ودّعا
مصيف .. أفاض الحزن فيـه جداولا — من الدمع ، حتّى خلته صار مربعـا
ووالله لا تقضي العيون الذي لـه — عليها ، ولو صارت مع الدمع أدمعـا
فتى كان شرباً للعفـاة ومرتعـا — فأصبـح للهنديّة البيض مرتعـا
فتى كلما ارتاد الشجاع من الردى — مفرّاً ، غداة المـأزق ، ارتاد مصرعا
إذا ساء يوم في الكريهة منظـرا — تصلاّه ، علماً ان سيحسن مصنعـا
فان ترم عن عمر ، تدانى به المـدى — فخانك ، حتّى لم تجد فيه منزعـا
فما كنت إلا السيف ، لاقى ضريبة — فقطّعهـا ، ثم انثنى فتقطّعـا

وهذا الاداء يجعل من الشعر وعاء مُعبّأ لعمق غوره وغزر مادته . وهو أروع أنواعه وأبعدها منالا ، إلا على العمالقة .

ورأى الآخرون الذين أفضت زعامتهم إلى البحتري ، المثل الاعلى ان يعود الشعر – كسابق عهده – اداء مرسلاً ، بقدر ما يسع الوزن وتسمح به القافية ، لأجل المحافظة على النغم الشعري . وأهم مميزاته « الرصف » و « الانسجام » . وقياس الحسن هو في القصيدة كاملة من مستهلها إلى مختتمها ، فلا اعتبار عندهم بالبيت لذاته الا لحسن موقعه من البيان . وتتعاقب الابيات في شعر هؤلاء كالامواج متصلاً أولها بآخرها اتصالاً لا يدرك مداه أو يعرف منتهاه حتى ينتهي الشوط بروح الشاعر الرفافة – لا ذهنه المجنّح – في طوفان التجلي مبهورة الانفاس .

ومن هذا النوع مثلاً قول البحتري يصف وفد الروم :

ورأيت وفد الروم ، بعد عنادهم ... عرفوا فضائلك التي لا تجهل
لحظوك أول لحظة ، فاستصغروا ... من كان يعظم فيهم ويبجّل
أحضرتهم حججاً ، لو اجتلبت بها ... عصم الجبال ، لأقبلت تتنزّل
ورأوك وضّاح الجبين ، كما يرى ... قمر السماء السعد .. ليلة يكمل
نظروا اليك فقدّسوا ، ولو أنّهم ... نطقوا الفصيح لكبّروا ، وهلّلوا
حضروا السماط ، فكلّما راموا القرى ... مالت بأيديهم عقول ذهّل
تهوي أكفّهم إلى أفواههم ... فتحيد عن قصد السبيل وتعدل
متحيّرون .. فباهت متعجّب ... مما رأى ، أو ناظر متأمّل
ويودّ قومهم الألى بعثوا بهم ... لو ضمّهم بالأمس ذاك المحفل
قد نافس الغيب الحضور ، على الذي ... شهدوا ، وقد حسد الرسول المرسل

وهذا الاداء يجعل من الشعر نثراً منغّماً لدقّة سبكه ولطف مخرجه ... « السهل الممتنع » . وهو أصعب أنواعه وأكثرها تمنّعاً إلا على الفحول .

وتلاحظ ان المدرستين قامتا لتعالجا (بالصنعة التي لا تبدو العين لخفائها ، أو لا تكاد تبين) ما شاب الشعر العربي – حتى أيامهما – من أوشاب لصقت به ومآخذ فنية وقع فيها ، فيما سبق لنا من شواهده الكثيرة . وان كان مرجع ذلك في الحقيقة إلى « اضطرار » الفنان – حسب طباعه – لا اختياره ، في الطريقة التي يسلكها ... كما مهّدنا للموضوع ببيانه . (١)

فهذا هو الاصل في اختلاف « الطريقة الشامية » عن اختها في العراق فيما ظهر من آثارهما ، قبيل مولد المتنبي ، في الديباجة أو التطريز .

* * *

ثم جاء المتنبي ، « فملأ الدنيا وشغل الناس » ...

وذلك لسبب جدّ بسيط هو ان هذه التجارب كلها بلغت « الذروة » عنده .

لقد حاول هذا الشاعر – خاتم الشعراء بحق – ان يجعل شعره جماع ما مرّ باللغة .. وأهلها .. من تجارب قديمة كالذي عهدنا من وضع الاعراب وابداعهم ، وجديدة كالذي شهدنا من صنع الموالي واختراعهم. هي تجارب طويلة مرّت بلغة الضاد – تمرّسنا بها في حديثنا عوداً على بدء – كان بعضها في اعتبار رجال عصره شوائب وبعضها عندهم حسنات ، (٢) نختلف في تقييمها معهم الآن .

نختلف في تقييمها معهم لأنهم آمنوا – وكفرنا – بما كان على الشاعر من التزام لطبيعة فنه في مذهب المديح ، ولذلك تقبّلوا – ونرفض – كل مستلزماته . ولئن كانوا هم أقرب بروحهم عهداً إلى ما استحدث

---

١ وراجع أيضاً « الاساليب الشعرية » للمؤلف .

٢ كما في « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للجرجاني ، و « يتيمة الدهر » للثعالبي ، وقبلهما عند الجاحظ في « البيان والتبيين » وكتبه الأخرى .

الموالي في الشعر العربي من تطوير وتزوير فانشرحوا له .. وأنكرناه ، فانهم أبعد صلة عن منابعه العميقة – لا في قوالب المعاني ، أو محتويات الدواوين – بل في سرائر النفوس وسنن الحياة ، منّا .

قال الأستاذ طه أحمد ابراهيم في طريقة المتنبي :

« المتنبي شاعر فذّ ، عبقريّ لم يسر على نهج أحد ، ولم يحاك أحداً ، ولم ينزع إلى طريقة من طرق المحدثين حتى نعدل به اليها . هو شاعر قد اجتمعت فيه كل العناصر الشعرية قديمها ومحدثها ، هو قديم في الصياغة ، اللهم إلا في مثل الابتداءات ، وحسن التخلص مما أصبح رسماً للشعر عند المحدثين . فلا جناس ، ولا طباق ، ولا تلك المحسنات التي التمسها مسلم وابو تمام ، ورضي عنها البحتري . وأفكار المتنبي ، ومعانيه هي كل ما كان يقلقه ، فاذا ما تهيأت له أفصح عنها افصاح مقتدر جبّار . ولو نفرت اللغة ، ولو نبت بعض الالفاظ .

للمتنبي نهج خاص في المحدثين ، ونظرة خاصة إلى الفن . »

شوائب وحسنات يزخر بها ديوان المتنبي ، لما مرّ بنا من أسبابها ، ولكن فطرة المتنبي كانت أغلب ، فكان بالرغم من كل ما آخذه عليه الناس من حق وباطل (١) ، أصدق صوت عربي أخذ من حضاراتهم السائدة (التي أتيحت لعصره من يونانية أو فارسية أو هندية) بنصيب ، بعد ان فطمته روح البادية التي تغذّى بلبانها طفلاً عربياً .

* * *

١ راجع فصل « المتنبي بين شراحه وناقديه » .

هذا ما رأيت ان أعرضه بين يدي دراستنا في الفصول التالية لديوان المتنبي ، أيها القارئ الكريم ، « مفتاحاً » من معدن فنّه ، نلج به إلى مدماك المتنبي الفني لا طرقاً بلا طائل من الخارج ، بل استطلاعاً في داخل ابهائه . وكلّي أمل ان هذا المفتاح سيفتح أبواباً كانت غلقاً حتى اليوم على فهم شرّاحه وناقديه ، لأنهم كانوا يلتمسون اصالته في غير معدنها ، ويستجدون مساقط غيثه في واد من طوافهم به غير ذي زرع .

فالى الملتقى – إذن – في الفصول التالية .

الباب الأول

صبي في المكتب

بين عامي ٣٠٨ – ٣١١ للهجرة كان يأخذ محلّه في كتّاب العلويين في الكوفة ، ليتلقّى دروسه مع أبناء الاشراف منهم هناك ، ويختلف إلى مكاتب الورّاقين ، ليتزوّد ممّا يتعاطون من النسخ ، صبيٌّ توشك ان تتفتح عبقريته – كالبرعم – حتى في تلك السنّ الباكرة ، فقد كان لا يتجاوز الثامنة من العمر (١)

إن المؤرخين ما برحوا – منذ ذلك العهد – مختلفين في شأن هــذا الصبيّ وحقيقة منشئه ، ومن كان أبوه وحقيقة نسبه ، فكل ما نعلم عن أمره وامرهما ، على طول الاخذ والرد بين المحقّقين ، لا يتجاوز في مدلوله نصوص ومبطّنات العبارات القديمة التالية : (٢)

١ لقد حددنا هذين العامين لموضوعنا اليوم ، لأن المتنبي وهو صبي كان قد بلغ في اولهما السادسة ، وهو قد اضطر إلى ان يغادر لأول مرة الكوفة مع أبيه (؟) هارباً إلى البادية بعد ثلاث سنوات .. كما سترى .

٢ راجع « ذكرى ابي الطيب بعد الف عام » للأستاذ عبد الوهاب عزام .

أ) « ولد أحمد بن الحسين .... الجعفي بالكوفة ، في محلة تعرف بكندة ، سنة ٣٠٣ من الهجرة » .

رواية الاصفهاني لبهاء الدولة في « ايضاح المشكل » .

ب) « اختلف إلى كتّاب فيه اشراف العلويين ، فكان يتعلم دروس العربية شعراً ولغة واعراباً » .

رواية الاصفهاني لبهاء الدولة في « ايضاح المشكل » .

ج) « كان وهو صبي ينزل في جوارى بالكوفة وكان يعرف ابوه بعَبدان السقّاء ... يسقي لنا ولأهل المحلة (كذا) ..... ويذكر انه من جعفي » .

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

د) « كانت جدّته همدانية صحيحة النسب ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيّات » .

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

هـ) « أكثر ملازمة الورّاقين ، فكان علمه من دفاترهم » .

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

و) « صحب الاعراب في البادية ، فجاءنا بعد سنين بدوياً قحّاً »

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

ز) « نظر في أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر في حداثته » .

رواية الخطيب في « تاريخ بغداد » .

فكلّ من جاء بعدهم عيال عليهم .

وظلّ الناس يلهجون مدى الف عام ان أباه كان يعرف بـ « عَبدان – أو عَيدان – السَقّاء » . ولكن هذه الدعوى لم يتردد صداهـا في التاريخ إلا منذ عام ٣٥٢ بعد وقيعة شعراء بغداد فيه باغراء الـوزير المهلّبي (لأن المتنبي ترفّع عن مدحه) ، وذلك قبيل سفره إلى فارس ، فشمت به ابن لنكك أحد شعراء البصرة ، إذ كان حاسداً له ، فقال – زاعماً (١) (العبارة للثعالبي) ان اباه كان سقّاء :

قولا لأهل زمان لا خلاق لهـم ضلّوا عن الرشد، من جهل به، وعموا
« أعطيتم المتنبي فـوق منيتـه فزوّجوه ، برغـم ، أمّهاتكم »
لكنّ بغداد – جاد الغيث ساكنها – نعالهم في قفا « السقّاء » تزدحـم

حتّى كشف الدكتور عمر فروخ عن وجه المؤامرة الدنيّة ، إذ عثر – مصادفة – في قاموس الفيروزابادي على عبارة صغيرة بهذا النصّ : « إن عِيدان السِقاء بالكسر لقب والد المتنبي » . فقال : (٢)

« يبدو لي ان والد المتنبي كان طويل الاطراف دقيقها ولذلك شبّه بعِيدان السِقاء ، وهي العيدان أو العصي التي تنصب ليقام عليها السقاء . فلا يكون حينئذ لهذا اللقب صلة بسقي الماء ولا بالفقر والغنى والخمول والشهرة » .

وهذا يبرر إلى حد كبير ما كان ذهب اليه من قبل (٣) الأستاذ محمود محمد شاكر من ان المتنبي علويّ النسب . قال :

« ووجه القضية عندنا هو هذا : تزوج رجل من العلويين – ولا جرم ان يكون من كبارهم – بنت جدة المتنبي ، فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين (وهذا الحسين هو

---

١. راجع « يتيمة الدهر » للثعالبي .
٢. في مؤتمر الدراسات العربية للجامعة الاميركية العاشر ببيروت – ١٩٦٠ .
٣. في عدد المقتطف الخاص بالمتنبي الصادر عام ١٩٣٦ .

غير عبدان السقاء) . ولأمر ما اريد هذا الرجل على طلاق امرأته وفراقها . ففارقها وطلّقها فرجعت إلى أمّها بجنينها أو طفلها ، وحزنت حزناً أهلكها فاستلّها الموت وذهب بها وبقي الطفل وكفلته جدّته ... ثم صرحت له بحقيقة أمره وصحيح نسبه ... وحذرت الفتى من عواقب التصريح بنسبه ... حتى كان من أمره ادعاؤه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطر إلى الاخلاد والتسليم . وحرص على أن يطيع جدّته . وهذا الوضع لقضية المتنبي هو الذي يفسّر لك طول تكتّم المتنبي على نسبه واخفائه جهده من أصحاب الالسنة المتنقلة بين الرجال . ويفسّر أيضاً مخرج قصّة (أبيه السقّاء) وحرصهم على حبكها ... ويأتيك بالدليل البيّن في أمره دخول كتّاب اشراف العلويين في الكوفة » .

لندع هذا إلى حينه .

فانما الذي يهمنا في هذا الحديث هو ماذا كان يتلقى هذا الصبي في كتّاب اشراف العلويين ، أو يفاد بعلمه عند الورّاقين ؟ ثم أية أحوال كان يراها بعيني صغير — مع الناس — في بلده ، واهوال يعانيها بعقل صبي — بين أبناء الاشراف — من زمانه ؟ ولعله من الخير ان نمهد للموضوع بالتحدّث أولاً عن هذه الاحوال ... وتلكم الاهوال .

* * *

كانت الكوفة في مستهلّ القرن الرابع موطىء قدم لأصحاب الدعوات من العلويين وثوّار القبائل الذين كانت تتعرض لغاراتهم وغزو القرامطة الذين كانوا يكتسحون البلاد في فترات . (١)

---

١ راجع تاريخ الطبري (توفي سنة ٣١٠) وابن الاثير وابي الفداء .

كانت تكثر الدعوات العلوية في هذه الايام ، فقد جاء في حوادث سنة ٣٠٣ عام مولد المتنبي :

« ظهر بالجامدة رجل زعم انه علوي فقتل العامل بها ونهبها وأخذ من دار الخراج أموالاً كثيرة » .

وفي حوادث سنة ٣١٢ :

« ظهر عند الكوفة رجل ادعى انه محمد بن اسمعيل بن جعفر الخ .. هو رئيس الاسماعيلية وجمع جمعاً عظيماً من الاعراب أهل السواد واستفحل أمره في شوّال ، فسير اليه جيش من بغداد فقاتلوه فظفروا به وانهزم وقتل كثير من أصحابه » .

أما غارات الاعراب وظهور بعض الخوارج فقد جاء في حوادث سنة ٣١٥ :

« دخل جماعة من الاعراب الكوفة وأخربوا سورها وأخربوا الحيرة أيضاً » .

وفي حوادث سنة ٣١٨ :

« أغار بنو نمير وبنو كلاب وعاثوا بظاهر الكوفة فخرج اليهم أمير الكوفة فأسروه » .

كما ظهرت أعظم الفرق افساداً ... القرامطة ، فقد جاء في حوادث سنة ٣١١ :

« جرت حروب كثيرة مع القرامطة ، وانتصر فيها كبيرهم

ابو طاهر ومعه سبعمائة فارس ومثلها رجّالة . كسر مرة اربعين الفاً وأسر أميرهم « يوسف بن ابي الساج » وأخذ مرّة الحجاج وأموالهم . وأخذ البصرة مرّة وقتل عاملها ونهب أموالها . وأخذ مرة الكوفة وما فيها . وأخذ مرة الرحبة ونهب وسلب وسبى » .

هذا إذا قصرنا نظرنا على موطن الصبي . أما إذا جاوزنا به إلى الاوطان المجاورة فلن نجدها ارفق حالاً ، فقد كانت عرضة أيضاً لمثل هذه الغارات ونقمة أمثالهم من الناقمين .

فقد جاء في حوادث سنة ٣١٧ :

« في آخر هذه السنة دخل ابو طاهر القرمطي يوم التروية إلى مكة ، فنهب الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام ، ودخل الكعبة وخلع الحجر الاسود ، ونقله إلى هجَر ، وقتل أمير مكة ، وقلع باب البيت ، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط ومات ، وطرح القتلى في بئر زمزم ، ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا ، وقسم كسوة البيت بين أصحابه » ... كما ... « وقعت فتنة عظيمة ببغداد بسبب تفسير قوله تعالى : « عسى ان يبعثك ربك مقاماً محمودا » ودخلت فيها الجند والعامة ، وقتل فيها خلق كثير . »

وراء هذا كله لم تكن الحال في رقعة البلاد الاسلامية الواسعة مما يبعث على الطمأنينة وراحة البال ، في هذه الدول الكثيرة الممزقة الأوصال التي كان يكيد رجالها بعضهم لبعض ، تهالكاً على العاجلة وبعداً عن

راية التوحيد . (١)

فقد جاء في حوادث سنة ٣٠٠ :

« أرسل المهدي الفاطمي (الذي قضى على دولة الاغالبة بافريقية سنة ٢٩٦) عبيد الله ثلاث مرات لأخذه مصر ، ويرسل المقتدر اليه عساكر يدفعه عنها بعد أخذه الاسكندرية وبلاداً معها . وبنى المهدي « المهدية » المشهورة ببلاد الغرب على جانب البحر ، وجعلها دار ملكه وجعل لها سوراً محكماً ، وأبواباً عظيمة ، وزن كل مصراع مائة قنطار ، وقال : الآن أمنت على الفاطميين ! »

وجاء قبلها عن المقتدر هذا في حوادث سنة ٢٩٦ :

« خلع القواد والقضاة المقتدر بالله ، وبايعوا عبد الله بن المعتز – الشاعر المعروف – ولقبوه الراضي بالله ، وجرت بسبب ذلك حروب كثيرة . وأمسك الراضي بالله وخنق وأعيد المقتدر ، فانما ولي الخلافة يوماً واحداً . وكان يقول : ان وليت ما أبقيت علوياً ! فأصابته دعوة العلويين . »

فلم يكن في أيدي العباسيين – اذن – إلا العراق والجزيرة ، حتى

١ كان عهدهم عهد الدول الكبيرة التي استقلت بالسلطان ، وان اعترفت للخلفاء اسمياً بالخلافة :
ففي فارس وما وراء النهر وخراسان – دولة السامانيين (٢٦٩ – ٣٨٩) .
وفي طبرستان وجرجان – دولة الديلم .
وفي مصر والشام – دولة الاخشيد محمد بن طغج (فقد استقل بالسلطان في مصر سنة ٣٢٢) وبعد قليل استولى على الشام والحجاز ، ولقبه الخليفة العباسي بهذا اللقب .
وفي افريقية وما يليها إلى الغرب – دولة الفاطميين (٢٩٦ – ٥٦٧) .
وفي شمالي الشام – دولة بني حمدان (٣٠٧ – ٣٩٤)
أما الاطراف فالبصرة في يد ابن رائق ، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي .
وفي الاندلس – دولة الامويين تولى أمرها عبد الرحمن الناصر عام ٣٠٠ .

استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ . (١)

* * *

أما مكاتب الورّاقين المبثوثة في كل مكان ، التي كان يجتمع فيها كبار الكتّاب والمؤلفين لنسخ كتبهم ، — شأنها شأن المطابع اليوم — فاليك مشهداً مما كان يقع فيها :

جاء في رواية الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قال :

« أخبرني ورّاق (كان يجلس اليه) (٢) قال لي : « ما رأيت أحفظ من هذا — ابن عبدان — قط » . فقلت له : كيف ؟ فقال : كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الاصمعي (سماه الورّاق ونسيه العلوي) يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه . قال فأخذ ينظر فيه طويلاً فقال له الرجل : يا هذا ! أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك ، فان كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد . فقال له : ان كنت حفظته فمالي عليك ؟ قال اهب لك الكتاب . قال فأخذت الدفتر

---

١ لم يكن الامر في هذه البقاع — في الواقع — بأيدي الخلفاء ، بل كان السلطان للمتغلبين من القواد والكبراء . جاء في حوادث سنة ٣١٧ :

« أنكر الجند والقواد على المقتدر استيلاء النساء والخدام على الامور ، وأخذ الاموال الكثيرة ، واجتمعوا إلى مؤنس الخادم ، وألجأوا المقتدر إلى ان اشهد عليه انه خلع نفسه ، وبايعوا أخاه محمد بن المعتضد ولقبوه بـ « القاهر » ، ونهبوا دار الخلافة ، ونبشوا من بيت ام المقتدر ستمائة ألف دينار ، وثالث يوم بكر الناس وازدحموا على « القاهر » فاستخفى وهرب جماعة ، فعاد الناس إلى بيت مؤنس الخادم فطلبوا منه المقتدر فأخرجه ، فحملوه على رؤوسهم حتى أدخلوه دار الخلافة ، وحضر اليه أخوه القاهر بالامان ، فرحب به وأقام عنده ، وحبسه عند أمه فأحسنت اليه ووسعت عليه ، وسكنت الفتنة » .

٢ الاشارة إلى المتنبي صبيا .

من يده فأقبل يتلوه إلى آخره ، ثم استلبه فجعله في كمّه ، وقام . فعلق بـه صاحبه وطالبه بالثمن . فقال : مـا إلى ذلك سبيل ، قد وهبته لي . قال فمنعناه منه وقلنا له : انت شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه » .

رواية الخطيب عن العلوي في
« تاريخ بغداد »

وهذه الحادثة ان لم تكن وقعت للمتنبي في الفترة التي نحن بصددها ، فانها لا تتخلّف عنها كثيراً ، فقد عاد الصبي إلى الكوفة مراراً ، بعد رحلته الاولى إلى البـادية فراراً من عدوان القرامطة ، الـذي ورد ذكره .

* * *

والآن ماذا كان يتلقّاه الصبية في كتّاب اشراف العلويين ؟ تقول رواية الاصفهاني : دروس العربية شعراً ولغة واعراباً .

ودونك التفصيل :

لا يعقل ، إذ كانت دعوات العلويين تكثر في هذه الايام ، إلا ان صبيتهم كانوا يحفظون لشعراء العلويين اول اول . ولو تأملنا في أدب القرن السابق لقرن المتنبي أو قبله لوجدنا فيه بضعة اسماء لامعة للشعراء العلويين هؤلاء . فلنستمع إلى بعض ما كان يتناشدونه منهم كالسيد الحميري مثلاً في قوله :

همّة تنطح الثريا ، وعز نبوّي يقلقل الاجبـالا
وعطاء ، إذا تأخر عنـه سائلوه ، اقتضاهم استعجالا (١)

١ في الديوان : شرفٌ ينطح النجوم بروقيـه ، وعز يقلقل الاجبـالا

وقوله :

وان مسيري من ذراك ضرورة ... ولولا اضطراري ما رضيت بذلكا
وما رحلتي إلا تبشّر عاجلا ... بأني اقيم الدهر تحت ظلالكا (١)

وكالعوني في قوله :

أحبّ ابن بنت المصطفى وأزوره ... زيارة مهجور يحنّ إلى الوصل
وما قدمي في سعيه نحو قبره ... بأفضل منه رتبة مركز العقل (٢)

وقوله :

يا صاحبيّ ! بعدتما ، فتركتما ... قلبي رهين صبابة وتصابي
أبكي وفاءكما وعهدكما ، كما ... يبكي المحبّ معاهد الأحباب (٣)

وقوله :

وانّي ليسري بي أغرّ محجّل ... سرى لا يبالي فيه بالنحس والسعد
ويصحبني ، من نسل اعوج ، ضمّر ... عتاق هداة ، لا تجور عن القصد
عليها كهول دارعون تلثّموا ... حياء، فهم بالبعد في صورة المرد (٤)

وقوله :

مضى الربيع ، وجاء الصيف يقدمه ... جيش من الحرّ، يرمي الأرض بالشرر
كأنّ بالجوّ ما بي من جوى وهوى ... ومن شحوب، فلا يخلو من الكدر (٥)

---

١ لعل الله يجعله رحيلا ... يعين على الاقامة في ذراكا
٢ خير أعضائنا الرؤوس ، ولكن ... فضلتها بقصدك الأقدام
٣ وفاؤكما كالربع – أشجاه طاسمه – ... بأن تسعدا ، والدمع اشفاه ساجمه
٤ تبدل أيامي وعيشي ومنزلي ... نجائب، لا يفكرن في النحس والسعد
وأوجه فتيان حياء تلثموا ... عليهن ، لا خوفاً من الحر والبرد
وأيضاً سأطلب حقي بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد
٥ كأن الجو قاسى ما أقاسي ... فصار سواده فيه شحوبا

وكالناشيء في قوله :

اليكم بني العباس ! عنّي ، فانني إلى الله من ميل اليكم لتائب
تركتم طريق المجد بعد اتضاحه وأقصتكم عنه ظنون كواذب
سيطعن أهل الحق بالحق عاجلاً وتبعدكم سمر القنا والقواضب
أترضون أن تطوى صحائف عصبة كرام ، لهم في السابقين مراتب ؟
ألم تعلموا ان التراث تراثهم وهم أظهروا الاسلام ، والكفر غالب
فلا تذكروا منهم مثالب ، انما مثالب قوم عند قوم مناقب (١)

وقوله :

يا أكرم الناس أخلاقاً وأوفرهم عقلاً ، وأسبغهم فيه إلى الأمد
أصبحت أفضل من يمشي على قدم بالرأي والعقل ، لا بالبطش والجلد
لئن ضعفت وأضناك السقام ، فلم يضعف قوى عقلك الصافي ، ولم يحد
لو كان افضل ما في الخلق بطشهم دون العقول ، لكان الفضل للأسد(٢)

وكالهيثم بن الاسود النخعي :

إذا نال بالسيف الفتى سؤل نفسه ترفّع عن تدنيسها بسؤال
ومن لم يصن في حاجة ماء وجهه عن الناس ، لم يلبس ثياب جلال(٣)

وكموسى بن عمران :

أصبحت من معشر ، ما في قلوبهم من السيوف ومن خوض الردى فرق
يستسهلون صعاب الحادثات ، فهم يلقونها بنفوس ما بها قلق (٤)

---

١ في الديوان بذا قضت الايام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد
٢ لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الانسان
٣ من أطباق النّاس شيء غلابا واغتصابا ، لم يلتمسه سؤالا
٤ وانا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
لمن هوّن الدنيا على النفس ساعة وللبيض في هام الكماة صليل

وكأبي سعيد المخزومي :

لم يترك الجود فيه غير عادته ... ولم يشن وعده كذب ولا خلف
فلا يلام على اتلافه كرماً ... أمواله ، والذي لم يعطه ، تلف
حفظ المروءة يؤذي قلب صاحبها ... والحب مغرى به المستهتر الكلف (١)

وكتميم بن خزيمة :

وليس يضرني قومي إذا ما ... غزاهم في ديارهم كلاب
زنادي غير مصلدة ، وسيفي ... عليه من دمائهم قراب
فلا تستحقروني لانفرادي ... فانّ التبر معدنه التّراب (٢)

وكالمستهل بن الكميت :

واني وان ألبست ثوب خصاصة ... فلست لعمري للبخيل بمادح
ومن رام مدح الباخلين فانه ... ضعيف أساس العقل بادي القبائح
نصحتك لا تكرم عدواً ، ولا تهن ... صديقاً ، لك الخيرات ، فاقبل نصائحي
وما أربي في العيش لولا محبّتي ... لنفع محبّ ، أو مضرّة كاشح (٣)

وكسعيد الخطيب :

وما كنت أدري ان في كفك الغنى ... وانك قد أصبحت للمجد عنصرا
وقد كنت في ليل من الشك مظلم ... إلى ان بدا صبح اليقين فأسفرا
تبرّعت بالأموال من غير كلفة ... وحزت بها عنّي الثناء المحبّرا (٤)

---

١ تلذ له المروءة وهي تؤذي ... ومن يعشق يلذ له الغرام

٢ وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

وهذا المعنى يتكرر عند المتنبي كثيراً .

٣ لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها ... سرور محب ، أو اساءة مجرم

٤ وعادى محبيه بقول عداته ... وأصبح في ليل من الشك مظلم

وكاسمعيل بن محمد الراداني :

كأنما الناس مخلوقون من ظلم وأنت وحدك مخلوق من النور
تهتز كالغصن عند الجود من طرب وتستغير بقلب غير مذعور (١)

وكابن هفّان المهروي :

جلست ، فقام الدهر فيما تريده ونمت عن الاشغال والجدّ ساهر
وأنت لأرباب المكارم كلهم امام ، وان غابوا فأنك حاضر (٢)

وكابراهيم الكاتب :

أحاول أمراً ، والقضاء يعوقه فبيني وبين الدهر فيه طراد
ولولا الذي حاولت صعباً مرامه لساعدني فيه عليه شداد (٣)

وكزريق البصري :

فلا تحسبوا الاقتار عاراً عليكم وأعداؤكم مثرون بين المحافل
كذا عادة الدهر الخؤون ، ولم يزل يخلّط في الاحكام حقاً بباطل
رأيت الغنى عند الاراذل محنة على الناس ، مثل الفقر عند الافاضل (٤)

وكبشر بن هدية الفزاري :

أرى الحرب في عينيّ مثل عقيلة فيؤنسني غشيانها وعناقها

---

١ في الديوان فلو خلق الناس من دهرهم لكانوا الظلام ، وكنت النهارا
أشدهم في الندى هزة وأبعدهم في عدو مغارا
٢ ودانت له الدنيا ، فأصبح جالساً وأيامه فيما يريد قيام
وكل أناس يتبعون إمامهم وأنت لأهل المكرمات إمام
٣ أهم بشيء ، والليالي كأنها تطاردني عن كونه ، واطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب ، قل المساعد
٤ والغنى في يد اللئيم قبيح قدر قبح الكريم في الاملاق

ومن لؤم طبع الجاهلين اجتنابهم ورود المنايا، وهي أريٌ.. مذاقها (١)

وكأبي محمد الخراساني :

وكم مهمهٍ قد جبته بعد مهمه ؛ وكم مسلك وعر ، وكم منهل قفر
يلين بعزمي كل صعب ارومه وهل خطب دهر لا يهوّنه صبري (٢)

وكأبي عمران الضرير الكوفي :

لست أدري كيف ابتليت بقوم لا يخافون ربّهم ، حسّادي
حسدوني على الحياة ، ومن لي بحياة أنال فيها مرادي (٣)

وكمحمد بن مسلم المعروف بابن المولى :

ما زالت تقرعهم في كل معترك ضرباً يحلّ محل الشيب في اللمم
ترى الجماجم منه غير آمنة وسائر الجسم منها صار في حرم (٤)

وكمسلم بن عيّاش العامري :

وخيل مؤدبة ، لا تزال قوائمها ، عالكات اللجم
تحنّ إلى الحرب من غير أن تقاد ، وما أقلقتها الحزم
وقد ستر النقع اعرافها فآذانها كرؤوس القلم (٥)

---

١ يرى الجبناء ان العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم
أما عشق الحرب فقد تكرر عنده كثيراً .
اعلى الممالك ما يبنى على الاسل والطعن عند محبيهن كالقبل

٢ قد هون الصبر عندي كل نازلة ولين العزم حد المركب الخشن
٣ ولكني حسدت على حياتي وما خير الحياة بلا سرور
٤ خص الجماجم والوجوه ، كأنما جاءت اليك جسومهم بأمان
٥ في الديوان قاد الجياد إلى الطعان ، ولم يقد الا إلى العادات والاوطان
ان خليت ربطت بآداب الوغى فدعاؤها يغني عن الأرسان
في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان

وكمعوج الرقي :

كم وقفنا على الطلول ، وجدنا بسحاب من الدموع يهلّ
يا محلّ الآرام والعين ! أهلاً ، لك في القلب منزل ومحلّ (١)

وكجميل بثينة :

ونغّص دهر الشيب عيشي ، ولم يكن ينغّصه إذ كنت والرأس اسود
نخصّ زمان الشيب بالذم وحده وأي زمان يا بثينة ! يحمد ؟ (٢)

وكجابر السنيسي :

خيل شواذب أمثال الصقور ، لها فوارس ، لا يخافون الردى ، بسل
كأنهم خلقوا والخيل تحتهم وهم أسود ، وفي أنيابها الاجل (٣)

وكمعقل العجلي :

ما في الملابس مفخر لذوي النهى ان لم يزنها الجود والاحسان
ليس اللئيم تزينه أثوابه كالميت ليس تزينه الأكفان (٤)

وكأبي نصر الخبزأرزي :

حصلت منكم على ما ليس يقنعني وكيف يقنع سوء الكيل والحشف
وليس سكناي نقصاناً لمنزلتي فيكم ، كما الدرّ لا يزري به الصدف (٥)

فهذا بعض ما كان يحويه دفتر محفوظات الصبية ، مما تردد صداه عميقاً — بعد — في شعر المتنبي ، وقدّرها العميدي من رجال القرن

---

١ لك يا منازل ! في القلوب منازل أقفرت أنت ، وهن منك أواهلُ
٢ من خص بالذم الفراق ، فانني من لا يرى في الدهر شيئاً يحمد
٣ وكأنها نتجت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها
٤ لا يعجبن مضيماً حسن بزته وهل تروق دفيناً جودة الكفن ؟
٥ لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف

التالي من سرقاته . (١)

والصبية يستظهرون في الغزل مثل قول ديك الجنّ :

دعص ، يقلّ قضيب بان ، فوقه ... شمس النهار ، تقلّ ليلاً مظلما (٢)

وقول ابي نصر الخبزأرزي الذي كان من شعرائهم المعاصرين فقد توفّي في البصرة سنة ٣١٧ :

وأسقمني ، حتى كأني جفونه ... وأثقلني ، حتى كأني روادفه (٣)

وقوله أيضاً :

فوا عجباً ، حتّام يمطر ناظري ... إذا هو أبدى من ثناياه لي برقا (٤)

وقوله أيضاً :

وما حاجة الركب السراة ، إذا بدا ... لهم وجهه ليلاً ، إلى طلعه البدر (٥)

وقوله أيضاً :

وشادن زرته فرحّب بي ... ترحيب جان على مواليه
جنيت ورداً من خدّه بفمي ... فعشت ، لا عاش من يعاديه
تحيي رفات العظام قبلته ... لأنّ ماء الحياة من فيه (٦)

وقول الخليع الأول :

وزائرة ما ضمّخت قط ثوبها ... بمسك ، ومن أثوابها المسك يسطع

---

١ راجع « الابانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى » للعميدي .

٢ غصن — على نقوى فلاة — نابت ... شمس النهار تقل ليلا مظلما

٣ أعارني سقم عينيه ، وحملني ... من الهوى ثقل ما تحوي مآزره

٤ تبل خدي كلما ابتسمت ... من مطر ، برقه ثناياها

٥ وما حاجة الأظعان حولك في الدجى ... إلى قمر ، ما واجد لك عادمه

٦ فذقت ماء حياة من مقبلها ... لو صاب ترباً لأحيا سالف الأمم

يَنمّ عليها ريحها ، وحليّها ، وغرّتها في الليل ، والليل أدرع (١)

وقول علي بن يحيى المنجم :

وجه . كأنّ البدر ليلة تمّه منه استعار النور والاشراقا
وأرى عليه حديقة ، أضحى لها حدقي وأحداق الانام نطاقا(٢)

وقول علي بن مهدي الكسروي :

لم أنس يوم تعانقنا وعلّلني من ريقه صافياً ، ما شابه كدر
ابصرته فرأيت الشمس طالعة تغشى العيون ، فيعشى دونها البصر
هذا على انّ حول الشمس من شعر ليل . يقال له الاصداغ والطرر
أنا القتيل ، وطرفي قاتلي ، ودمي — ما بين قلبي ومن علّقته — هدر (٣)

وقول الناشيء :

لمّا عطفن رؤوسهنّ إلى الظعائن في الكلل(٤)
قدّرتهنّ لعشقهنّ طلبن منهنّ القبل

وقول ابن الرومي :

ان أقبلت فالبدر لاح ، وان مشت فالمسك فاح ، وان رنت فالريم(٥)

كما انهم كانوا يتمثّلون في قضايا كثيرة بمفردات الابيات مثل قول العلوي الكوفي المعروف بالحماني :

تيهاء ، لا يتخطّاها الدليل بها الا وناظره بالنجم معقود (٦)

---

١ في الديوان أتت زائراً ، ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أردانها يتضوع
٢ وخصر تثبت الابصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا
٣ وانا الذي اجتلب المنية طرفه فمن المطالب ، والقتيل القاتل؟
٤ ويغيرني جذب الزمام ، لقلبها فمها اليك .. كطالب تقبيلا
٥ بدت قمراً ، ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ، ورنت غزالا
٦ عقدت بالنجم طرفي في مفاوزه وحر وجهي بحر الشمس ، إذ أفلا

وقول محمد بن كناسة الاسدي :

ترى خيلهم مربوطة بقبابهم ... وفي كلّ قلب من سنابكها وقع (١)

وقول صالح بن حيّان الطائي :

صبرت ، ومن يصبر يجد غبّ صبره ... ألذّ وأحلى من جنى النحل في الفم (٢)

وقول بعض الاعراب :

بصير بأعقاب الامور برأيه ... كأن له في اليوم عيناً على غد (٣)

وقول الخليع الاكبر :

وخير بلاد الله عنديَ بلدة ... أنال بها عزّاً ، واحوي بها حمدا (٤)

وقول أبي راسب البجلي :

ولو كنت تحوي عمر من قد نهبته ... بسيفك في الدنيا ، لكنت مخلّدا (٥)

وقول السيد الحميري :

تخفى على أغبياء الناس منزلتي ... انّي النهار ، وهم فيه الخفافيش (٦)

وقول منصور النميري :

رضيت بأيام المشيب ، وان مضى ... شبابي حميداً ، والكريم ألوف (٧)

---

١ قيام بأبواب القباب جيادهم ... واشخاصها في قلب خائفهم تعدو
٢ فثب ، واثقاً بالله ، وثبة ماجد ... يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم
٣ ماضي الجنان ، يريه الحزم قبل غد ... بقلبه ، ما ترى عيناه بعد غد
٤ وكل امرئ يولي الجميل محبب ... وكل مكان ينبت العز طيب
٥ نهبت من الأعمار ما لو حويته ... لهنئت الدنيا بأنك خالد
٦ وإذا خفيت على الغبي فعاذر ... ان لا تراني مقلة عمياء
٧ خلقت الوفا ، لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وكانوا كثيراً ما يتفكهون بأبيات في الشيب في مثل قول العطوي :

أبعدك الله من بياض بيّضت من عيني السوادا(١)

وقول المتورّد :

حلّ المشيب بمفرقي فكأنه سيف صقيل
أقبح بضيف قال لي (لمّا أتى): قرب الرحيل ! (٢)

* * *

والآن لعله يهمك ان ترى كيف قام هذا الصبي في المكتب بمحاولاته الاولى في النظم . تعال إذن نردّد معه النظر في أبيات علي بن جبلّة نراه مكبّاً عليها :

بأبي من زارني مكتتما حذراً من كل واش فزعا
طارقاً ، نمّ عليه نوره كيف يُخفي الليل بدراً طلعا (٣)
رصد الخلوة حتّى أمكنت ورعى السامر حتّى هجعا
كابد الأهوال في زورته ثم ما سلّم حتّى ودّعا

وسرعان ما يرفع رأسه ، فلا تضحك عليه إذا رأيت في لوحه هذه النتيجة :

بأبي من وددته ، فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

---

١ ابعد ! بعدت بياضاً ، لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظلم
٢ ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف احسن فعلا منه باللمم
٣ واليك محاولة ثانية للصبي في هذا المعنى عندما خرج من المكتب .

أمن ازديارك في الدجى الرقباء اذ (حيث كنت من الظلام) ضياء
قلق المليحة (وهي مسك) هتكها ومسيرها في الليل (وهي ذكاء)

فافترقنا حولاً ، فلما التقينـا كان تسليمه عليّ وداعـا

فإنها أول محاولة له .

ولكنّ هذا الصبي ما كادت تستقيم له المحاولة بين أترابه أياماً حتى أخذ ينظم الشعر ارتجالاً ... ويجيد . قيل له وهو في المكتب : ما أحسن هذه الوفرة ، فهزّ رأسه بها تعالياً وقال :

لا تحسن الوفرة حتى تُـرى منشورة الضفرين يوم القتال
عـلى فتىً معتقـل صعدةً يعلّها من كل وافي السبال

ولعلك تفهم الآن ما كان يرمي اليه ، ومن هؤلاء الذين يعنيهم بقوله « من كل وافي السبال » ، ولا أظنّك في حاجة — بعد — إلى شرح الشارحين .

فذاك هو المتنبي صبيّـاً .

الباب الثاني

على ضوء ما نظم الصبيّ

بوادر كثيرة .. ربما لاحظناها — بعضها أو كلها — ونحن نرقب المتنبي — صبيّاً — في كتّاب الاشراف العلويين في الكوفة ، ولكن الذي يجوز اننا لم نلحظه بالمرّة هو كيف ان هذا الشاعر — منذ حداثته — كان ينهج للنظم العربي نهجاً ، تميّز بخصائصه فيما بعد ، ان دلّ على شيء فعلى قبضه على ناصية اللغة .. قبض عزيز مقتدر ، حتّى في تلك السنّ الناعمة .

فهو إذا تعرّض لنظم معنى من المعاني — التي لا صلة لها مباشرة بظرف القول ، مما يمكن اعتباره التزام الشاعر لطبيعة فنّه — تعمّل له ، وجرّده من كلّ ملابساته العينيّة تجريداً ، واختزل له البيان كلّ الاختزال .

ففي قوله مثلاً :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء   إذ حيث كنت من الظلام ضياء

قلق المليحـــة وهي مسك هتكها ومسيرهـــا في الليـل وهي ذكاء

تراه إنما يصوغ نظماً ما يقرّره المنطق .. لحمة وسداة ، ولا مساس لما يسوق كحجّة — رغم قوّتها الاقناعية — بالعاطفة الحيّة . فلو انك أتيت بعبارته على وجهها البنائي لما كانت إلا :

١ أمن الرقباء ازديارك في الدجى ، إذ (لا يكون إلا) ضياء حيث كنت من الظلام

٢ لأنّ .. قلق المليحة (وهي مسك) ومسيرها في الليل (وهي ذكاء) هتك لها

فهذا كلّ ما هنالك إذا تأمّلت رصفه ، وليس كل هــذا التقــديم والتأخير في تركيب العبــارة إلا اقتصاداً منه في الالفاظ ، اختصاراً للطريق .

بينما تراه إذا اقتضى ظرفه الماثل ان يعبّر عن شيء يختلج في صدره لحينه ، أرسل الكلام مرتجلاً — أو في حكم المرتجل — ملتبساً بشعوره الحي . كما رأينا في قوله :

لا تحسن الوفرة ، حتّى تــرى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعـــدة يعلّها من كلّ وافي السبال

فهنا لا تجد أي اقتصاد في الالفاظ .. اختصاراً للطريق ، وإنما عاطفة متأجّجة يعبّر عنهـا الصبي باطلاق حرارتها في الكلمات المؤاتية لها .

وهذه قاعدة تصحّ في شمولها على شعر المتنبي كله .. طرداً وعكساً . فحيث تجد مثلاً تعمّلاً من الشاعر — في الديوان — واختزالاً في البيان بغية الاقتصاد ، وتجريداً من الملابسات ، فهناك يوجد ما لا صلة له بظرف الشاعر الزمني مطلقــاً . وحيث تجده يرسل الكلام مرتجلاً — أو في حكم المرتجل — ملتبساً بشعوره الحي ، فانما هو يعبّر هناك عن

شيء اقتضت ظروف حياته الافضاء به ، لأنه مما اختلج في صدره لحينه .

هما خيطان من غزله الدقيق تجدهما في سلك قلائده كلها : أحدهما دائماً صارخ الالوان ملوّناً بشتّى عواطفه ، والآخر لا لون له غير البياض لأنه ومض العقل المحض .

فمن شواهد الخيط الملوّن — مما ارتجله في الفترة الأولى من صباه (٣١١ — ٣١٧) — قوله وقد مرّ برجلين قتلا جرذاً وابرزاه يعجّبان الناس من كبره :

لقد أصبح الجرذ المستغير | أسير المنايا ، صريع العطب
رماه الكناني ، والعامريّ | وتلاّه للوجه ، فعل العرب
كلا الرجلين أتلى قتله | فأيكما غلّ حرّ السلب ؟
وأيكما كان من خلفه ؟ | فانّ به عضّة في الذنب

وقوله في بعض العامّة :

رماني خساس الناس من صائب استه | وآخر .. قطن من يديه الجنادل
ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله | ويجهل علمي انه بي جاهل

وقوله يرفع شعاراً :

عش عزيزاً .. أو مت وأنت كريم | بين طعن القنا ، وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيظ ، | وأشفى لغلّ صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد | وإذا متّ ، متّ غير فقيد
فاطلب العز في لظى ، وذر الذ | لّ ولو كان في جنان الخلود

ومثلها قوله في الفترة التالية (٣١٧ — ٣٢٤) أثناء هبوطه الشام :

أيملك الملك (والأسياف ظامئة ، | والطير جائعة) لحم على وضم ؟
من .. لو رآني ماء ، مات من ظمأ | ولو عرضت له في النوم ، لم ينم ؟
ميعاد كلّ رقيق الشفرتين غدا | ومن عصى ، من ملوك العرب والعجم

وقوله وقد كتب إلى الوالي لما صار معتقلاً في الحبس : (١)

بيدي ، أيها الامير الاريب	لا لشيء إلا لأنّي غريب

---

١ يروى انه كتب اليه من السجن قصيدة يستعطفه بها أولها :

أيا خدد الله ورد الخدود	وقد قدود الحسان القدود

يقول في أثنائها في استعطاف ذلك الامير والتنصل اليه مما اتّهم به :

لقد حال بالسيف دون الوعيد	وحالت عطاياه دون الوعد
فأنجم أمواله في النحوس	وأنجم سؤاله في السعود
ولو لم أخف غير أعدائه	عليه ، لبشرته بالخلود

قيل : ولما وصل الوالي إلى هذا البيت وهو :

وبيض مسافرة ، لا يقمن	لا في الرقاب ، ولا في الغمود

قال : لقد تصبب عرقاً وتقلب أرقاً حتّى استنبط هذا المعنى من قول ابي بكر النحوي المعروف بعرفه وهو :

وبيض تسافر ، ما ان تقيم	لا في الرقاب ، ولا في القرب
بطيء رضاهن ، لكنها	– غداة اللقاء – سراع الغضب

وارجوك ان تلاحظ هنا كيف كان ينظر الوالي إلى هذه البضاعة .

إلى أن قال :

أمالك رقي ، ومن شأنه	هبات اللجين ، وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء	والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلا	وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال	فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل	فها انا في محفل من قرود
تعجل في وجوب الحدود	وحدي قبل وجوب السجود

مبالغة شعرية لا تحدد لنا زمن نظم القصيدة .

ولعلك تبينت الآن كيف تحوي القصيدة الواحدة على الخيطين ، ما يمده الطبع ملوياً على ما تحبكه الصنعة .

وقيل عدوت على العالمين	بين ولادي وبين القعود
فمالك تقبل زور الكلام	وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين	ولا تعبأن بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى « اردت»	ودعوى « فعلت » بشأو بعيد
وفي جود كفيك ما جدتَ لي	بنفسي ، ولو كنت أشقى ثمود

ومنها أيضاً نتبين كنه ما اتّهم به ، فلم يكن غير « مصاولة الاحداث ونية الخروج على السلطان » .

أو لأمّ لها – إذا ذكرتني – دم قلب ، بدمع عين ، يذوب
ان اكن ، قبل ان رأيتك ، أخطأ ت ، فانّي على يديك اتوب
عائب عابني لديك ، ومنه خلقت في ذوي العيوب.. العيوب

ومن شواهد الخيط الابيض مما تعمّده في تلك الفترة الأولى قوله :

كفّي ! أراني –ويك– لومك ألوما هم ، أقام على فؤاد .. أنجما
وخيال جسم . . لم يخلّ له الهوى لحماً – فينحله السقام – ولا دما
وخفوق قلب .. لو رأيت لهيبه يا جنّتي ، لظننت فيه جهنّما

فقد أداره حول معنى .. همّ اقام على فؤاد انجم (أي طار لحبّها شعاعاً) ، فهذا الهم أراه انّ لوم اللائمة ايّاه هو أحق باللوم ، ولذلك هو يطلب منها ان تكفّ . ووراء هذا الهم جسم أصبح خيالاً ، لأنه لم يخلّ له الهوى لحماً ولا دماً ، فأنّى ينحله السقام ؟ ووراء هذا الجسم خفوق قلب لو رأت لائمته (أسماها « جنّتي » للمطابقة) لهيبه ، لظنّت فيه جهنما .

وقوله بين يدي بطل شاب من العلويين :

يا حاديي عيرها ، وأحسبني أوجد ميتاً ، قبيل أفقدها
قفا قليلاً بها عليّ ، فلا أقلّ من نظرة ، أزوّدها
ففي فؤاد المحبّ نار جوى أحرّ نار الجحيم أبردها

فقد أداره حول معنى .. فراقها ، فهو يطلب من حاديي عيرها ان يقفا قليلاً بها عليه ، فلا أقل من نظرة تزوّده بها ، لأنه يخشى أن يموت قبيل فقدها . ولماذا هو يخشى الهلاك ؟ ذلك لأن في فؤاد المحب نار جوى أحرّ نار الجحيم هي هذه النار أبرد ما تكون . وتلاحظ انه يكرّر هنا نفس المعنى الأول ،

بعد ان أدخل عليه عنصر المبالغة .

ومثلها قوله أول وروده منبج في طريقه إلى الشام :

أحيا ؟ وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي ، وما عدلا
والوجد يقوى ، كما تقوى النوى ، ابداً والصبر ينحل في جسمي ، كما نحلا
لولا مفارقة الاحباب ، ما وجدت لها المنايا ، إلى أرواحنا ، سبلا
بما بجفنيك من سحر ، صلي دنفا يهوى الحياة ، فامّا ان صددت.. فلا
الا ّ يشب ، فلقد شابت له كبد شيباً ، إذا خضبته سلوة . . نصلا
يجنّ شوقاً ، فلولا ان رائحة تزوره ، من رياح الشرق ، ما عقلا

فقد أداره حول معنى .. الحياة بعد فراقها ، فهو يسأل كيف يستطيع الحياة وأيسر ما قاساه مما يقتل . فقد جار على ضعفه «البين» غير عادل ، وهو لا يزداد على البعد إلا وجداً ، وينحل صبره في جسمه نحول الجسم نفسه ، وكل ذلك لمفارقة الاحباب .. فلولا هذه المفارقة لما وجدت لها المنايا سبلا إلى الارواح (وسوف تراه يكرّر هذا المعنى في الديوان) . ثم هو يناشدها بحقّ جفنيها الساحرتين أن تصل فيه دنفاً ، يحبّ الحياة لأجلها ، الا إذا مني منها بالصدود . وإذا كان هو لم يظهر عليه الشيب من ألم الفراق فقد شابت كبده من الوجد شيباً لو حاولت «سلوة» ان تخضبه لنصل هذا الخضاب لعجزه عن السلوان ، وكم هاج شوقه فكاد يجنّ وإنما الذي يهدّىء من أعصابه رائحة تزوره من رياح الشرق .. موطن الاحباب .

وقوله غداة هبوطه سوادها :

أظبية الوحش ! لولا ظبية الأنس لما غدوت بجدّ ، في الهوى ، تعس

ولا سقيت الثرى – والمزن مخلفة –   دمعاً ، ينشّفه – من لوعة – نفسي

فقد أداره حول معنى .. تعاسة الجدّ ، فهو يقول – مخاطباً ظبية البرّ – لولا انّ من عشقها من ظبى الانس نافرة ، لما غدا بجدّ تعس في الهوى ، ولا بكى دمعاً فسقى به الثرى إذ المزن مخلفة ، دمعاً ينشّفه نفَسه الحار الصادر عن لوعته.

فكلّ هذه القطع أو القصائد انما نظمها وهو قريب العهد بالبادية ، تتبيّن فيها بوضوح معالم طريقته . (١)
خيطان كأنعم الحرير يغزلهما المتنبي معاً – على التناقض الظاهر بينهما سلكاً موحداً لقلائده ، هما اللذان جعلا لشعره تلك الصبغة الّتي تميّز بها ... صبغة ما كان ليشاركه فيها أحد ... هي هي طريقته في الالتزام لطبيعة فنّه .

فقد انتهى به الخيط الابيض – في كمال نضجه – إلى أن يستخرج العبرة بعد العبرة من حياته الحافلة بالعبر ، بعد تجريد كلّ عبرة من ملابساتها ، بحيث تتألّق في غيوم التجارب « حكمة » يسري حكمها على البشر في كل زمان ومكان .

وانتهى به الخيط الملوّن – في نهاية المطاف – إلى أن يورد كلّ عبرة من هذا النوع – بوعي الفطرة – حيث يقتضي سياق القول في ظرفه الخاص ، فلا تجدها – في الديوان – إلا جزءاً من ذلك الظرف من حياته لا يمكن ان تتجزأ عنه ، ولا هي مقحمة عليه إقحاماً ، كما هو الشأن في الحكميّات عند سواه ، وما أروع الحكمة إذا أوتيت منطق الفطرة الواعية (٢) .

١ لاحظ انك لا تستطيع ان تنثر أبياته – حتى في هذه السن – في أقل من الفاظه ، ولا أن تغير الفاظه بأحسن منها (شهادة المعري) ... مهما بلغت عبارته أحياناً من التعقيد .

٢ ومن هنا صح فيه القول ان لغة الضاد ولدت فيه ابنها البكر ، فهو لسان غيبها المبين ، وسيد شعرائها على الاطلاق . راجع « الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث » للمؤلف .

لقد طبّق اليوم – فيصلها – الخافقين .

وهكذا أصبحت الحكمة عند المتنبي – كما سبق ان قرّرت (١) – امتداداً في الزمان ، بلا تعيين مكان ، لحكم سار « كالقضاء » على الخلق ، تطبّقه الفنون (على اختلافها عبر القرون) عند غيرنا من أبناء الأمم الآخرين ، على مكان بعينه في زمنه الخاص بالتمثيل .

أخشى اني خرجت بالموضوع إلى غايته البعيدة ، فانما الذي اريد أن أتحدث عنه في هذا الفصل هو : كيف يجب ان ندرس المتنبي . ولذلك أقول لا بد لمن يحاول درس المتنبي – درساً جادّاً – ان يمسك أولاً برأس السلك من هذين الخيطين في كل ما يمرّ بـه من كلامه – حيث وقع من كلامه – وإلا ضلّ عن قصد السبيل ، وفاته من المتنبي جوهره الاصيل .

* * *

فهذه واحدة ، وهي أبرز المعالم في طريقة المتنبي الفذّة .

غير انّ هناك معالم أخرى لا تقلّ عنها شأناً ، تقوم كالدليل للساري على طول الطريق ، على رأسها ما يتعلّق بحالته العاطفيّة . فلقد ذكرت في صدر الحديث ان المتنبي « إذا اقتضى ظرفه القائم ان يعبّر عن شيء يختلج في صدره لحينه ، أرسل الكلام مرتجلاً – أو في حكم المرتجل – ملتبساً بشعوره الحي ، بحيث لا تجد هناك الا ... عاطفة متأجّجة يعبّر عنها بأطلاق حرارتها في الكلمات المؤاتية » .

وقد تستغرب إذا قلت لك انه يختلف في هذا عن سائر الشعراء ، ولكن هذا هو الواقع . لأنهم إنما « يتمثّلون » العاطفة بينما هو يحيا فيها .

وجليّة الأمر ان الشعراء – بدون استثناء ، فيما عدا صاحبنا – يلتزمون

١ في الدورة الرابعة لمؤتمر الدراسات العربية للجامعة الاميركية ببيروت المنعقد عام ١٩٥٤ .

لأنفسهم نوعاً من التزمت الاجتماعي ، مثلهم كمثل ذي سلطان أو صاحب مركز لا يجيز لنفسه أن يخرج إلا بكامل أبهته امام الناس . فهم لا يرون من صفحة هؤلاء إلا الجانب الذي يبرزونه لهم ، لا ذلك الذي تواريه الخبايا عن أعينهم فيما يجاوز العلاقات العامة إلى خواص الشؤون . والشعراء عادة يلتزمون لمثل هذه الطلعة الفنّية وجهاً واحداً في جلّ ما ينظمون ، تجعل لأثرهم طابعاً لا يعدوه .

بينما لا ترى المتنبي يلتزم هذا التزمّت الاجتماعي ، فانه يقف أمامك مدلاّ بكل ما يغالب أسارير وجهه من العوامل العاطفية في جميع حالاته ، فهي ليست حالة (لنفسية فنان يعرض ما يقصد منه) واحدة يتعمّد تمثيلها كغيره ممن يعرضون بضاعة المديح ولا يسعهم غير تعمّد هذا التمثيل .

ومعنى هذا انه لا يقتصر موقفه بين يدي ممدوحيه على المسامرة الفنّية في حفل مشهود ، كما هو مألوف عند سائر الشعراء ، بل يتجاوز بها إلى نوع من المخادنة الّتي لا ترعى مقتضيات الحفل وانما تفضي بالحق الصراح ، كما يجري بين الاخدان . (١)

هذا الاستبطان لحالات نفسيّة ، والقدرة على الاستجابة لها توّاً — مهما اختلفت البواعث وتنوّعت المناسبات — كان من أثرهما مثل قوله بين يدي سيف الدولة يعتذر على تخلّفه عن المديح :

أرى ذلك القرب صار ازورارا … وصار طويل السلام اختصارا
تركتنيَ اليوم في خجلة … أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحييا … وأزجر في الخيل مهري سرارا
واعلم اني إذا ما اعتذرت … اليك أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرات … ان كان ذلك مني اختيارا

١ تأمل قوله : شاعر المجد .. خدنه شاعر اللفـ … ـظ ، كلانا رب المعاني الدقاق

ولكن حمى الشعر إلا القليل — همّ حمى النوم الا غـرارا
وما أنا أسقمت جسمي بـه — ولا أنا أضرمت في القلب نـارا
فلا تلزمنّي ذنوب الزمـان — اليّ أساء واياي ضـارا

وهنا تكمن أسرار مأساته .

وقوله وقد بلغه ما جرى في مجلسه بعد ان فارقه إلى مصر :

تحمّلوا ! حملتكم كلّ ناجيـة — فكلّ بين عليّ اليوم مؤتمـن
ما في هوادجكم من مهجتي عـوض — ان مت شوقاً ، ولا فيها لهـا ثمـن

° ° °

رأيتكم لا يصون العرض جاركـم — ولا يدرّ على مرعاكم اللّـبن
جزاء كل قريب منكم ملـل — وحظّ كل محبّ منكم ضغـن
وتغضبون على من نـال رفـدكم — حتّى يعـاقبه التنغيص والمـنن
فغادر الهجر مـا بيني وبينكـم — يهماء تكذب فيهـا العين والاذن
تحبو الرواسم من بعد الرسيم بها — وتسأل الأرض عن اخفافها الثفن

حالة نفسية معقّدة قلّ ما تجد لها مثل هذا التعبير عند سواه . ثم قوله وهو يتنكّر لكافور أخيراً :

.. ويلمّها خطّة ويلمّ قابلهـا — لمثلهـا خلق المهريّة القـود
وعندها لذّ طعم الموت شاربه — ان المنيـة عنـد الذلّ قنديـد
من علّم الاسود المخصيّ مكرمة — أقومه البيض أم آباؤه الصيـد ؟
أم اذنه في يـد النخاس داميـة — ام قدره وهو بالفلسين مـردود؟
اولى اللئـام كويفير بمعـذرة — في كل لؤم ، وبعض العذر تفنيـد
وذاك ان الفحول البيض عـاجزة — عن الجميل ، فكيف الخصية السود

والّتي خرج على اثرها من مصر هارباً على وجهه .

° ° °

فهذه ثانية في المعالم ، وقد كانت « القدرة على استبطان الذات والتعبير عنها تعبيراً حاراً . »

وتغلغل الحديث إلى ذات المتنبي يؤدي بنا إلى صفة أخرى في هذه الذات اشتبه أمرها على كثير من أهل الحصافة والرأي ، فانساقوا إلى أحكام جائرة وهم لا يعلمون ، وهي أيضاً من معالم الطريق لأنها تتعلّق بالذات الناطقة في الشاعر .

فان هذه الذات التي ينطق بلسانها الشاعر ليست دائماً ذاته كفرد (١) فهو كثيراً ما يلابس ذاتاً أكبر من ذاته عندما يفرض عليه التزامه لطبيعته الفنّية ذلك ، أي ان ينطق أحياناً بلسان حال الجماعة الذين هو أحد أفرادهم . وقد رأيت في بدء منشأ الصبي من كانوا هذه الجماعة ، وبماذا كانوا يتساندون أو يتواصون .

فلا غرو إذا رأيت في شعر المتنبي ما يمثّل لسان حال تلك الجماعة ؛ دون أن يسري حكم منطقه الغائيّ عليه إلا كفرد منهم . والغفلة عن هذه الحقيقة هي التي جعلت الناس في ريبة من أمره كلما ردّد صدى أهواء تلك الجماعة بروح ثائر ولهجته .. كما هو المبغيّ منه . فاذا سمعوا قوله ، وقد مرّت عليك أبيات منها :

لقد تصبّرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركنّ وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها ، والزجر يقلقها ... حتى كأن بها ضرباً من اللمم
قد كلّمتها العوالي فهي كالحة ... كأنّما الصاب مذرور على اللجم
بكلّ منصلت ما زال منتظري ... حتى أدلت له من دولة الخدم

(وأنت تدري أيّ خادم يعني) . وقوله على نفس الوتيرة :

وان عمرت جعلت الحرب والدة ... والسمهرى اخا . والمشرفي أبا

---

١ راجع الفصل الأول من « الشعر وقضيته » للمؤلف .

بكلّ اشعث يلقى الموت مبتسما حتى كأنّ له في قتله أربا
قحّ يكاد صهيل الخيل يقذفه عن سرجه مرحا بالغزو أو طربا
فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي والبرّ أوسع ، والدنيا لمن غلبا

وقوله مصرّحاً أكثر :

أقراراً ألذّ فوق شرار ؟ ومراماً أبغي ، وظلمي يرام ؟
دوْن ان يشرق الحجاز ونجد والعراقان — بالقنا — والشآم

قال العكبري معلّقاً : ولعلّ هذه البلاد قد كانت لآبائه ، فاغتصبت منهم ، فهو يحاول أن يستردّها ..! وأضاف قائلاً : وهذا من حماقته المعروفة ، ولا بد له في كل قصيدة من مثل هذا .

فهل ظنّ العكبري انها ملك آباء وأجداد هؤلاء ؟... فلا يجوز استخلاصها منهم ؟ لقد مرّ بك وصف واقع العالم الاسلامي الممزّق آنذاك ... وما كان عليه حال المسلمين في مستهلّ القرن الرابع ... وكيف كان ينطبق على عصره قوله :

انما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا

فماذا كان ينكر الجماعة من حال العالم الاسلامي ؟

لقد أوجزت لك فيما مضى أية أحوال كانت تبده عيني الفتى وهو يرى العرب وسط هذا الخضم من العالم الاسلامي كالزورق التائه ، وأية أهوال كان يعانيها من الهموم الفكرية وهو يتلظى مع اشراف قومه من غبن الزمان . (١)

يقول الاستاذ مالك بن نبي الفيلسوف المعاصر (الجزائري) (٢) في المشكلة الاسلامية :

---

١ المتنبي لم ينقطع عن الانحاء باللائمة على الدهر طول حياته .
٢ راجع « مستقبل الاسلام » لمالك بن نبي .

« القاسم المشترك بين جميع هذه المشاكل (التي يعانيها العالم الاسلامي اليوم) هي المشكلة الاسلامية وتسلسلها التاريخي منذ الهجرة . فإذا ما مثّلنا سير هذا التسلسل بخط منحن عثرنا في مكان ما من هذا الخط على نقطة تقع حوالي عصر ابن خلدون انقلبت عندها القيم الاسلامية إلى قيم لا وزن لها . ولم يكن هذا الانقلاب فجائياً بل هو نهاية البتر القديم الذي حدث في « صفّين » وأحلّ السلطان الملكي محل السلطان الديموقراطي الخليفي وفصل الدولة عن الضمير الشعبي ، وذلك لأن هذا الانفصال كان نذيراً بجميع الانفصالات المقبلة والتناقضات السياسية المتأخرة داخل الاسلام . وإذا نظرنا إلى الحوادث من الناحية السياسية بدا لنا هذا الانفصال الاول كأزمة من الازمات التي تغير عبر التاريخ نظام بلد من البلدان ثم يأتي زمن ليس فيه من فرد يقوم على حفظ السلطان والاستيلاء عليه للتوفيق بينه وبين النظام الجديد . فإذا بالصولجان يهوي من تلقاء نفسه ويتحطم فيسارع صغار الملوك إلى الاستيلاء على اشلائه المتناثرة . »

ويقول في أسباب حرب صفّين :

« فلقد شهد العالم الاسلامي أول تفسّخ فيه في معركة صفّين سنة ٣٧ هجرية ، وذلك لأنه كان يعاني — رغم حداثة مولده — تعارضاً داخلياً فيه . هذا التعارض هو النضال بين روح الجاهلية وروح القرآن ، فكان ان قضى معاوية الفاتر الايمان على هذا التوازن بين الروح والزمن . فقد العالم الاسلامي منذ هذا التفسخ توازنه الاولي بالرغم من استمرار المسلم في تعلّقه بعالم الروح الكائن في نفسه

المؤمنة ... لم يعش العالم الاسلامي بعد هذه الازمة الاولى في تاريخه إلا بفضل ما بقي فيه من الدفعة الحية القرآنية . فقام على رعايته رجال ... تجسّدت فيهم فضائل الاسلام الكبرى البسيطة ... تلك هي الفضائل – القائمة على احتقار المجد ورفض السلطان ومجابهة الظلم – التي حفظت في العالم الاسلامي خميرة الحياة التي وضعها القرآن فيه . »

ويقول في المدنيّة الاسلامية :

« ان المدنية الاسلامية لم تكن سوى توفيق بين عقائد الاسلام وواقع الامر الذي نتج عن صفّين –. ولقد لقيت المدارس التشريعية عناء كبيراً لتحقيق هذا التوفيق والوقوف في وجه سلطان ماكي مستبد . وهكذا فليست المدنيّة الاسلامية مستقاة من العقيدة الاسلامية بل ان هذه العقيدة قد انسجمت ، على العكس ، بقدر الامكان مع نظام زمني اجبرت عليه . »

ويقول في الجذور العريقة لانحطاطنا اليوم :

« لأنّ القرآن كان في مذهبه الفلسفي علماً يتجاوز آفق الضمير الجاهلي . نشأ عن ذلك انفصال بين من تمثلوا الفكر الجديد وبين من ظلوا متعلقين بالتقاليد وبالنظريات الاجتماعية وظروف الحياة التي جاء القرآن للقضاء عليها . »

« ولقد كان هذا التأخير في العالم الاسلامي سبب معركة صفّين ... هذه الحادثة هي أساس التاريخ الاسلامي منذ ثلاثة عشر قرناً ، وهي تكمن وراء أحداث تاريخية أخرى وتكشف عنها المنازعات الشديدة اثر كل ازمة . وما مذهب

الخوارج والمعتزلة في الميدان السياسي وفي الميدان الفكري سوى محاولة للرجوع إلى الفكر القرآني الذي لم يخضع بعد للضمير المتأخر . ولقد كان موضوع هذه المنازعات الانفصال بين العالم الاسلامي الزمني وبين الفكر القرآني . وإذا كان الانحطاط نتيجة لهذا الانفصال فان النهضة ، على العكس ، إنما هي محاولة العالم الاسلامي (اليوم) في الميدان النفسي اللحاق بالفكر القرآني والفكر العلمي الحديث . » (١)

إن الذي يعنينا من هذه النصوص القيمة هنا العرض التاريخي ، فإذا كان هذا ما يبرر للخوارج والمعتزلة موقفهم فكيف بالعلويين الذين لم تنقطع ثوراتهم قط منذ القرن الاول — وقد كانوا بحسب معتقدهم هم « الخصم » في القضية ؟

ولعل هذا يلقي ضوءاً على نغم الثورة الذي يتردّد صداه في شعر المتنبي كله .

* * *

فهذه ثالثة في المعالم ، وقد كانت « الاخذ بشعار الجماعة وتوطيد مبادئهم في النفوس » ايذاناً بالثورة المدوّية .

بقي أخيراً أمر يتعلق بطريقة المتنبي في الصميم من وجهة تطوّرها الفنّي .

فان هذا الشعر الذي يحفل به الديوان هو نتاج عمر لأنسان ثائر منذ شبّ وليداً حتى شارف على ما يسمونه « شباب الشيخوخة » . وينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

أ) ما كان منه قبل الاتصال بسيف الدولة ٣١١ — ٣٣٦

ب) ما كان في صحبة سيف الدولة ٣٣٧ — ٣٤٥

---

١ راجع « مستقبل الاسلام » لمالك بن نبي .

وهذا التقسيم الذي يساير حياة المتنبي يحتمل من وجهة الصنعة تقسيماً فرعياً آخر ، ففي القسم الاول شطر قد نظمه ـ كما رأيت ـ وهو صبي بالكوفة ، وشطر نظمه وهو يشدّ رحاله بين القبائل قبل نزوحه بالتالي إلى الشام . وفي القسم الثاني شطر نظمه في مدح الامير العربي خالصاً لوجهه وشطر تناول فيه وصف حروبه ، وفي القسم الثالث شطر هو ما أنشده بين يدي كافور أو بسبب منه في مصر وشطر هو ما نظمه ـ آخر ما نظم ـ في فارس ، غير ما كان ينشده كنجوى بينه وبين نفسه محلّلاً معلّلاً ، أو ينظمه جهوري الصوت مكبراً لذاته (الناطقة بلسان الجماعة) (١) في كل هذه الفترات .

ولا مشاحة ان شعراً يستغرق نظمه كل هذه السنوات (٣١١ ـ ٣٥٤) يظهر عليه من اثر المعاناة حسن الاختيار ما يظهر على صاحبه من الاتعاظ وطول الاختبار ، ومع هذا فقد مضى أكثر الادباء يحاسبون المتنبي لأنه لم ينهج في ديوانه كله على غرار ، (٢) أو لأنه لم يثبت من نفسه السائلة على قرار . (٣)

فيسأل بعضهم لماذا بدأ حياته « بمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركيّ والعندليب (٤) » ؟ والجواب على ذلك : بآية ما رآه مفروضاً عليه ـ في عصره ـ من الالتزام لطبيعة هذا الفن . فقد كان

---

١ فكأنما هي أناشيد الثورة ـ في عصرهم ـ لاستظهار الأحداث . ولعل الجزائريين هم الناس اليوم الذين يفهمون هذه اللهجة .

٢ من معجزة هذا الشاعر العربي ان كل بيت نظمه بلا استثناء (وتبلغ المجموعة ٥٤٩٤ قافية) هو موضع أخذ ورد عند الأدباء منذ نظمه إلى اليوم ، فكأنما هو ينطق بلسان الغيب حين قال :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

٣ ان كانوا يعنون لماذا أحب ثم أبغض أو مدح ثم هجا ، فقد كشفنا لك جلية أمره في بعض هذه المعالم لطريقته . ونضيف هنا : لأن الرجل لم يكذب نفسه قط !

٤ راجع « يتيمة الدهر » للثعالبي .

لا بدّ له كفنّان ان يبرز في الميدان هذه البرزة ، حتى إذا جاء سبّاقاً أمكنه ان يبلغ صوته اسماع الجماهير . ولذلك تجشّم منذ صباه الاسفار البعيدة .

وهو نفسه كان يشعر أحياناً بوعورة هذا المسلك ، فقد قال في ساعة من ساعات الضيق تلك الأيام :

إلى كم ذا التخلّف والتواني ؟ وكم هذا التّمادي في التّمادي ؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد ؟
وما ماضي الشباب بمستردّ ولا يوم يمرّ بمستعاد

ولكن لم يمكنه غير ذلك . فكيف يؤاخذ المرء أو يلام على مماشاته الزمن وتدرّجه مع الايام ؟ إن احدنا ليكون اليوم غيره أمس ، فكيف نطلب من « داعية » كالمتنبي ألا يختلف غده عن أمسه ؟

ولكننا في ديوان هذا الشاعر مع ذات حيّة ، لا يهمّها إلا أن تحيا حياة « فتيّة » ، فستراها إذ يعيش بها صاحبها مرّ النفس صعب الشكيمة ، تصعّد كلّ أنفاسها ... لقومها ... لشعارها ... لفنّها ، من يوم إلى يوم ... في الانتظار . حتى إذا شاء لها الله أن تلفظ نفسها الاخير وجدنا كلّ ذلك – ينتفض من جديد – بين دفّتي هذا الديوان .

فهذا – ان شئت – هو جوابي على سؤال من سألني مرة : كيف يجب إذن أن ندرس المتنبي ؟ وذلك على ضوء ما نظمه في صباه .

الباب الثالث

لمن كان ينظم المتنبي

لقد لاحظنا على ضوء رفقتنا للصبي ، منذ أيّام الحداثة ، كيف انه كان يحاسب نفسه كشاعر على كل لفظة ينطق بها ويعرف بالدقة موقعها من البيان ، وكيف انه كان يغزل لسلك قلائده خيطين ناعمين ، يلويهما معاً أحياناً ، تفتل للملوّن منهما .. العاطفة الجامحة ، ويحبك للأبيض .. العقل الرصين . (١)

فأمّا الخيط الملوّن .. الأداء المرسل .. فقد كان يطلقه في المواقف التي لا يستطيع ان يملك فيها زمام نفسه ، وحيث لا مجال للتروي . وأما الخيط الابيض .. الأداء المعقّد .. فقد كان يتعمّده حيث يسمح الظرف بغربلة القول ــ على مهل ــ والخلاص إلى لبّه وطرح النخالة منه.

يظهر من هذا ان معوّله على النهج الاول ــ خاصّة ــ انما يكون في

---

١ لسان حاله اليوم بالنسبة إلى العرب ــ في كلا الحالين ــ ما أنشده الغزالي :

غزلت لهم غزلا دقيقاً ، فلم أجــد لغزلي نساجــاً ، فكسرت مغزلي

نجوى نفسه بالاستبطان (Soliloquy) (١) ، وليست لهذا الاستبطان اية علاقة بالسن . فها هو في طريق الشام ينشد لنفسه وحدها :

أواناً في بيوت البدو رحلي ... وآونة على قتب البعير
أعرّض للرماح الصمّ نحري ... وأنصب حرّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي ... كأني منه في قمر منير
فقل .. في حاجة ، لم أقض منها ... على تعبي بها ، شروى نقير
ونفس ، لا تجيب إلى خسيس ... وعين ، لا تدار على نظير
وكفّ ، لا تنازع .. من أتاني ... ينازعني .. سوى شرفي وخيري
وقلّة ناصر : (جوزيت عنّي ... بشرّ منك ، يا شرّ الدهور !
عدوّي كلّ شيء فيك ، حتى ... لخلت الاكم .. موغرة الصدور)
فلو انّي حسدت على نفيس ... لجدت به ، لذي الجدّ العثور
ولكني حسدت على حياتي ... وما خير الحياة ، بلا سرور ؟

ويشبهه قوله وقد خرج من مصر هارباً :

ما زلت اضحك ابلي كلما نظرت ... إلى من اختضبت اخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ... ولا أشاهد فيها عفّة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي : ... (المجد للسيف ، ليس المجد للقلم
اكتب بنا ابداً بعد الكتاب به ... فانما نحن للأسياف كالخدم) !
أسمعتني ، ودوائي ما أشرت به ... فان غفلت فدائي قلّة الفهم
من اقتضى بسوى الهنديّ حاجته ... أجاب كل سؤال عن « هل » بـ « لم »

وكذلك قوله وهو يتذكّر سيف الدولة بعد مفارقته :

ولله سيري ما أقلّ تئيّة ... عشيّة شرقيّي « الحدالى » و « غرّب »
عشية احفى الناس بي من جفوتُه ... وأهدى الطريقين الذي اتجنّب

١ راجع كتاب « الاساليب الشعرية » للمؤلف .

أو قوله في آخر صنيعه معه :

فلو كان ما بي من حبيب مقنّع عذرت ، ولكن من حبيب معمّم
رمى واتّقى رميي ، ومن دون ما اتّقى هوى .. كاسر كفّي قوسي واسهمي

أو قوله يناجي قلبه والهاً عليه :

حببتك قلبي ! قبل حبّك من نأى وقد كان غدّاراً ، فكن أنت وافيا
واعلم انّ البين يشكيك بعده فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فانّ دموع العين غُدر بربّها إذا كنّ اثر الغادرين جواريا

أو قوله وهو يرثي أخته الكبرى من الكوفة :

قد كان كلّ حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها ، يا أرض ، بالحجب ؟
ولا رأيت عيون الانس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب ؟
وهل سمعت سلاماً لي ألمّ بها ؟ فقد أطلت ، وما سلّمت من كثب
وكيف يبلغ موتانا ، التي دفنت وقد يقصّر عن أحيائنا الغيب ؟

ومثلها قوله قبيل الاتصال بسيف الدولة :

اليّ لعمري قصد كل عجيبة كأنّي عجيب في عيون العجائب
بأي بلاد لم أجرّ ذؤابتي ؟ وأي مكان لم تطأه ركائبي ؟

فهو في هذا إنما كان ينظم خالصاً لنفسه .

* * *

وكذلك هو كان يعوّل على هذا النهج — عموماً — في مطارحة حديث لا معدى له عن الافضاء به لتوّه ، حسب مقتضى الظرف الماثل من حياته . وقد كانت له قدرة « المايسترو » (Maestro) على التوقيع في هذا النهج على كلّ الغموط (Gamut) من مراقي العواطف — هابطة صاعدة — على اختلاف ألوانها ، فلم تعيه — ولا مرّة — الكلمة « الدالة »

لتحديد الغرض وأصابته في الصميم .

مثل قوله في أوائل عهده بالنظم :

أين فضلي ؟ إذا قنعت مـن الدهـ ـر بعيش معجّـل التنكيـد ؟
ضاق صدري ، وطال في طلب الرز ق قيامي ، وقلّ عنه قعودي
أبداً أقطع البـلاد ، ونجمـي في نحوس ، وهمّتي في سعود

وقوله وقد اطمأنت به الحال بعد عشرين عاماً :

انا الذي بيّن الالـه بـه الاقـ ـدار والمـرء حيثما جعلـه
جوهرة .. تفرح الشراف بها وغصّـة لا تسيغهـا السفلَـه
ان الكِذاب الذي أكاد بـه اهون عندي من الذي نقلـه

(اول اشارة له – كما ترى – إلى التهمة الباطلة التي روّجوها –وقتها– بادعائه النبوة)

فلا مبـال ، ولا مداج ، ولا وا ن ، ولا عاجز ، ولا تكلـه
ودارع سـفته ، فخرّ لقـى في الملتقى ، والعجاج ، والعجله
وسـامع رعتـه بقـافيـة يحار فيهـا المنقّـح القولـه
وربما اشـهد الطعـام معـي من لا يساوي الخبز الذي اكله
ويظهر الجهـل بي ، وأعرفـه والدرّ درّ .. برغم من جهله

امّا كيف تعجّ موسيقى عواطفه إذا أثارها هادئة هنا صاخبة هناك . فها هو يقول بين يدي الموت ، راثياً أخت سيف الدولة الصغرى :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس ، وأشهى من أن يملّ ، وأحلى
وإذا الشيخ قال : أفّ ! فما مـ ـلّ حياة ، وانما الضعف ملاّ
آلة العيش صحّة ، وشباب ، فاذا ولّيـا عن المرء ، ولّى
أبداً تستردّ ، ما تهب ، الـدنـ ـيا ، فياليت جودها كان بخـلا

فكففت كون فرحة تورث الغمّ ، وخلّ يغادر الوجد خلاّ
وهي معشوقة على الغدر ، لا تحفظ عهداً ، ولا تتمّم وصلا
كلّ دمع يسيل .. منها . عليها وبفكّ اليدين عنها تخلّى
شيم الغانيات فيها . فما أد ري .. لذا أنّث اسمها الناس ، ام لا ؟

او وهو يصف دخول رسول ملك الروم عليه :

وأنّى اهتدى هذا الرسول بأرضه وما سكنت ، مذ سرت فيها ، القساطل ؟
ومن أي ماء كان يسقي جياده ولم تصف من مزج الدماء المناهل ؟
أتاك .. يكاد الرأس يجحد عنقه وتنقدّ تحت الذعر منه المفاصل .

أو وهو يصف هزيمة « وهشوذان » في آخر عمره :

أرضيت وهشوذان ! ما حكمت ام تستزيد ؟ لأمّك الهبل
وردت بلادك غير مغمدة وكأنها بين القنا شعل
والقوم في أعيانهم خزر والخيل في أعيانها قبل
فأتوك ، ليس لمن أتوا قبل بهم ، وليس بمن نأوا ! خلل
لم يدر من بالرّي انهم فصلوا ، ولا يدري إذا قفلوا
وأتيت معتزماً .. ولا أسد ومضيت منهزماً .. ولا وعل
يعطي سلاحهم ، وراحهم ، ما لم تكن لتناله المقل
أسخى الملوك ، بنقل مملكة ، من كاد عنه الرأس ينتقل
لولا الجهالة ، ما دلفت إلى قوم .. غرقت .. وانّما تفلوا ..

فهو في هذا انما كان ينظم لمن يطارحهم القول على رسله ، وذلك بحكم كونه فرداً بين جماعة ، يعرب لهم بلسانه .. وهم يفهمون بلسانه .

بينما لم يكن له غناء عن النهج الثاني حيث كان يلزمه التعمّق في الفكرة ، أو التوغل في الخيال ، أو الاغراب في الصنعة ، أو التغلغل إلى دقائق المعاني ، مما استقام له السير فيه بعد مراس طويل . فقد

(مرّ بنا(١) كيف) أدّت به هذه الطرق الضيّقة الملتوية إلى مرتع واسع خصيب صحّ له التعبير به عن « طبائع النفس ومشاغل الناس ، واهواء القلوب ، وحقائق الوجود ، وأغراض الحياة » (٢) ، وكأنما هو في كلّ ذلك ينطق بلسان الحياة « الأم » نفسها .

ولا نودّ أن نطرق باب الموضوع فلسنا بصدد شرحه الآن .

* * *

أما باعتباره فناناً بين زمرته من الفنانين فقد وجب عليه ، وان عاش لفنه ، الا يستأثر بهذا الفنّ . وهذا الذي جرّه إلى المزاحمة والطراد في ميدان كان لا بُدّ له ان يجلّي فيه ليجوز امتحان وتقدير أهل الحلّ والعقد . من « الحماة » الذين يقفون على رأس كلّ جيل ، ويتحكّمون – بحكم مركزهم – في أذواق بنيه .

تأمّل مثلاً جوانب هذا المحفل الذي كان عليه ان يقوم فيه مادحاً بعد نباهة ذكره .. محفل آل حمدان . (٣)

فآل حمدان الذين تقلّب في كنفهم (لا أقلّ من عشر سنوات) كان كلّ امرائهم يقولون الشعر على السليقة . فقد كان فيهم القائل ... كأبي فراس :

صبور ، ولو لم تبق مني بقيّة ... قؤول ، ولو انّ السيوف جواب
وقور . وأحداث الزمان تنوشني ... وللموت حولي جيئة وذهاب
ستذكر أيامي نمير ابن عامر ... وكعب – على علاّتها – وكلاب

١ راجع الفصل السابق .
٢ تاريخ الادب العربي للزيات . راجع كذلك « بين الحكمة والفن » للمؤلف .
٣ اعترف المتنبي لابن جني ان احسن قصائده ما كان في سيف الدولة ، وان اعلاها جميعاً قوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ... ماذا يزيدك في اقدامك القسم ؟

لأنها كانت وداعاً . وتراجع شعره بعد مفارقته ، وسئل عن السبب عن ذلك فقال : قد تجوزت في قولي ، وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان .

انا الجار . لا زادي يطيء عليهم ولا دون بابي ، للحوادث ، باب

وفيهم القائل ... كأبي زهير بن مهلهل بن نصر بن حمدان :

وقد علمت بما لاقته منا قبائل يعرب وبني نزار
لقيناهم بأرماح طوال تبشّرهم بأعمار قصار

وفيهم القائل ... كأبي العشائر :

أأخا الفوارس ! لو رأيت مواقفي والخيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تخطّ يد الوغى والبيض تشكل ، والاسنّة تنقط

وحتّى سيف الدولة(١) كان يتعاطى الشعر بينهم فيحسن . فمن قوله في فاتنة رومية وقعت له في السبي فاستأثر بها نفسه وأنزلها في قصر .. بعيداً عن العاصمة :

راقبتني العيون فيك . فأشفقـ ـت ، ولم أخل قطّ من اشفاق
ورأيت العذول يحسدني فيـ ـك اغتباطاً ؛ يا أنفس الاعلاق !
فتمنّيت ان تكوني بعيداً والذي بيننا من الودّ باق
ربّ هجر ؛ يكون من خوف هجر وفراق ، يكون خوف فراق

فكان على شاعرنا ان يصدقهم في الوصف ويأتي به خلاّباً حتى يستأنس الأمراء بحديثه ؛ حسب عرفهم وعاداتهم .. وقد حصل ذلك فعلاً .

كان سيف الدولة يميل إلى ابي العباس النامي ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي ، فمال عنه اليه . فغاظ ذلك ابا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا بسيف الدولة وعاتبه وقال للأمير : لم تفضّل عليّ ابن عيدان

١ قال ابو الطيب : ما رد علي أحد شيئاً فقبلته إلا سيف الدولة ، فاني أنشدته : من جيف القتلى ، فقال : مه ! قل جثث القتلى . فقبلت ، وقلت كما قال لي .

السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه . فلجّ وألحّ عليه وطالبه بالجواب ، فقال : لأنك لا تحسن ان تقول كقوله :

يعود من كلّ فتح .. غير مفتخر وقد أغذّ اليه .. غير محتفل

* * *

فاذا جاوزنا أمر هؤلاء الامراء إلى من كان يحفّ بهم من الشهود ، فهناك نرى أولا شعراءهم . فقد كثر الشعراء حول سيف الدولة ينالون جوائزه ويشيدون بذكره ، حتى لقد اختار كاتبان حضرا مجلسه من مدائح سيف الدولة وحدها عشرة آلاف بيت . كان منهم في مجلس سيف الدولة خاصة ابو العباس النامي الذي ذكرناه وعلي الناشىء والسري الرفاء وابو فرج الببغاء والوأواء الدمشقي وابو الفتح كشاجم وابو نصر ابن نباتة والصفري وابن كوجك وابن دينار والخالديّان والرقيّ والشيظمي .. غير أبي ذر أستاذ سيف الدولة ، وبعض هؤلاء ممن كان يحفظ لهم المتنبي في صغره ، درساً واستظهاراً ، وقد جدّت له معهم مواقف الآن . فانه لما انشدهم قوله :

وخصر تثبت الابصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

قال السري : هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ، ثم أورده في شعره :

احاطت عيون العاشقين بخصره فهنّ له دون النطاق نطاق

وقد فتن بقوله :

يخدن بنا في جوزه ، وكأننا على كرة ، أو أرضه معنا سفر

فأورده :

وخرق .. طال فيه السير ، حتى حسبناه يسير مع الركاب

وفتن بقوله :

هام الفؤاد باعرابيّة ، سكنت بيتاً من القلب ، لم تضرب به طنبا

فأورده :

وأحلّها من قلب عاشقها الهوى بيتاً بلا عمد ولا أطناب

وفتن بقوله :

ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهنّ إلى من عنده الديم

فأورده :

وانا الفداء . لمن مخيلة برقه عندي ، وعند سواي من انوائه

وهناك غير السري ابو الفرج البيغاء ، يفتن بقوله :

وقد أخذ التمام البدر فيهم وأعطاني من السقم المحاقا

فيقول :

يا من يحاكي البدر عند تمامه ارحم فتى يحكيه عند محاقه

والكاتب ابو الفتح البستي ، يفتن بقوله :

وان تكن تغلب الغلباء عنصرها فان في الخمر معنى ليس في العنب

فيجهد حتى يقول :

ابوك حوى العليا ، وأنت مبرّز عليه ، إذا نازعته قصب المجد
وللخمر معنى ليس في الكرم مثله وفي النار نور ليس يوجد في الزند
وخير من القول المقدم – فاعترف – نتيجته ، والنحل يكرم للشهد

كما يفتن بقوله :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم

فيصيّره إلى :

لا غرو ان لم نجد في الدهر مخترفاً   فقد أتيناه بعد الشيب والخرف

وابو الحسن السلامي يفتن بقوله :

هي الغرض الأقصى ،ورؤيتك المنى ،   ومنزلك الدنيا ، وأنت الخلائق

فيقول :

وبشّرت آمالي بملك .. هو الورى ،   ودار .. هي الدنيا ، ويوم .. هوالدهر

وابو القاسم الزعفراني ، يفتن بقوله :

لم تزل تسمع المديح ، ولكـ   ـن صهيل الجياد غير النهاق

فيقول :

وتغنّيك ــ في النداء ــ طيور   انا وحدي ما بينهن الهزار

والشواهد لا تكاد تحصى . (١)

فكان لزاماً عليه ان يتصرّف في غرائب المعاني وتوليدها . ويدأب على التفوّق فيها بين هؤلاء حسب شروطهم وموازينهم .

* * *

وهناك ثانياً العلماء والادباء من أمثال ابن خالويه ، وابي علي

---

١ قال ابو العباس النامي مرة : كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت أشتهي ان أكون سبقته إلى معنيين قالهما ، ما سبق اليهما ، اما احدهما فقواه :

رماني الدهر بالارزاء ، حتى   فؤادي في غشاء من نبال
فصرت .. إذا أصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله : في جحفل ستر العيون غباره   فكأنما يبصرن بالآذان

ونحن نعلم الآن من أين أخذ المتنبي مادته الخامة . (راجع فصل « صبي في المكتب ») .

الفارسي ، وابي الطيب اللغوي ، والقاضي التنوخي ، وابن نصر البازيار ، والشمشاطي ، والفياض .. غير الفيلسوف ابي نصر الفارابي .

يحضر المتنبي مجلس ابن نصر البازيار — وكان وزير سيف الدولة — وعنده ابن خالويه ، فيتماريان في اشجع السلمي وابي نواس . فقال ابن خالويه : أشجع اشعر إذ قال في هارون الرشيد :

وعلى عدوّك ، يا ابن عمّ محمـــد رصدان ، ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبّـه رعتــه ، وإذا غفـا سلّت عليـه سيوفك الأحـلام

فقال المتنبي لأبي نواس ما هو احسن في بني برمك ، وهو :

لم يظلم الدهر ، إذ تـوالت فيهـم مصيبـاته دراكـا
كانوا يجيرون ، من يعـادي ، منه ، فعـاداهم لذاكا (١)

وقصة ابي علي الفارسي مع المتنبي مشهورة . فقد كان — وهو بشيراز — يستثقل المتنبي ، كلما مرّ على داره في طريقه إلى عضـد الدولة ، على قبح زيّه وما يأخذ بـه نفسه من الكبرياء . وكان لابن جنّي هوى في ابي الطيب ، كثير الاعجاب بشعره ، لا يبالي بأحـد يذمّه أو يحطّ منه ، وكان يسوؤه اطناب ابي علي في ذمّه . واتفق ان قال ابو علي يوماً : اذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحث فيه . فبـدأ ابن جني وأنشد :

حلت دون المزار ، فاليوم لو زر ت ، لحال النحول دون العنـاق

فاستحسنه ابو علي واستعاده ، وقال لمن هذا البيت ؟ فانه غريب المعنى . . فقال ابن جني : للذي يقول :

ازورهم .. وسواد الليل يشفع لي وأنثني .. وبياض الصبح يغري بي

---

١ لاحظ كيف كان المتنبي حتى في نقده يهتم بالمعنى دون الديباجة .

فقال : والله هذا احسن ، بديع جداً . فلمن هما فقال للذي يقول:

أمضى ارادته ، فـ « سوف » له « قد » واستقرب الأقصى ،فـ « ثم » له «هنا»

فكثر اعجاب ابي علي واستغرب مُعناه ، وقال : لمن هذا ؟ فقال ابن جني : للذي يقول :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضرّ ، كوضع السيف في موضع الندى

فقال : وهذا احسن ! والله لقد أطلت يا أبا الفتح ، فأخبرنا من القائل . فقال : هو الذي لا يزال الشيخ يستثقله ، ويستقبح زيّه وفعله ، وما علينا من القشور إذا استقام اللب . قال ابو علي : اظنك تعني المتنبي ؟ قال : نعم . قال : والله لقد حبّبته إليّ .

ونهض ودخل على عضد الدولة ، فأطال في الثناء على ابي الطيب . ولمّا اجتاز به استنزله واستنشده وكتب عنه أبياتاً من الشعر في جزء من كتاب التذكرة .

ويقول ابن جنّي : قال لي المتنبي يوماً أتظنّ ان عنايتي بهذا الشعر مصروفة إلى من امدحه به ؟ ليس الأمر كذلك ، لو كان لهم لكفاهم منه البيت . قلت : فلمن هي ؟ فقال : هي لك ولأشباهك . (١)

١ قال ابن حمزة البصري : كنت حاضراً بشيراز وقد سئل المتنبي عن معنى البيت :

وكان ابنا عدو كاثراه له ياءي حروف أنيسيان

وقت عرضه القصيدة ، فالتفت إلي وقال : لو كان صديقنا ابوالفتح(ابن جني)حاضراً لفسره لهم.
وقال المتنبي في كلمة تفاوح (تفاعل من فاح) في بيته :

إذا سارت الاحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده

لما قلت هذه الكلمة تناولها شعراء مصر ، فاستعملوها في أشعارهم .

وسأل العكبري شيخه أبا الحرم : ما بال شعر المتنبي في كافور أجود من شعره في عضد الدولة وأبي الفضل بن العميد ؟ فقال : كان المتنبي يعمل الشعر للناس لا للممدوح . وكان ابو الفضل بن العميد وعضد الدولة في بلاد خالية من الفضلاء . وكان بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء ، فكان يعمل الشعر لأجلهم ، وكذلك كان عند سيف الدولة بن حمدان .

راجع « ديوان أبي الطيب المتنبي » تحقيق عزام .

ثم ان المتنبي كان مثلهم عالماً حجة في اللغة . وإذ كان كذلك فقد أخذ على نفسه ان يلمّ في شعره اشتاتها . ولا يبالي بمطارحات العامة ، في سبيل افادة الخاصة ، وماله والعامة ؟

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً عليّ لئامها

فان ديوانه على صغر حجمه بين الدواوين يحتوي من الفصحى على صيغ والفاظ لا يضارعه عليها ديوان آخر إذا استثنينا المعرّي ، مع ان المتنبي لم يكن يتكلّف ادخال الغريب في شعره تشدّقاً ، أو ينظم أوراقاً بعد أوراق لمجرّد سلك القوافي المتجانسة في نظام ، كما فعل شاعر المعرّة في لزومياته . وان ما ورد في شعره من مصطلحات فنون اللغة وحدها في معرض الوصف الفاتن لدليل — اقنع القوم — على تفنّنه في التعبير . كما في قوله واصفاً صدق العزيمة :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى ، قبل ان تلقى عليه الجوازم

أو واصفاً كثرة قلّة :

وكان ابنا عدو ـ كاثراه ـ له ـ يائي حروف أنيسيان

أو واصفاً ما دون العناق :

دون التعانق ، ناحلين ، كشكلتي نصب ، أدقّهما وضمّ ، الشاكل

أو واصفاً تواري المنهزمين :

« قشير » و « بلعجلان » فيها خفية كرائين في ألفاظ ألثغ ناطق

مما يدخل عندنا في باب « الاستقصاء الفنّي في التمثيل » .

فكان لزاماً عليه الا يترك في شعره ثغرة يؤتى منها بين انداده هؤلاء . وإنما يكافح للظفر باعجابهم حسب علومهم وثقافتهم اللغوية .

ولا نودّ أن نتعرّض لحسد الحاسدين .

* * *

ووراء ذلك كان عليه — وهو داعية « قومه » — ان يقوم ببثّ الدعوة ... في غضون الحديث أحياناً . فهو حتّى إذا مدح استباح لنفسه ان يقول في الممدوحين هؤلاء .

مدحت قوماً ، وان عشوا ، نظمت لهم — قصائداً من اناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمّرة — إذا تنوشدن ، لم يدخلن في الأذن

يقول مثلاً في قصيدة مدح بها الخصيبي :

أفكّر في معاقرة المنايا — وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطّي عزمي — بسفك دم الحواضر والبوادي

ويقول في قصيدة مدح بها عليّاً التنوخي :

سأطلب حقي بالقنا ، ومشايخ — كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا ، خفاف إذا دعوا ، — قليل إذا عدّوا ، كثير إذا شدّوا
وطعن ، كأن الطعن لا طعن عنده — وضرب ، كأنّ النار من حرّه برد
إذا شئت ، حفّت بي على كل سابح — رجال ، كأنّ الموت في فمها شهد

ويستبطئ المطلب فيقول :

لله حال ، ارجّيها .. وتخلفني — واقتضي كونها دهري .. ويمطلني

وكل هذه أبيات أنشدها بين يدي ممدوحين في الشام ، في قصائد مدحهم بها ، في الثمان سنوات التي أعقبت سجنه (٣٢٥ — ٣٣٣؟) ، وسنّه لم تتجاوز الثلاثين . (١)

---

١ يقول الثعالبي : وما زال وهو في برد... ه إلى أن خلق برد شبابه ، وتضاعفت عقود عمره ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه ، في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الاطراف ... (كذا) .
ولم يسأل الثعالبي نفسه ، ولا مرة : لماذا ؟ — راجع « يتيمة الدهر »

فهو في هذا إنما كان ينظم بلسان حال جماعة على أهبة ثورة ، عرف – ونجهل – دخائلها ويسوق حديثه اليهم . بينما لسان حاله من الدعوة كما قال :

و « كلمة » في طريق ، خفت اعربها فيهتدى لي ، فلم أقدر على اللحن

• • •

وباعتباره أخيراً فنّاناً فذاً – ولا كالفنّانين – كان عليه ان يشامخ عصره ، ويمدّ نظره إلى ما وراء الآفاق ، ويتحدث بلسان الغيب للاجيال التي تقصر في الخطى دونه ، بما تحمل لهم الايام من عبرة واستعبار ، ويستطلع الوحي من مظان النفوس وأهواء القلوب .

فإذا اكتفوا هم بقول القائل فيهم :

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

قال هو لهم :

تتخلّف الآثار عن أصحابها حيناً ، ويدركها الفناء ، فتتبع

ويقول في مجلس سيف الدولة :

شرّ البلاد مكان لا صديق به وشرّ ما يكسب الانسان ما يصم
وشرّ ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وقد أخذ مادّتهما لجيناً من قول الصاحب العلوي ، الداعي بطبرستان :

انا من جناب سواك في مرعى ند وأقيم عندك في جناب مجدب
ان كنت ذا بصر ، فميّز فضل ما بين الفراء وبين صيد الأرنب

فأحاله في بوتقة فنّه نضاراً لمن يعي من قومه ، لو كانوا يعقلون.

وهو في هذا إنما كان ينظم للعرب في كل عصر وجيل ، ويلخّص لهم في قنّينة طيب عصارة ما تحمله بشائر ربيع البشرية كلها – على تنوّع الحضارات – من ورد « الحقّ » وريحانه ، لا يقتنيها إلا الطيّبون منهم الطاهرون .

وحالفه التوفيق في جلّ – إن لم نقل كلّ – ما نظم ، على الرغم من تعدّد جهات المستمعين اليه ، واختلاف مشاربهم . ولكنه لم يحاول قط ان يتخطّى بروحه مبادئ العرب القوميّة ، ولا غاياتهم المثلى في كلّ ما قاله .

لأولئك جميعاً نظم المتنبي ديوانه في القرن الرابع للهجرة ... آية الفن العربي ، وصدق ابو الطيب :

ما نال أهل الجاهلية كلّهم   شعري ، ولا سمعت بسحري بابل
وإذا اتتك مذمّتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

الباب الرابع

تقصيد القصائد عند المتنبّي

لقد رأينا في فصل « المفتاح » كيف ان الشعر العربي — في منتصف القرن الثالث — كان قد انتهى بطريقة نظمه إلى مدرستين ، على رأس أولاهما ابو تمام ، وعلى رأس الثانية البحتري ، وكلاهما طائيّان . والاختلاف بينهما يقوم على الاداء الفنّي ، إذ كان اعظم مميزات الاداء المحبك عند مدرسة ابي تمام « البلورة » و « التركيز » ، مرصّعاً بالمحسّنات البديعيّة ، كما ان اهم مميزات الاداء المرسل عند مدرسة تلميذه كان « الرصف » و « الانسجام » ، موقّعاً بنغم الألفاظ . (١)

١ يروى عن البحتري — وقد سئل عن نفسه وعن ابي تمام — انه قال : هو أغوص على المعاني ، وأنا أقوم بعمود الشعر .. ولعلك تستطيع ان تلمس الفارق الفني بينهما في قول ابي تمام :

وقد يكهم السيف المسمى منية   وقد يرجع المرء المظفر خائبا
فآفة ذا ان يصادف مضربا   وآفة ذا ان لا يصادف ضاربا

وقول البحتري

رمى كلب الاعداء عن حد نجدة   بها قطعت تحت العجاج مناصله
وما السيف الا بز غاد لزينة   إذا لم يكن أمضى من السيف حامله

هذا الانعكاف الكلّي على المحسّنات البديعية من جهــة اولى المدرستين ، وبالتنغيم اللفظي من جهة ثانيتهما كان من جرّائه ان استهدفت الطريقتان إلى الامتحان . فأما أذاه عند ابي تمام فقد كان « تكلّفه » ، وكأنما هو يتعكّز على ألفاظه في كل خطوة .

من دوحة الكلم الذي لم ينفكك وقفـا عليـك رصينه ، محبوسا

مما دعا اسحق الموصلي – وقد سمعه مرّة ينشد في مجلس الحسن بن وهب – ان يقول له : « يا هذا ! لقد شققت على نفسك . إن الشعر لأقرب مما تظن » . واما اذاه عند البحتري فقد كان في هذا « العبث » الذي جعله مرّة سخرية في ديوان المتوكل . (١)

وكلاهما ينظر إلى قول ابي العتاهية في هاشمي :

وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتـالا
فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخـالا
أرى قومك ابطـالا وقـد أصبحت بطـالا

واستطاب المتنبي ان يقول بعدهم في هذا المعنى :

ان السيوف مـع الذين قلوبهـم كقلوبهن إذا التقى الجمعـان
تلقى الحسام على جراءة حده مثل الجبان ، بكف كل جبان

١ قال الصيمري : كنت عند المتوكل والبحتري ينشد :

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتكم
حتى بلغ إلى قوله قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم
المجتـدى للمجتدي والمنعم بن المنتقم
اسلم لدين محمـد فاذا سلمت فقد سلم

قال : وكان البحتري من أبغض الناس انشاداً يتشادق ويتزاور في مشيه ، مرة جانباً ومرة القهقرى ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن احد ان يقول مثله . فضجر المتوكل من ذلك وأقبل علي وقال : أما تسمع يا صيمري ما يقول ؟ فقلت : بل يا سيدي ، فمرني فيه بما أحببت . فقال : بحياتي اهجه على هذا الروي .. انشدنيه . فقلت : تأمر ابن حمدون ان يكتب ما أقول . فدعا بدواة وقرطاس ..

أما المتنبي فانه تحاشى — منذ أول لحظة — ما تجرّه الطريقتان من عقابيل الصنعة . فقد كان له هدف وراء ما التزم لطبيعة الفنّ الشعري — ممثّلاً فيه — هو أكبر من مجرّد تحبير الكلام ... سبائك كأبي تمام ، أو لحوناً كالبحتري ... حتى ولا ارضاء الممدوحين . فعاد بالشعر إلى الطريقة المثلى عند بني قومه ، ولكنه أسبغ على تلك الطريقة — المعبّدة منذ القدم — خير ما في المدرستين المحدثتين من الصفات .

فهو قد اتخذ مقياس الحسن — شأنه عند ابي تمام — البيت الفرد ولكن غير عابىء مثله بالترصيع ، كما انه اتخذ مقياس الحسن — شأنه عند البحتري — القصيدة كاملة من مستهلها إلى مختتمها دون أن يفقد البيت الفرد ركيزته ، وغير عان مثله بالتنعيم .

... وحضرني على البديهة ان قلت :

ادخلت رأسك في الرحم — وعلمت انك تنهزم
يا بحتري ، حذار ويحك — من قضاقضة ضغم
فلقد اسلت بوالديك — من الهجا سيل العرم
فبأي عرض تعتصم — وبهتكه جف القلم
والله حلفة صادق — وبقبر احمد والحرم
وبحق جعفر الامام — بن الامام المعتصم
لأصيرنك شهرة — بين المسيل إلى العلم
حيث الطلول بذي سلم — حيث الاراكة والخيم
يا ابن الثقيلة والثقيل على قلوب ذوي النعم
في أي سلخ ترتطم — وبأي كف تلتقم
يا ابن المباحة للورى — امن العقاب ام الفهم
إذ رحل أختك للعجم — وفراش أمك في الظلم
وبباب دارك حانة — في بيته يؤتى الحكم

قال فغضب وخرج يعدو وجعلت أصيح به :

أدخلت رأسك في الرحم — وعلمت انك تنهزم

والمتوكل يضحك ويصفق حتى غاب عن عينه .

ولا تنس ان المتوكل كان من أشد الخلفاء بغضاً للعلويين ... ومن ينتمي إلى مذهبهم من الشعراء .

وبذلك كان أول شاعر عربي رأى أن يجمع بين تحقيق معنى الوحدة تركيزاً في البيت المفرد ، وتحقيق معنى سياقها بنائياً في القصيدة كلها ، بحيث لا يندّ فيها بيت عن بيت ، ومن هنا استحال ان تقدّم وتؤخر في أبياته لهذا التلاحم الحديدي بين معانيها . (١)

اما انّه هو بدوره لم يسلم من الامتحان فصحيح . فقد تعرّض لأذاه في اعتساف الطريق إلى غايته من اللفظ الجارح أحياناً ، أو من

---

١ ويدلك على حرصه الشديد على تنسيق معانيه ، ما يروى من أن سيف الدولة قال له مرة : لقد انتقدتهما عليك ، يعني قوله :

وقفت ، وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى، وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كأني لم اركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ، ولم أقل لخيلي : كري كرة ، بعد اجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما ، كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس ، وكان ينبغي له ان يقول :

كأني لم أركب جواداً ، ولم أقل لخيلي : كري كرة ، بعد اجفال
ولم أسبأ الزق الروي ، للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

وكذلك كان ينبغي ان تقول :

وقفت ، وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي : ان صح ان الذي استدرك على امرئ القيس هذا هو اعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا . ومولانا يعلم ان الثوب لا يعلمه البزاز كما يعرفه الحائك ، فان البزاز يعلم جملته والحائك يعرف تفاصيله . وانما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، والشجاعة في منازلة الاعداء بالسماحة في شراء الخمر للأضياف . وأنا كذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ، ليكون احسن تلاؤماً . ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوساً وعينه باكية قلت : ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

لأجمع بين الأضداد في المعنى .

فأعجب سيف الدولة بقوله ، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات .

البناء المعقّد (١) - لكن توليداً أو تقصياً للمعاني - في أكثر الاحيان . وفي هذا انعكاس ، إذا تذكر ، لما كانت عليه الطريقة عند العرب الاقحاح (٢) . فهو لم يأت فيها ببدع من عنده . وكل مآخذ معاصريه عليه (٣) إنما هي من وجهة نظر النقد الأدبي وتطوّره في ذلك العصر عن نشأة المدرستين . فإذا نحن نختلف في تقييمها معهم الآن فذلك لأنّنا لا نرى رأيهم في الموضوع .

كما اننا نختلف معهم في تقييم ما كانوا يرونه حسنات في هذا « التوليد للمعاني » التي كان الشعراء يغالون في عرضها بين الممدوحين ، وكما كانوا يرضون به نزعتهم الفنّية ، وذلك بتقليبها على وجوه ، والاغراب فيها ... حتى الاحالة . فهي لا تصحّ رائجة — كبضاعة — إلا في سوق الممدوحين ، ولا شأن لنا اليوم مطلقاً بهذه « الكسوة » التاريخية — التي خدمت غرض الممثلين منهم آنذاك على المسرح — وقد أكلتها العثّة لطول ما خزنها التاريخ . (٤)

بقي أن نرى كيف كان يسلك المتنبي طريقته الفذّة في تقصيد قصائده .

ولامتثال الطريقة نرى ان نسوق لها شاهدين ، لم يكن هو في احدهما معنّى بالممدوحين وما تستلزمه الصنعة لارضائهم ، فهو من هذه الناحية شعر « خالص » ، وكان في الثاني كالذي يرى نفسه لأول مرة بين يدي ممدوح عظيم يختلف عن سائر الممدوحين في كونه (على حدّ قوله) .

تجاوز قدر المدح ، حتى كأنّه بأحسن ما يثنى ، عليه ، يعاب

١ راجع الفصل السابق « المتنبي بين شراحه وناقديه » .
٢ راجع الفصل السابق «المفتاح لتراث العرب الشعري »
٣ راجع « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للجرجاني .
٤ راجع « يتيمة الدهر » للثعالبي . وسنوفي هذا الموضوع بحثاً في الفصل التالي «تطوير المعنى التقليدي» .

لأنّ المعاني التقليدية مما جرى على نظمها الشاعر حتى تلك الساعة – لوحدها – وجدها تقع في المجد الحربيّ دون مستواه العالي .

تمسي الأمانيّ صرعى دون مبلغه   فما يقول لشيء : ليت ذلك لي !

هذان الشاهدان هما :

(أ) رثاؤه لجدّته بعد فراق دام اربع عشرة سنة (٣١٧ – ٣٣٠) – أي منذ فارقها صبيّاً – لم يرها خلالها ، حتى ماتت سروراً ببشرى لقائه .

(ب) أول قصيدة أنشدها بين يدي سيف الدولة الحمداني ، وذلك عام ٣٣٧ .

* * *

ولنلمّ أولاً بظروف المرثية .

فها هو بعد خروجه من الحبس يضرب في الآفاق من جديد .

ويجتاز في بعض أسفاره ، وهو وحده في الليل ، بمكان يعرف بالفراديس ، من أرض قنّسرين ، فيسمع زئير الاسد فيرتجل :

أجارك ، يا أسد الفراديس ! مكرم   فتسكن نفسي ، ام مهان فمسلم ؟
ورائي وقدّامي عداة كثيرة   أحاذر من لص ، ومنك ، ومنهم
فهل لك في حلفي على ما أريده ؟   فأنّي بأسباب المعيشة اعلم
اذن لأتاك الرزق من كلّ وجهة   وأثريت مما تغنمين ، وأغنم

واثناء ما هو ينتقل في ربوع الشام يرد عليه كتاب لجدّته العليلة من الكوفة تستجفيه فيه ، وتشكو شوقاً اليه وطول الغيبة عنها ، فتوجّه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حاله تلك (لأسباب لا زال يجهلها التاريخ) ، فانحدر إلى بغداد فبعث برسالة إلى جدّته يسألها المسير اليه فقبّلت كتابه وحمّت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها ، فيرثيها بهذه القصيدة :

إنه يستهلّها بالتعليق على احداث الدهر كما خبرها ، مقرراً اننا ننتهي إلى النقصان ، كتزايدنا شروعاً ... عوداً على بدء .

ألا لا أري الاحداث حمداً ولا ذما　　فما بطشها جهلاً ، ولا كفّها حلما
(ابيض) إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى　　يعود كما أبدى ، ويكرى كما أرمى

ثم يغمره الحزن :

لكِ الله من مفجوعة بحبيبها　　قتيلة شوق ، غير ملحقها وصما
(ملون) أحنّ إلى الكأس التي شربت بها　　وأهوى لمثواها التراب وما ضمّا
بكيت عليهـا خيفة في حياتها　　وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

ويتذكّر طيبتها بين أهل البلد ، فيقرّر :

(ابيض) ولو قتل الهجر المحبّين كلّهم　　مضى بلد باقٍ أجدّت له صرما

يعني ان أهل البلد كانوا كلهم لهـا من المحبين ، فلو ان الهجر يقتل كل مفجوع في محبّه لهلك هؤلاء جميعاً حزناً على فراقها ، فكيف هي لم تستطع تحمّل فراقه ؟ واختصتّها وحدها الفجيعة فيه .

منافعها ما ضرّ في نفع غيرهـا　　تغذّى وتروى ان تجوع وان تظمـا

فذلك هو اثر انعامها على هؤلاء ، إذ كان غذاء جدّته وريّها في ان تجوع وتظما لهم ، ومنافعها في ان تنفع غيرها ممـا يؤدّي إلى الاضرار بها . (١)

عرفت الليالي ، قبل ما صنعت بنا　　فلما دهتنا ، لم تزدني بهـا علمـا

فهذا ما دهتهما (هو وجدّته) ليالي الدهر به ، مما كان هو على علم به من شيم الليالي . ثم تأخذه الحسرة على فقدها :

---

١ هذا المعنى لا يقول به الشارحون .. سوى ابن فورجة . ويوضحه قول عروة بن الورد :

اقسم جسمي في جسوم كثـيرة　　وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

(ملون) أتاها كتابي بعد يأس وترحة ... فماتت سروراً بي. فمتّ بها غمّا
حرام على قلبي السرور فانّني ... أعدّ الذي ماتت به– بعدها– سمّا

ويصف كيف تلقّت كتابه :

(ابيض) تعجّبُ من خطّي ولفظي، كأنها ... ترى بحروف السطر أغربة عصما
(ملون) وتلثمه .. حتى أصار مداده ... محاجر عينيها، وأنيابها، سحما

وكيف انتهى بها حبه إلى السلوان القاتل فرحاً بمقدمه (بعد ان كانت تقضي أيامها بكاء عليه) :

رقا دمعها الجاري، وجفّت جفونها ... وفارق حبّي قلبها، بعد ما أدمى
(ابيض) ولم تُسلها الاّ المنايا، وانما ... أشدّ من السقم الذي اذهب السقما

ويتذكر أيام الفراق وما انتهت اليه :

(ملون) طلبت لها حظّاً، ففاتت، وفاتني ... وقد رضيت بي، لو رضيت بها، قسما
فأصبحت استسقي الغمام لقبرها ... وقد كنت استسقي الوغى، والقنا الصمّا
(ابيض) وكنت قبيل الموت استعظم النوى ... فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

ويغمره اليأس من عجزه أمام الموت :

(ملون) هبيني أخذت الثأر فيكِ من العدى ... فكيف بأخذ الثار فيكِ من الحمّى؟
وما انسدّت الدنيا عليّ لضيقها ... ولكنّ طرفاً، لا أراك به، اعمى

ويشتد عليه الاسف :

فوا أسفاً الا أكبّ مقبّلاً ... لرأسك والصدر اللذَيْ ملئا حزما
والاّ الاقي روحك الطيّب، الذي ... كأنّ ذكيّ المسك كان له جسما

ويأخذه الاعتزاز بها :

(ابيض) ولو لم تكوني بنت اكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لي أمّا

(لكنه يعكس اذ يجعل نفسه موضع الاعتزاز) . وعودة تفكيره إلى نفسه يذكره بالشامتين .

(ملون) لئن لذّ يوم الشامتين بيومها　　　لقد ولدت منّي لآنفهم رغما

فيتحدث حديث الواثق عن نفسه . وكيف قضى أيام غربته :

تغرّب .. لا مستعظماً غير نفسه　　　ولا قابلاً الا لخالقه حكما
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة　　　ولا واجداً الا لمكرمة طعما
يقولون لي : « ما أنت ؟ » في كل بلدة　　　«وماتبتغي ؟ » ..ما ابتغي جلّ ان يسمى

ويُنوّه بما ينتظر هؤلاء (الذين لقيهم) في مستقبل الايام على يده :

كأنّ بنيهم عالمون ، بأنني　　　جلوب اليهم من معادنه اليتما

ويدرك صعوبة مرامه :

(ابيض) وما الجمع بين الماء والنار في يدي　　　بأصعب من أن أجمع الجدّ والفهما

فيبحث في الوسائل المؤدّية :

(ملون) ولكنّني مستنصر بذبابه　　　ومرتكب — في كل حال — به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحيّتي　　　والا فلست السيّد البطل القرما

وينظر مستيقناً إلى امكانية التحقيق :

(ابيض) إذا فلّ عزمي (عن مدى) خوف بعده　　　فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما

(ملون) ويأخذه الاعتزاز بقومه .. طالبي المستحيل :

وانّي لمن قوم .. كأنّ نفوسنا　　　بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

ثم يعود إلى نفسه ، وموقفها من دنيا الناس :

كذا انا يا دنيا ! إذا شئت فاذهبي　　　ويا نفس ! زيدي في كرائهها قدما

ثم يتمنى منيته فإذا هي :

فلا عبرَت بي ساعة لا تعزّنـــي   ولا صحبتْني مهجة تقبل الظلمــا

تلك هي القصيدة (وكلّها ٣٤ بيتاً) التي رثى بها المتنبي جدّته . وكان عمره إذ ذاك سبعاً وعشرين سنة . نتبيّن فيها بوضوح كيف كان المتنبي يسلك في تقصيد القصائد طريقته الفذّة ، إذا كانت من هـــذا النوع الذي ينظمه الفنّان خالصــاً لنفسه ، لا لعرضه للبيــع فـــي الاسواق .

فهو قد نأم بها على هذا الوجه (١) ، فجعل قومٌ يستعظمون ما قاله في آخر القصيدة ، فقال :

يستعظمون أبيّـاتاً نأمت بهـــا !   لا تحسدن — على ان ينــأم — الاسـدا
لو انّ ثمّ قلوباً يعقلون بهــــا   أنساهم الذعر ، مما تحتهــا ، الحســدا

• • •

بقي النوع الثاني الذي نظمه مضطراً بحكم الالتزام لطبيعة فنّه . نزولاً على رغبة العصر ، وقــد اخترنا له الشاهد ، اوّل قصيدة انشدها الشاعر بين يدي سيف الدولة (وقد كانا متكافئين في السنّ) عند نزوله انطاكية ، ومنصرفه من حصن « برزويه » وفتحه :

« وكان جالساً تحت شراع ديباج عليه صورة ملك الروم ، وصور وحش ، وحيوان » (وكان المتنبي قــد اشترط انه إذا أنشده مديحــه لا ينشده إلا وهو قاعد وانه لا يكلّف بتقبيل الأرض بين يديه — فنسب إلى الجنون — ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط) (٢) .

استهلّها بمعنى كان يتردّد صداه في نفسه منذ كان يستظهر الشعر

١ عارض شوقي — على جاري عادته — هذه القصيدة في رثاء جدته ، ولكنه وارى مرثيته ، فلم تنشر إلا بعد وفاته .

٢ راجع « الصبح المنبي » للبديعي .

مع الصبية العلويين . وسنتناول القصيدة مقطوعات لا أبياتاً بغية التحليل :

وفاؤكما كالربع (أشجاه طاسمه) ... بأن تسعدا ، والدمع .. أشفاه ساجمه (١)
وما انا إلا عاشق ، كلّ عاشق ... أعقّ خليليه الصفيّين لائمه
وقد يتزيّا بالهوى غير أهله ... ويستصحب الانسان من لا يلائمه
بليت بلى الاطلال ، ان لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه (٢)
كئيباً .. توقّاني العواذل في الهوى ... كما يتوقّى ريّض الخيل حازمه

* * *

فهو قد تحدّث في هذه القطعة (التي استهلّ بها القصيدة ، لا البيت) عن حرصه على ان يقف على الاطلال باكياً ، وصاحبيه اللذين خيّبا ظنّه باللوم وعدم الاسعاد ، وكيف انّه هو يستعصي أمره على العذّال ،

١ سبقت الاشارة إلى قول العوني :

يا صاحبي ! بعدتما ، فتركتما ... قلبي رهين صبابة وتصابي
أبكي وفاءكما ، وعهدكما ، كما ... يبكي المحب معاهد الأحباب

وقد حاول أن يحشد البيت بالمعنى حشداً .

٢ قيل كان ابو العلاء المعري إذا ذكر الشعراء يقول : قال ابو نواس كذا قال البحتري كذا قال ابو تمام كذا فاذا أراد المتنبي قال قال الشاعر كذا تعظيما له . فقيل له يوماً لقد أسرفت في وصفك المتنبي قال أليس هو القائل :

بليت بلى الاطلال ، ان لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

وكان المعري يذهب مذهباً غريباً في تأويله .

يقول : كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟ يقف اربعين يوماً .

فقيل له : من أين علمت ذلك ؟

قال : سليمان بن داود (عليهما السلام) وقف على طلب الخاتم اربعين يوماً .

فقيل له : ومن أين علمت انه بخيل ؟

قال : من قوله تعالى « وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » . وما كان عليه ، ان يهب الله لعباده أضعاف ملكه .

وحديثه هذا عن « الشح على خاتم ضاع ، والملك الذي لن يكون لأحد مثله » يومي إلى شيء . فهل البيت « رمز » لما كان يحلم به « الداعية » ؟

وكلّها معانٍ مما حام حولها الشعراء قبله ، ولكن لا بمثل هذا البيان .

ثم انتقل إلى الغزل .

قفي تغرم الاولى ، من اللحظ ، مهجتي ... بثانية ، والمتلف الشيء غارمه(١)
سقاك ، وحيّانا بك الله ، انما ... على العيس نور ، والخدور كمائمه(٢)
وما حاجة الأظعان حولك في الدجى ... إلى قمر ؟ ما واجد لك .. عادمه (٣)
إذا ظفرت منك العيون بنظرة ... أثاب بها معيي المطيّ ورازمه(٤)
حبيب .. كأن الحسن كان يحبّه ... فآثره ، أو جار في الحسن قاسمه
تحول رماح الخطّ دون سبائه ... وتسبى له من كل حي كرائمه
ويضحي غبار الخيل أدنى ستوره ... وآخرها نشر الكباء .. الملازمه

* * *

وهو هنا ينوّه – لأول مرة في الشعر العربي – بتأثير « النظرة الأولى » ، نظرته إلى ذاك « النور » في الاكمام ، وكيف كادت تقضي عليه ، فما من سبيل لتلافي أثرها الا بنظرة ثانية ، وكيف أنّ فاتنته تقوم مقام البدر ، لهذا الحسن القاهر الذي ما لها فيه ثان ، فنظرتها هي

---

١ قال الخبزأرزي: إلى كم أذل واستعطف ... وأنت تجور ولا تنصف
أيا يوسف الحسن صل مدنفاً ... مدامعه لم تزل تذرف
أعيذك من ظالم غاشم ... سوى الخلف في الوعد لا يعرف
ولي مهجة أنت أتلفتها ... عليك غرامة ما تتلف

٢ جلا السري الرفاء عن وجه معناه : حيا به الله عاشقيه ... فقد أصبح ريحانة لمن عشقا

٣ قال الخبزأرزي: وما حاجة الركب السراة ، إذا بدا ... لهم وجهه ليلا ، إلى طلعة البدر ؟

٤ أنشد في مجلس المعتمد بن عباد – صاحب اشبيلية – قوله :
إذا ظفرت منك العيون بنظرة ... اثاب بها معيي المطي ورازمه
وجعل المعتمد يردده استحساناً له ، وكان في مجلسه ابن وهبون الأندلسي ، فأنشد ارتجالا :
تنبأ ، عجباً بالقريض ، ولو درى ... بأنك تروي شعره ، لتألها

غاية الثواب للمجهودين ، ثم هي بين كرائم قومها كانسان العين ، تشرع دونها الرماح ، وتتشرّف بخدمتها السبايا . الا أن الوصول اليها دونه أنفة رجالها وما تثيره خيولهم من الغبار ، ومن القرب ما يفوح حول خبائها من دخان الطيب . وكذلك فان هذا النهج في التغزل بـ « ربيب ملك » كان بدعاً في الادب العربي لم يسبق المتنبي اليه .

ثم ينتقل إلى القطعة الثالثة :

وما استغربت عيني فراقاً رأيته	ولا علّمتني غير ما القلب عالمه (١)
فلا يتّهمني الكاشحون ، فانّني	رعيت الردى ، حتى حلت لي علاقمه (٢)
مشبّ الذي يبكي الشباب مشيبه	فكيف توقّيه ، وبانيه هادمه ؟ (٣)
وتكملة العيش الصبا وعقيبه	وغائب لون العارضين وقادمه (٤)
وما خضب الناس البياض لأنه	قبيح ، ولكن احسن الشعر فاحمه

* * *

١ مر قوله في مرثية جدته : عرفت الليالي ، قبل ما صنعت بنا فلما دهتنا ، لم تزدني بها علما

٢ قال الحويرمي : لقد وقرتني الحادثات ، فما أرى لنازلة من ريبها أتوجع

وسترى المتنبي يبسطه ويزيده تمثيلا في قوله :

رماني الدهر بالأرزاء حتى	فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام	تكسرت النصال على النصال
وهان .. فما ابالي بالرزايا	لأني ما انتفعت بأن أبالي

وغريب ان يورد المتنبي معنى معرفة الليالي في هذا العارض – مباشرة بعد الغزل – فهل دهي بشيء في كنف سيف الدولة ، ذكره بالصدمة التي مني بها في جدته ؟

٣ يشرحه قول ابن الرومي :

تضعضعه الاوقات ، وهي بقاؤه	وتغتاله الاقوات ، وهي له طعم
إذا ما رأيت الشيء يبليه عمره ،	ويفنيه « ان يبقى » ، ففي دائه عقم

٤ ينظر فيه إلى قوله أيضاً :

سلبت سواد العارضين ، وقبله	بياضهما المحمود ، إذ انا أمرد

وهو في هذه القطعة إنما يكرر موضوع عبرته من الايام وخبرته للياليها ، على غرار ما أسمعناه في المرثية . فحديثه عن الشيب وسؤاله : كيف توقّيه وبانيه هادمه ؟ هو اعادة ما قاله هناك من ان كل شيء ينتهي إلى النقصان بعد التكامل ... عوداً على بدء ، فتلك هي سنة الحياة .

ويحسن تخلّصه من هنا – كعادة شعراء عصره – فيخرج إلى وصف الخيمة التي تُظلّهم ، وجمالها :

وأحسن من مـاء الشبيبة كلّـه · حيا بارق ، في فازة ، انا شائمـه
عليها رياض ، لم تحكها سـحابة · وأغصان دوح ، لم تغنّ حمائمـه
وفوق حواشي كل ثوب موجّه · من الدرّ سمط ، لم يثقبه ناظمـه
ترى حيوان البرّ مصطلحـاً بهـا · يحارب ضدّ ضدّه ، ويسـالمـه
إذا ضربته الريح ماج ، كـأنّـه · تجول مذاكيه ، وتدأى ضراغمه

* * *

وفي صورة الروميّ ذي التاج ذلّـة · لأبلـج ، لا تيجان الا عمائمـه
تقبّـل أفواه الملـوك بسـاطـه · ويكبر عنهـا كمّه وبراجمـه
قياماً لمن يشفي من الداء كيّـه · ومن ، بين أذني كل قرم مواسمه
قبائعهـا تحت المرافـق هيبـة · وأنفذ ممـا في الجفون عزائمـه

* * *

وهذا الوصف للخيمة يعيد إلى الذهن بدائع البحتري في وصف ايوان كسرى ، والقصور العباسية ، من ناحية الدقّة في التصوير . كما انّ حديثه عن الحضرة المهيبة لممدوحه لم يكن غير تقرير للواقع ، فلم يجاوز به قدر سيف الدولة .

ويدخل بعد ذلك في صميم المدح ، حسب ما كان مألوفاً عند القوم ، وهم يتوقعونه . فيبدأ بالاغراب في وصف العسكر :

له عسكرا خيل ، وطير ، إذا رمى … بها عسكراً ، لم تبق إلا جماجمه
أجلّتها ، من كل طاغ ، ثيابه … وموطئها ، من كل باغ ، ملاغمه (١)
فقد ملّ ضوء الصبح مما تغيره … وملّ سواد الليل مما تزاحمه
وملّ القنا مما تدقّ صدوره … وملّ حديد الهند مما تلاطمه
سحاب من العِقبان ، يزحف تحتها … سحاب إذا استسقت ، سقتها صوارمه (٢)

* * *

فقد غرّب في المعنى أولاً ان جعل العسكر – برفقة الطير المحلّق فوقه – لا يبقي من عسكر العدو ، إذا دهمه غير جماجم قتلاه ، ثم غرّب فيه ثانياً ان جعل السحاب (الذي هو تحت) من المحاربين ، يسقي السحاب (الذي هو فوق) من العقبان ، كلّما استسقاه . وهذا مذهب في المديح كان موضع الفتنة عند أصحاب المدرستين .

وينتقل بعد هذا الاغراب في الصنعة إلى وصف حاله وكيف كان يضرب في الآفاق قبل الاتصال بسيف الدولة :

سلكت صروف الدهر حتى لقيته … على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
مهالك .. لم تصحب بها الذئب نفسه … ولا حملت فيها الغراب قوادمه

---

١ قال ابو تمام حوافرها مخضوبة بدمائه … ومن غنمها تيجانه ، وخلاخله

٢ ينظر إلى قول النابغة : إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم … عصائب طير ، تهتدي بعصائب
جوانح ، قد أيقن ان قبيله … إذا ما التقى الجمعان ، أول غالب
وقول ابي تمام بعده : وقد ظللت عقبان اعلامه ضحى … بعقبان طير ، في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات ، حتى كأنها … من الجيش ، إلا انها لم تقاتل
فكما ان ابا تمام جعل الاعلام عقباناً ... مع العقبان ، فانه قد جعل الجيش من تحت والطير المحلق فوقه سحابين ... اغراباً في الصنعة .

فأبصرت بدراً ، لا يرى البدر مثله وخاطبت بحراً لا يرى العبر عائمه
غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف ، والشعر تهذي طماطمه
وكنت إذا يممت ارضاً بعيدة سريت ، فكنت السرّ والليل كاتمه(١)

* * *

فقد ذكر مصارعته الدهر بعزيمة لم يفلّ من حدّها الدهر ، والمهالك التي كان يقطعها وحيداً ، وكيف كان يتخذ الليل غطاء يحجبه عن العيون . ولاحظ انه يشهد لأول مرة كيف ثارت ثائرة نفسه لأن هذا البطل القومي لم يجد في الشعراء حوله من يوفي صفاته حقّها من التمجيد .

ثم يأخذ في البناء حول معنى السيفيّة في اسم سيف الدولة (٢) فيبدع ، وكان هذا أيضاً جديداً على القوم نال منهم غاية الاعجاب :

لقد سلّ سيف الدولة المجد ، معلما فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغرّ نجاده وفي يد جبّار السموات قائمه (٣)
تحاربه الاعداء ، وهي عبيده وتدّخر الاموال ، وهي غنائمه
ويستكبرون الدهر ، والدهر دونه ويستعظمون الموت ، والموت خادمه
وانّ الذي سمّى عليّاً لمنصف وان الذي سماه « سيفاً » لظالمه
وما كلّ سيف يقطع الهام حدّه وتقطع لزبات الزمان مكارمه

وهكذا يوفّق المتنبي أخيراً في عرض هذه البضاعة ، التي كان يشكو كساد سوقها في صباه ، بين يدي مستحقّها من الرجال . فقد

---

١ أخذه الصاحب فقال :

تجشمتها ، والليل وحف جناحه كأني سر والظلام ضمير

(وكان الصاحب كثير الأخذ منه ، حتى في رسائله ، رغم تشنيعه عليه) .

٢ كان الخليفة المتقي قد أنعم بهذا اللقب عليه عام ٣٣٠ لبلائه مع أخيه الاكبر الذي حاز لقب ناصر الدولة ، في الدفاع عن الخلفاء .

٣ قال ابو تمام : لقد خاب من يهدي سويداء قلبه لحد سنان ، في يد الله عامله

حسن موقعه عنده فقرّبه وأجازه الجوائز السنيّة ومالت نفسه اليه وأحبّه فسلّمه إلى الرواض فعلّموه الفروسية والطراد والمثاقفة . (١)

* * *

وهكذا خرج المتنبي من هذه الحلبة مسروراً ، فقد سرّ نزعته الفنية في قصيدة لم تزد على ٤٢ بيتاً .. فأبدع في الوصف حيث يطيب، وخصّ بالاشادة ما هو جدير بالاشادة ، وأغرب في التخيّل حيث يستحبّون الخيال ، ولم يعدُ في كل ذلك واقع ممدوحه العظيم . وهنّأ نفسه على ان نزلت هذا المنزل الكريم عند ملك .. ولا كالملوك ، يحفل بلاطه بهذه النخبة من العلماء والكتبة ، الذين لا يجوز عليهم الا الدرّ الدرّ من البيان في مجال الاحسان .

ومما دغدغ كبرياءه ان الشعراء في بلاط سيف الدولة لم يكونوا قبله يتجاوزون عون المعاني إلى ابكارها ، ولا يحطّون معدن دراهمها — في مذهب المديح — لرفع دينارها ، فقد تفنّن عليهم في القول حتى فتنهم عن أنفسهم ، بحيث أصبحوا من ساعتها عيالاً عليه ، يودون اللحاق به فلا يستطيعون ، ويحاولون الصعود اليه — بدون جدوى — فيفتضحون .

لأنه بقي دائماً المجلّي في السباق . (٢)

فهذا هو الذي دعاه ، وقد تعبّد له الطريق قويّاً ، ان يقف فيهم متباهياً — بعد مضيّ ست سنوات على موقفه هذا — وهو ينشد سيف الدولة في يوم الاضحى سنة ٣٤٢ على رؤوس الاشهاد :

أزل حسد الحسّاد عني بكبتهم   فأنت الذي صيّرتهم لي حسّدا

---

١ راجع « الصبح المنبي » البديعي .

٢ قال فيهم مرة : إذا شاء ان يلهو بلحية أحمق   اراه غباري ثم قال له : الحق !

اذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا
وما الدهر الا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً ، أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمّرا وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا
أجزني ؛ إذا أنشدت شعراً ، فإنما بشعري اتاك المادحون مردّدا
.. ودع كلّ صوت غير صوتي فانني انا الطائر المحكيّ ، والآخر الصدى

* * *

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله وأنعلت افراسي بنعماك عسجدا
وقيّدت نفسي في ذراك محبّة ومن وجد الاحسان قيداً ، تقيّدا
إذا سأل الانسان أيّامه الغنى وكنت على بعد ، جعلنك « موعدا »

فهل كان يعلم انه سيضطر إلى مغادرته قبل مضيّ اربع سنوات أخرى ؟

ولكنه – بأية حال – نعم خلالها بأسعد الايام .

الباب الخامس

دلالة المكرّر من شعر المتنبي

أول ما يلاحظه الشارحون في ديوان ابي الطيب عمق محتواه من المعاني وغزر مادته ، كالخضم الزاخر الذي يغشى برشاش موجه — عن منتأى — سواحله ، ولا يعرف الساحل عن أغواره شيئاً . ولكنّنا إذا دقّقنا النظر — بعد — وجدنا في الديوان تكراراً لبعض هذه المعاني .. كالامواج التي لا تني ترتفع وتهبط في الخضم . وهذا التكرار لا يقتصر شأنه على عهد دون عهد من معاناة الشاعر لأحداث زمانه ، وانما ينتظم عقود حياته كلّها .

إن لهذه الظاهرة دلالتها البعيدة ، فهي أقوى شاهد على انشغال ذهنه — طيلة الوقت — برواسب بعض هذه المعاني ، بحيث اذا انساق إلى تكرارها فلا عن افتعال ، وإنما بوحي من فطرته الواعية أو انفعاله .

فهو يقول مثلاً أول عهده بأبي العشائر :

فسرت إليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

كما يقول أول عهده بكافور :

وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنّها في مفخر أستجدّه

وبين القولين فترة عشر سنوات على الأقل ، مرّ خيرها عليه – كما رأينا – في كنف سيف الدولة .

ثم ان بعض تلك المعاني تحمل بتكرارها دلالة أخرى ، هي استجابة الشاعر لنزعته الفنية في محاولته الدائبة للتفوّق على نفسه في مجال التطوير .. بعد أن يكون قد تفوّق على منافسيه في مجال التعبير . سواء أكان ذلك من ناحية الكشف عن وجوه المعاني الفاتنة وابرازها في ثوبها القشيب ، وهو مطمح الشاعر الأصيل في كل عصر وجيل .

كقوله ، وهو من أول ما نظم في صباه :

وتفوح من طيب الثناء روائح لهمُ ، بكل مكانة تستنشق
مسكيّة النفحات ، الا انها وحشيّة ، بسواهم لا تعبق

وقوله بعدُ بين يدي ابي العشائر :

ومعالٍ .. اذا ادّعاها سواهم لزمته جناية السرّاق

ام من ناحية تقليبها على وجوه ، والاغراب فيها ... حتّى الاحالة ، وقد كان هذا هو سلّم الرقيّ في عصره – كما رأينا – إلى التفوّق والبروز .

كقوله لحفيد البحتري بمنبج أول هبوطه الشام :

وعظم قدرك في الآفاق أوهمني اني بقلّة ما أثنيك .. اهجوكا

وقوله من بعد في رثاء عمّة عضد الدولة وهو بشيراز :

وكان من عدّد احسانه　　كأنّما اسرف في سبّه

بحيث نجدها كذلك — ولنفس الاسباب — تتردّد .. مكرّرة .. عند الشعراء الآخرين .

والذي يهمنا من أمر هذه المعاني هنا ما كان يكرّره الشاعر بوحي من انفعاله الصادق وفطرته الواعية ، لانشغال ذهنه بها طيلة الوقت ، إذ هي تدلّنا — مبدئيّاً — على موقف الشاعر الذاتي ، كأحد النظّارة ، من مجتمع عصره ، ونظرته الخاصة إلى دور ابطال المسرحيّة فيه . وسنجد بين هذه المعاني ما يضرب بجذوره الأصلية في خيم الشاعر وخلقه ؛ كما سنجد ما تأصّل بعد في نفسه بحكم طول مكثه — صبيّاً — بين الخيام .

ولا مشاحة ان معظمها ينتظم سلكها تحت أوّليات لا تتجاوزها هي التي يصطبغ بأثرها الديوان كله ، اذ هي تدور — أكثر ما تدور — حول قضايا الساعة ، ولا تخرج عن العناوين التالية :

(أ) موقفه من استبداد الانسان .

(ب) موقفه من كرامة الانسان .

(ج) موقفه من نبل الانسان .

(د) موقفه من غرور الانسان .

فتحت عنوان موقفه من استبداد الانسان . يقع مثلاً ما قاله في الدول والملوك ، وأحوال الناس ، وأثرة الاثرياء وعجز العجزة ، والحظ والسعادة ، ومعاكسة الدهر وجور الزمان . وتحت عنوان موقفه من كرامة الانسان ، يقع ما قاله في كبر النفس والاعتداد بها ، والهمم والهموم ، والمجد والمال ، وصلابة الرأي وصدق الحدس ، وروعة

البيان . وتحت عنوان موقفه من نبل الانسان ، يقع ما قاله في حسن البداوة ، وعفّة أهلها وإبائهم ، وما يتحلّون به من صفات الكرم والشجاعة ، والصبر والتضحية ، والتفاني في الذود عن الحقّ وقوة الايمان . وتحت عنوان موقفه من غرور الانسان ، يقع ما قاله في متعة الحسن ، وطماعة الحب ، وعرض الدنيا ، وزيف الحضارة ، والحسد والشماتة ، وما يتحتّم بعد كلّ زيادة من نقصان ... إلى آخر ما قال .

ونستحسن ان نجعل الشواهد من شعره المكرر منسّقة بحسب أطوار عمره ، لنستطيع بجلاء ان نتابع تطوّر نظراته – على توالي السنين– حول هذه الشؤون . فهذه الاطوار – كما مرّ بنا – هي :

(أ) ما كان منها قبل الاتصال بسيف الدولة :

(١) من أيام صباه حتّى دخوله سجن حمص وهو الطور الاول
(٢) اثناء تقلّبه في الامصار بعد خروجه من السجن . وهو الطور الثاني

(ب) ما كان في صحبة سيف الدولة بحلب وهو الطور الثالث

(ج) ما كان بعد فراق سيف الدولة :

(١) في مصر بين يدي كافور وهو الطور الرابع
(٢) في العراق ثم فارس وهو الطور الخامس

وسنجتزئ من الشواهد – في هذا الفصل – بما كان موضوعه سواسية الناس ، واندثار الهمم ، والتطلّع إلى الملوك .

* * *

فمما جاء في الطور الاول (٣١١ – ٣٢٤) قوله وهو في المكتب :

نفس تُصغّر نفس الدهر من كبر   لها نُهى كهله في سنّ أمرده

وقوله ارتجالاً ، وقد أهديت اليه هدية :

قد شغل الناس كثرةُ الأمل   وأنت بالمكرمات في شـــغل

° ° °

هديّة . مـا رأيت مهديها   إلا رأيت العباد في رجـــل

وفي هذين البيتين اشعاع يكشف ما سيصبح – غداً – أمره مـع الناس والممدوحين . تأمّل هنا رأيه في الناس مثلاً فهم مشغولون بكثرة الأمل دون أقل عمل ، بينما هذا الذي اهدى له الهدية يوشك ان يغنيه عنهم جميعاً . (١)

وقوله :

أرى أناساً ، ومحصولي عـلى غـنم   وذكر جود ، ومحصولي على الكلم
وربّ مال ، فقيراً من مروءته   لم يثر منها ، كما أثرى من العـدم

° ° °

---

١ على هذا الفرار ، ما قاله في جعفر بن كيغلغ :

لا يجبر الناس عظما ، أنت كاسره   ولا يهيضون عظما ، أنت جـابره

وما أنشده شجاعاً الطائي بمنبج :

أنى يكون أبـا البريـة آدم   وأبوك (والثقلان أنت) محمد ؟

الثقلان أنت !

وما نظمه عام ٣٢١ لفارس آل حمدان (؟) ، ولم ينشدها اياه :

أنت الغريبـة ، في زمان أهلـه   ولدت مـكارمهم لغـير تمـام
صغرت كل كبيرة ، وكبرت عن   « لكأنه » ، وعددت سن غـــلام
ان كان مثلك كان أو هو كائن   فبرئت حينئـــذ من الاســلام

بنى معنى البيت على الاستحالة .

ومما جاء في الطور الثاني(١) ، (٣٢٥ – ٣٣٦) قوله لعلي بن ابراهيم التنوخي :

أحقّ عاف بدمعك الهمم　　أحدث شيء عهداً بها القدم

---

١ على نفس الوتيرة ، ما أنشده محمد بن زريق الطرسوسي :

كشفت جمهرة العباد ، فلم أجد　　الا مسودا – جنبه – مرؤوسا

وما أنشده عبد الله بن يحيى البحتري :

هم الناس ، الا انهم من مكارم　　يغني بهم حضر ، ويحدو بهم سفر

هم الناس !

وما أنشده أخاه أبا عبادة :

لما وزنت بك الدنيا ، فملت بها　　وبالورى ، قل عندي كثرة العدد

وما أنشده مساور بن محمد :

لو فرق الكرم ، المفرق ماله ،　　في الناس ، لم يك في الزمان شحيح

وما أنشده المغيث العجلي :

قبيل .. (انت انت) وأنت منهم　　وجدك بشر ، الملك الهمام

لقد حسنت بك الاوقات ، حتى　　كأنك في فم الزمن ابتسام

أنت أنت !　　وما أنشده أبا الفرج القاضي :

وأضحى وبين الناس ، في كل سيد　　من الناس ، الا في سيادته ، خلف

وما أنشده عبد الواحد بن ابي الاصبع :

ان كان لا يدعى الفتى إلا كذا　　« رجلا » ، فسم الناس طرّاً «اصبعا»

وما أنشده عبد الرحمن الانطاكي :

انما الناس حيث انت ، وما النا　　س بناس ، في موضع منك خال

وما أنشده هارون الاوراجي (وكان يذهب إلى التصوف) :

لو لم تكن من ذا الورى ، اللذ منك هو ،　　عقمت بمولد نسلها حواء

أي ان الورى منه ، فلو لم يكن هو في الورى لكان خلق الخلق بمثابة العقم .

وما أنشده بدراً بن عمار الاسدي :

فأنت وحيد بني آدم　　ولست – لفقد نظير – وحيدا

وانما الناس بالملوك ، وما   تفلح عرب ، ملوكها عجم
لا أدب عندهم ، ولا حسب   ولا عهود لهم ، ولا ذمم
بكلّ أرض وطئتها أمم   تُرعى بعبد ، كأنّها غنم

وكذلك قوله فيه: مثلك يا بدر ، لا يكون ، ولا   تصلح إلا لمثلك الدول
وقوله : وأقسم .. لو صلحت يمين شيء   لما صلح العباد له شمالا
وقوله : لو كان علمك بالاله مقسما   في الناس ، ما بعث الاله رسولا
وقوله : خلت البلاد من الغزالة ليلها   فأعاضهاك الله ، كي لا تحزنا
يقولون : كان في الاصل « من النبي محمد » .
وقوله مرتجلا : أفاعيل الورى – من قبل – دهم   وفعلك ، في فعالهم ، شيات
وما أنشده احمد بن عبد الله الانطاكي القاضي :
يا افخر ! فان الناس فيك ثلاثة   مستعظم ، أو حاسد ، أو جاهل
وما أنشده سعيداً بن عبد الله الانطاكي :
قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها   وشرف الناس ، إذ سواك انسانا
وما أنشده أحمد بن عمران :
ذكر الانام لنا فكان قصيدة   كنت البديع الفرد من أبياتها
وما أنشده علي بن أحمد الانطاكي :
وما زلت ، حتى قادني الشوق نحوه   يسايرني في كل ركب له ذكر
وأستكبر الاخبار قبل لقائه   فلما التقينا ، صغر الخبر الخبر
أزالت بك الايام عتبي ، كأنما   بنوها لها ذنب ، وانت لها عذر
وما أنشده علياً بن صالح الكاتب :
ملك ، منشد القريض لديه   يضع الثوب في يدي بزاز
وما أنشده طاهراً بن الحسين العلوي :
وأبهر آيات التهامي ، انه   ابوك ، واحدى ما لكم من مناقب
فيعكس هنا أيضاً ، ابداً كما فعل في رثاء جدته (راجع الفصل السابق) .
وماأنشده الحسين بن علي الهمذاني :
وجدت علياً وابنه خير قومه   وهم خير قوم ، واستوى الحر والعبد
وأصبح شعري منهما في مكانه   وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

وقوله للمغيث بن علي العجلي :

ودهـر ناسـه ناس صغـار وان كانت لهـم جثث ضخـام
وما أنا منهـم بالعيش فيهـم ولكن معـدن الذهب الرغـام
أرانب ... غير أنهـم مـلوك مفتحـة عيونهم ... نيـام

وقوله لعلي بن أحمد المرّي :

ضاق ذرعاً ، بأن اضيق بـه ذر عاً ، زماني . . واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قـدر نفسي واقفاً ـ تحت أخمصيّ ـ الانـام

وقوله لمحمد بن عبد الله الخصيبي :

أفاضل الناس اغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطـن
وانمـا نحن في جيـل سواسية شرّ على الحرّ ، من سقم علـى بـدن
حولي بكلّ مكان منهم خلـق تخطي إذا جئت في استفهامها بـ«من» ؟
لا أقتري بلـداً الا علـى غـرر ولا أمرّ بخلـق غـير مضطغـن
ولا اعـاشر من املاكهم ملكاً الا احقّ بضرب الرأس من وثن
انّي لأعـذرهم ممـا اعنّفهـم حتّى أعنّف نفسي فيهم ، وأنـي

وقوله لسعيد بن عبيد الله الانطاكي :

لو استطعت ركبت النـاس كلهـم إلى سعيد بن عبد الله ، بعـرانـا
فالعيس اعقل من قوم رأيتهـم عمّا يراه من الاحسان ، عميـانا

وقوله لأحمد بن عمران :

في الناس أمثلة ، تدور حياتهـا كمماتهـا ، ومماتهـا كحياتهـا

وما أنشده ابا العشائر الحمداني :

فأكبروا فعلـه . . وأصغـره أكبر من فعـله ، الذي فعـله

وكذلك قوله فيه : الناس ، ما لم يروك ، أشبـاه والدهـر لفظ .. وأنت معنـاه

وقوله لعلي بن أحمد الانطاكي :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينهـا فمفترقٌ جاران . دارهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقّاً وقينة فما المجد إلا السيف . والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك . وان ترى لك الهبوات السود . والعسكر المجر
وتركُك في الدنيا دويّاً . كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وقوله لعلي بن محمد بن سيّار التميمي :

أذمّ إلى هذا الزمان أهيَله فأعلمهم فدم ، وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب . وأبصرهم عم وأسهدهم فهد . وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له . ما من صداقته بدّ
بقلبي ، وان لم أرو منها . ملالة وبي عن غوانيها . وان وصلت . صد
خليلاي ، دون الناس . حزن وعبرة (على فقد من أحببت) ما لهما فقد

وهو إنما يشير هنا إلى جدّته .

وأرحم أقواماً ، من العيّ والغبى وأعذر في بغضي . لأنهم ضدّ

وقوله لعلي بن صالح الكاتب :

ومن الناس من يجوز عليه شعراء ، كأنها الخازباز

(الخازباز طنين الذباب ، ومنه الذباب نفسه)

ويرى انه البصير بهذا وهو في العمي ضائع العكّاز

وقوله لحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة :

ومن عرف الايام — معرفتي بها وبالناس — روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم ، إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

* * *

وفارقت شرَّ الأرض أهلاً ، وتربة		بها علويّ ، جدّه غير هاشم

وسئل ابو الطيب عنه فقال : أردت الطبريّة .

وقوله لطاهر بن الحسين العلوي :

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله		فماذا الذي تغني كرام المناصب ؟
وما قربت أشباه قوم أباعد		ولا بعدت أشباه قوم أقارب
إذا علوي لم يكن مثل طاهر		فما هو الا حجّة للنواصب

وقوله ، وهو يهجو اسحق بن كيغلغ :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله		وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
والناس قد نبذوا الحفاظ ، فمطلق		ينسى الذي يولى ، وعاف يندم
لا تخدعنّك عن عدو دمعة		وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى		حتّى يراق على جوانبه الدم
يؤذي القليل من اللئام بطبعه		من لا يقلّ ، كما يقلّ ويلؤم
والظلم في خلق النفوس ، فان تجد		ذا عفّة ، فلعلة لا يظلم
ومن البليّة عذل من لا يرعوي		عن جهله ، وخطاب من لا يفهم

* * *

أفعال من تلد الكرام كريمة		وفعال من تلد الاعاجم أعجم

وقوله ، بعد مقتل بن كيغلغ على أيدي غلمانه :

كلام أكثر من تلقى ، ومنظره		مما يشقّ على الآذان والحدق

وقوله لأبي العشائر الحمداني :

أرى الناس الظلام ، وانت نور		واني منهم لأليك عاش
بليت بهم ، بلاء الورد يلقى		أنوفاً .. هنّ اولى بالخشاش

(الخشاش عود يجعل في عظم أنف البعير)

عليك – إذا هزلت – مع الليـــالي وحولك – حين تسمن – في هراش

° ° °

ومما جاء في الطور الثالث(١) (٣٣٧ – ٣٤٥) قوله لسيف الدولة الحمداني ، اول لقائه :

لقد سلَّ سيف الدولة المجد ، معلما فلا المجد مخفيه ، ولا الضرب ثالمــه
على عـاتق الملك الأغـرّ نجـاده وفي يد جبـار السماوات قـائمه

---

١ على نفس المنوال ما أنشده سيف الدولة الحمداني :

رأيتك ، في الذين أرى ملوكاً ، كـأنك مستقيم في محـــال
فان تفق الانام – وأنت منهـم – فان المسك بعـض دم الغـــزال

وكذلك قوله فيه : وكم رجال ، بلا أرض ، لكثرتهم تركت جمعهم ارضاً ، بلا رجل

وقوله : وله ، وان وهب الملوك ، مواهب در الملوك ، لدرها ، أغبـــار

وقوله : أنت الذي لو يعـاب في مـلأ مـا عيب الا بأنـــه بشـــر

وقوله : ان الخليفــة لم يسمك ســيفها حتى بلاك ، فكنت عين الصـــارم
فاذا تتوج ، كنت درة تاجــه وإذا تختم ، كنت فص الخاتم

وقوله : تمشي الكرام على آثار غيرهم وأنت تخلـق مـا تأتي وتبتدع
من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعـه شيء ، ولا يضــع

وقوله : ولمـا رأيت الناس دون محلــه تيقنت ان الدهر للناس ناقــد

وقوله : كفى عجباً ، ان يعجب الناس أنه بني مرعشا ، تبـاً لآرائهم تبـــا
وما الفرق ما بين الانـام وبينه إذا حذر المحذور ، واستصعب الصعبا

وقوله : والمدح لابن ابي الهيجـاء ، تنجده بالجاهلية ، عين العي والخطــل
ليت المـدائح تستوفي منـاقبه فما كليب ، وأهل الأعصر الأول؟
خذ ما تراه ، ودع شيئاً سمعت بــه في طلعة البدر مـا يغنيك عن زحــل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لسـاناً قائلا .. فقــل
إن الهمام الذي فخر الانـــام بــه خير السيوف ، بكفي خيرة الدول

كما مرّ بنا في الفصل السابق .

وقوله له :

وشركتُ دولة هاشم في سيفها وشققتُ خيس الملك عن رئباله
اعطى ، ومن على الملوك بعفوه حتى تساوى الناس في افضاله

وقوله له :

أما للخلافة من مشفق على سيف دولتها الصائل ؟

تمسي الأماني صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء : ليت ذلك لي !

وقوله : فلا غفل الدهر عن أهله فانك عين بها ينظر

وقوله : فلما رأوه وحده دون جيشه دروا ان كل العالمين فضول

وقوله : فلو خلق الناس من دهرهم لكانوا الظلام ، وكنت النهارا

وقوله : أرى كل ذي ملك اليك مصيره كأنك بحر ، والملوك جداول
إذا مطرت منهم ، ومنك ، سحائب فوابلهم طل ، وطلك وابل

وقوله : يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك ما لا تدعيه الضراغم

وقوله : وكل اناس يتبعون إمامهم وأنت لأهل المكرمات امام
جرى معك الجارون، حتى إذا انتهوا إلى الغاية القصوى ،جريت وقاموا

وقوله : وما في سطوة الارباب عيب ولا في ذلة العبدان عار

وقوله : في رثاء أخته الصغرى :

يا مليك الورى ، المفرق محيا ومماتاً ، فيهم ، وعزاً وذلا
قلد الله دولة سيفها أنـ ـت ، حساماً بالمكرمات محلى
وإذا لم تجد من الناس كفؤاً ذات خدر ، ارادت الموت بعلا

وقوله : وسعى .. فقصر عن مداه في العلى أهل الزمان ، وأهل كل زمان
تخذوا المجالس في البيوت ، وعنده ان السروج مجالس الفتيان
وتوهموا اللعب الوغى ، والطعن في الهيجاء غير الطعن في الميدان

وقوله : لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول ، حتى أحمد الصمم

يقـــدّ عداهــــا ، بلا ضارب　　ويسري اليهــم ، بلا حامــــل

وقوله له :

يلقى الملوك ، فلا يلقى سوى جــزر　　وما أعدّوا ، فلا يلقى سوى نفــل
صان الخليفــة بالابطــال مهجتــه　　صيانة الذكر الهنــدي بالخلــل

وقوله له عام ٣٣٨ :

الجيش جيشك ، غير أنك جيشه　　في قلبه ، ويمينـه ، وشمالـــه
ترد الطعــان المرّ عن فرسانــه　　وتنــازل الأبطــال عن ابطـــاله
كلّ .. يريــد رجــاله لحياته　　يا من يريــد حياته . لرجـــاله

وقوله له :

إذا مــا النــاس جرّبهــم لبيـــبٌ　　.. فانّي قــد اكلتهم .. وذاقا
فلم أر ودّهم الا خــداعــــا　　ولم أر دينهــم إلا نفــاقـــا

وقوله له عام ٣٣٩ :

غيري بأكثر هذا الناس ينخــدع　　ان قاتلوا جبُنوا ، أو حدّثوا شجعوا
أهل الحفيظة .. الا ان تجرّبهـــم　　وفي التجارب — بعد الغيّ — ما يزع

* * *

ليت الملوك على الأقــدار معطيــة　　فلم يكن لدنيء عندهـــا طمـــع
انّ السلاح جميع الناس تحملــه　　وليس كل ذوات المخلب السبع

وقوله له ، وقد جرى ذكر ما بين العرب والاكراد من الفضل . مرتجلاً :

ان كنت عن خير الأنامِ سـائـلا　　فخيرهمْ أكـثرهم فضـائلا

وقوله له عام ٣٤٢ :

فدتك ملوك لم تسمّ مواضيا   فانّك ماضي الشفرتين صقيل
إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة   ففي الناس بوقات لها وطبول

الظاهر انه يعرّض هنا بالالقاب الأخرى وربما عنى انهم بمنزلة الابواق والطبول لأنهم لا ينفعون الا بجمع الجيوش .

انا السابق الهادي إلى ما أقوله   إذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس ، فيما يريبني ،   اصول ، ولا للقائليه أصول

وهذا تعريض بالشعراء (راجع الفصل السابق)

فان تكن الدولات قسماً ، فانها   لمن ورد الموت الزؤام تدول

وقوله له ، وقد عوفي من دمّل كان به :

تفرّد العرب في الدنيا بمحتده   وشارك العرب في احسانه العجم
وما أخصّك في برء بتهنئة   إذا سلمتَ ، فكلّ الناس قد سلموا

وقوله له :

تظلّ ملوك الأرض خاشعة له   تفارقه هلكى ، وتلقاه سجّدا
فيا عجباً من دائل انت سيفه   أما يتوقّى شفرتي ما تقلّدا ؟
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه   تصيّده الضرغام فيما تصيّدا

وقوله له عام ٣٤٣ :

إذا العرب العرباء رازت نفوسها   فأنت فتاها ، والمليك الحلاحل
أطاعتك في أرواحها ، وتصرّفت   بأمرك ، والتفّت عليك القبائل
وكلّ أنابيب القنا مدد له   وما ينكت الفرسان الا العوامل
رأيتك .. لو لم يقتض الطعن في الوغى   اليك انقياداً ، لاقتضته الشمائل

ومن لم تعلّمه لك الذّل نفسه من الناس طرّاً ، علّمته المناصل

وقوله له عندما أحدث بنو كلاب حدثاً ، فأوقع بهم :

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الضراب
وتملك أنفس الثقلين طرّاً فكيف تحوز أنفسها كلاب ؟

وقوله له ، عندما هزم الدمستق وأقام على الحدث حتى بناه :

ولست مليكاً ، هازماً لنظيره ولكنّك التوحيد للشرك هازم
تشرّفُ عدنان به ، لا ربيعة وتفتخر الدنيا به ، لا العواصم

وقوله له عام ٣٤٤ عند وفود الرسل :

أراع كذا كلّ الانام همام ؟ وسحّ له رسل الملوك غمام ؟
ودانت له الدنيا ؛ فأصبح جالساً وأيامها ، فيما يريد ، قيام
فتى تتبع الأزمان في الناس خطوه لكلّ زمان في يديه زمام

وقوله له ، بعد ايقاعه بالقبائل الثائرة :

وفيك إذا جنى الجاني أناة تظنّ كرامة ، وهي احتقار
وأخذ للحواضر والبوادي بضبط ، لم تعوّده نزار
تشمّمه .. شميم الوحش انساً وتنكره ، فيعروها نفار
وما انقادت لغيرك في زمان فتدري ما المقادة والصغار

* * *

لهم حقّ ، بشركك في نزار وأدنى الشرك ، في أصل ، جوار
لعلّ بنيهم لبنيك جند فأوّل قرّح الخيل المهار

وقوله له :

غصب الدهر والملوك عليها فبناها ، في وجنة الدهر خالا

إنما أنفس الانيس سباع | يتفارسن جهرة واغتيالا
من اطاق التماس شيء غلابا | واغتصاباً ، لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى | ان يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله له ، عام ٣٤٥ :

رفعتْ بك العرب العماد ؛ وصيّرت | قمم الملوك مواقد النيران
أنساب فخرهم اليك ، وانما | أنساب اصلهم إلى عدنان

وقوله له ، وهي آخر ما أنشده بحلب :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به | شرب المدامة ، والأوتار ، والنغم
مقلّداً ، فوق شكر الله ، ذا شطب | لا تستدام بأمضى منهما النعم
القائم الملك الهادي الذي شهدت | قيامه وهداه العرب والعجم
ابن المعفّر في نجد فوارسها | بسيفه ، وله كوفان والحرم

° ° °

ولننتقل الآن معه من حلب إلى الفسطاط .

فمما جاء في الطور الرابع(١) (٣٤٦ ـ ٣٥٠) ، قوله لكافور الاخشيدي أول وفوده عليه :

قواصد كافور ، توارك غيره | ومن قصد البحر استقلّ السواقيا

---

١ على هذا النهج ، ما أنشده كافوراً :

فجاءت بنا انسان عين زمانه | وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
نجوز عليها المحسنين ، إلى الذي | نرى عندهم احسانه والأياديا
فتى ، ما سرينا في ظهور جدودنا | إلى عصره ، الا نرجي التلاقيا
ترفع عن عون المكارم قدره | فما يفعل الفعلات الا عذاريا
أبا كل طيب ، لا أبا المسك وحده | وكل سحاب ، لا اخص الغواديا
يدل بمعنى واحد كل فاخر | وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

يقال ان سيف الدولة لما بلغه هذا البيت قال : له الويل ! جعلني ساقية ، وجعل الأسوَد بحراً .

يقول له فيها :

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنـــى ولكن بأيّـــام أشبن النواصيـــا

وقوله :

وما زال أهل الدهر يشتبهون لي اليك ، فلما لحت لي ، لاح فـــرده
يقال ، إذا ابصرت جيشاً وربه: أمامك رب ، رب ذا الجيش عبده
وألقى الفم الضحاك ، اعلم انـه قريب .. بذي الكف المفداة .. عهده
فزارك مني من اليك اشتياقـه وفي الناس ، إلا فيك وحدك ، زهده

وقوله :

فدى لأبي المسك الكرام ، فانهـا سوابق خيل .. يهتـدين بأدهـم
أغر بمجد ، قـد شخصن وراءه إلى خلق رحب ، وخلق مطهم
فأحسن وجه في الورى وجه محسن وأيمن كف فيهم كف منعـم

وقوله :

أجفل الناس عن طريق ابي المسك ، وذلت لـه رقـاب العبـاد
كيف لا يـترك الطريق لسـيل ضيـق عن أتيـه كل واد

وقوله :

قضى الله يا كافور انك أول وليس بقاض ان يرى لك ثان
فمالك تختــار القسي ، وانمـا عن السعد يرمى دونك الثقلان ؟
ومالك تعنى بالاسـنة ، والقنـا وجدك طمـان بغير سـنان ؟
ولم تحمـل السيف الطويل نجـاده وأنت غني عنـه بالحدثان ؟
أرد لي جميلا .. جدت أو لم تجد به .. فانك ، ما أحببت في .. أتاني
لو الفلك الدوار أبغضت سعيـه لعوقـه شيء عـن الـدوران

وما أنشده ابا شجاع فاتكا الاخشيدي :

إذا الملوك تحلت ، كان حليتـه مهنـد ، وأصم الكعب عسـال
ابو شجاع ، ابو الشجعان قاطبـة هول ، نمتـه من الميجـاء أهوال
تملك الحمد ، حتى ما لمفتخـر في الحمد حاء ، ولا ميم ، ولا دال
عليه منـه سرابيـل مضاعفـة وقـد كفـاه من الماذي سربال
ان كنت تكبر ان تختال في بشـر فان قـدرك في الاقدار يختـال

وقوله :

جرى الخلف إلا فيك انك واحد وانك ليث ، والملوك ذئـاب
وانك ان قويست ، صحف قارئ « ذئاباً » ، ولم يخطئ ، فقال : ذباب
وان مديح النـاس حق وباطـل ومدحك حق ، ليس فيه كذاب

وقوله له . وقد بنى داراً جديدة :

من لبيض الملوك ان تبدل اللـو ن ، بلون الاستاذ والسحناء
فتراها بنو الحروب بأعيا ن ، تراه بها، غداة اللقاء

* * *

أنت اعلى محلّة ان تهنّا بمكان في الأرض أو في السماء
ولك الناس ، والبلاد ، وما يسـ ـرح بين الغبراء والخضراء
فارم بي ما أردت مني ، فانّي أسد القلب ، آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك ، وان كا ن لساني يرى من الشعراء

وقوله له :

ترعرع الملك الاستاذ ، مكتهلا قبل اكتهال ، اديباً قبل تأديب
مجرّباً فهما .. من قبل تجربة مهذّباً كرماً .. من غير تهذيب
حتى أصاب من الدنيا نهايتها وهمه في ابتدا آت وتشبيب
يدبّر الملك من مصر ، إلى عدن إلى العراق ، فأرض الروم ، فالنوب
إذا أتتها الرياح النكب من بلد فما تهبّ بها الا بترتيب

يشير إلى العواصف التي كانت تعصف بالعالم الاسلامي من اطرافه

ولا تجاوزها شمس إذا شرقت الا ومنه لها اذن بتغريب

وانهم يعملون في ضوئها طول النهار ، فلا تعكر العلاقات العمالية غيوم ، وان الاقطاع كانت تدين له بالطاعة التامة .

يصرّف الامر فيها طين خاتمه ولو تطلّس منه كل مكتوب

وقوله : تشابهت البهائم والعبدى علينا ، والموالي والصميم
وما أدري أذا داء حديث أصاب الناس ، ام داء قديم
حصلت بأرض مصر على عبيد كأن الحر بينهم يتيم

وقوله :

وأتعب خلق الله من زاد همّــه وقصّر عمّا تشتهي النفس وجده
فلا مجد في الدنيا لمن قـلّ مـاله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجـده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه ، والثوب جلـده
ولكنّ قلبا بين جنبيّ .. ما لـه مدى ينتهي بي ، في مراد أحدّه
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربّـه فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه

وقوله له عام ٣٤٧ :

قد اختَرتك الأملاك . فاختر لهم بنا حديثاً ، وقدحكّمت رأيك،فاحكم
ولو كنت أدري كم حياتي ، قسمتها وصيّرت ثلثيها انتظارك ، فـاعلـم

وقوله له :

وأنت الذي ربّيت ذا الملك . مرضعا وليس له أمّ سواك ، ولا أب

يريد بذي الملك ابن الاخشيد .

وكنت لـه ليث العرين لشـبله وما لك الا الهنـدوانيّ مخلـب
وما عدم اللاقوك بأساً وشـدّة ولكنّ من لاقوا أشدّ وأنجـب
ويغنيك عمّـا ينسب الناس أنـه اليك تناهى ، المكرمات وتنسب
وأي قبيـل يستحقّك قـدره ؟ معدّ بن عدنان فداك ، ويعـرب

وقوله ، وهو يتذكّر سيف الدولة ، ولم ينشدها كافوراً :

سهرت بعـد رحيلي وحشـة لكم ثم استمر مريري ،وارعوى الوسن
وان بليت بودّ . مثل ودّكم ، فانّني بفـراق مثـله قمـن

حكي ان سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال : سار ، وحقّ ابي.
وقوله :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصّة كلهم منـ   ـه ، وان سرّ بعضهم أحيانا

إلى آخر هذه الرائعة .

وقوله له عام ٣٤٨ يذكر قيام شبيب وقتله :

برغم شبيب فارق السيف كفّه   وكانا على العلاّت يصطحبان
كأنّ رقاب الناس قالت لسيفه :   رفيقك قيسيٌّ ، وأنت يمان
وهل ينفع الجيش الكثير التفافه   على غير منصور ، وغير معان ؟
وعند من اليوم الوفاء لصاحب ؟   شبيب وأوفى من ترى أخوان

وقوله ، في قصيدة الحمّى ، ولم ينشدها كافوراً .

ولمّا صار ودّ الناس خبّا   جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشكّ فيمن أصطفيه   لعلمي انه بعض الأنام
يحبّ العاقلون على التصافي   وحب الجاهلين على الوسام
عجبت لمن له قدّ ، وحدّ   وينبو نبوة القضم الكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالي   فلا يذر المطيّ بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس شيئاً   كنقص القادرين على التمام

وقوله لأبي شجاع فاتك الاخشيدي :

لولا المشقّة ساد الناس كلّهم   الجود يفقر ، والاقدام قتّال
وانّما يبلغ الانسان طاقته   ما كلّ ماشية بالرحل شملال
انّا لفي زمن تركُ القبيح به   من اكثر الناس احسان واجمال

وقوله لكافور عام ٣٤٩ ، وهي آخر ما أنشدها اياه ، ولم يلقه بعدها :

وأنفذ ما تلقاه حكماً ، إذا قضى   قضاء .. ملوك الأرض منه غضاب

يقود اليه طاعة الناس فضله ولو لم يقدهـا نائل وعقاب

* * * *

ولا ملك الا أنت . والملك فضلة كأنك نصل فيه ، وهو قراب

وهذا يدلّك كيف كان نظره إلى مقام الملوك .

وقوله بينه وبين نفسه :

سادات كلّ اناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
أغاية الدين ان تحفوا شواربكم يا أمّة ، ضحكت من جهلها الأمم ؟

كما انّ هذا يظهر لك ماذا كان ينكر في هذا المقام .

وقوله عام ٣٥٠ . يوم عرفة . قبل مسيره من مصر بيوم واحد :

ما كنت احسبني احيا إلى زمن يسيء بي فيه كلب ، وهو محمود

أذكر قوله : وأكرمهم كلب .

ولا توهّمت ان « الناس » قد فقدوا وانّ مثل ابي البيضاء موجود

* * *

أكلّما اغتال عبد السوء سيّده أو خانه ، فله في مصر تمهيد ؟
صار الخصيّ امام الابقين بها فالحرّ مستعبد ، والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن ، وما تفنى العناقيد

* * *

ومما جاء في الطور الخامس(١) (٣٥١ – ٣٥٤) ، قوله عند دخوله الكوفة راجعاً :

١ على نفس الفرار ، ما أنشده لنفسه متألماً :

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومـن بالعواصم ، أنّي الفتى
وأنّي وفيت ، وأنّي أبيـت وأنّي عتوت على من عتـا
وما كلّ من قال قولاً ، وفـي وما كلّ من سيم خسفاً ، أبـى

بها نبطي من أهل السواد يدرس انساب اهل الفلا

يعني ابن حنزابة النسابة.

وأسود .. مشفره نصفـه يقال له : أنت بدر الدجى !
وشعر .. مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاً لـه ولكنه كان هجو الورى
وقد ضل قوم بأصنامهم وأما بزق رياح ، فـلا

وقوله عن فاتك :

بمصر ملوك لهم مـاله ولكنهم ما لهم همـه
فأجود من جودهم بخلـه وأحمد من حمدهم ذمـه
واشرف من عيشهم موتـه وانفع من وجدهم عدمـه
ومن ضاقت الأرض عن نفسه حرى ان يضيق بها جسمـه

وقوله يخاطب سيف الدولة مراسلا :

والمسمون بالأمير كثير والامير ، الذي بها ، المأمول
الذي زلت عنه شرقاً وغربـاً ونداه مقابلي مـا يـزول
ان تبوأت ، غير دنياي ، دارا وأتاني نيل ، فأنت المنيـل

وقوله كذلك

ومـا لاقني بلـد بعـدكـم ولا اعتضت من رب نعماي رب
ومن ركب الثور بعد الجوا د ، أنكر أظلافـه والغبـب
وما قست كـل ملوك البلاد فدع ذكر بعض ، بمن في حلب
ولو كنت سميتهـم باسـمه لـكان الحديد ، وكانوا الخشب

وما أنشده ابن العميد :

انا من جميع الناس أطيب منزلا وأسر راحلة ، وأربح متجرا
زحل – على ان الكواكب قومه – لو كان منك، لكان اكرم معشرا

وكذلك قوله فيه : خلق الله أفصح الناس طـراً في مـكان .. أعرابه أكراده
وأحـق الغيوث نفسـاً بحمـد في زمـان .. كل النفوس جراده

وقوله : فتى .. فاتت العدوى من الناس عينه فما أرمدت أجفانه كثرة الرمد
وخالفهم خلقاً ، وخلقاً، وموضعا فقد جل ان يعدى بشيء ، وان يعدي

ومن يك قلب ، كقلبي ، لـه ... يشقّ إلى العزّ قلب التوى
ولا بدّ للقلب من آلة ... ورأي ، يصدّع صمّ الصفا
وكلّ طريق أتاه الفتى ... على قدر الرجل فيه الخطا

وقوله في رثاء فاتك ، بعد رحيله عن الفسطاط :

تصفو الحياة لجاهل ، أو غافل ... عمّا مضى فيها ، وما يتوقّع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ... ويسومها طلب المحال ، فتطمع
المجد أخسر ، والمكارم ، صفقة ... من ان يعيش لها الهمام الأروع
والناس أنزل في زمانك منزلاً ... من أن تعايشهم ، وقدرك أرفع
قبحاً لوجهك يا زمان ، فانه ... وجه ، له من كل قبح برقع
أيموت مثل ابي شجاع فاتك ... ويعيش حاسده الخصي الأوكع ؟
أيد مقطّعة حوالي رأسه ... وقفاً يصيح بها : ألا من يصفع ؟

وقوله راثياً له أيضاً عام ٣٥٢ :

من لا تشابهه الاحياء في شيم ... أمسى تشابهه الاموات في الرمم
عدمته ، وكأني سرت أطلبه ... فما تزيدنيَ الدنيا على العدم
ما زلت أضحك ابلي كلما نظرت ... إلى من اختضبت اخفافها بدم
اسيرها بين اصنام اشاهدها ... ولا أشاهد فيها عفّة الصنم

* * *

هوّن على بصر ما شقّ منظره ... فانّما يقظات العين كالحلم
ولا تشكّ إلى خلق ، فتشمته ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تضمره ... ولا يغرّك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء ، فما تلقاه في عدة ... وأعوز الصدق ، في الاخبار والقسم

* * *

سبحان خالق نفسي كيف لذّتها ... فيما النفوس تراه غاية الألم

الدهر يعجب من حملي نوائبه وصبر نفسي على أحداثه الحطم
وقت يضيع ، وعمر .. ليت مدّته في غير أمّته . من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم ، وأتيناه على الهرم

وقوله ، وقد بلغه نعي أخت سيف الدولة الكبرى في الكوفة :

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب ؟
يظنّ انّ فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب
بلى ، وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد ، والقصّاد ، والادب
ومن مضت غير موروث خلائقها وان مضت يدها موروثة النشب
وهمّها في العلى والمجد ناشئة وهمّ اترابها في اللهو واللعب

* * *

وأنتم نفر تسخو نفوسكم بما يهبن : ولا يسخون بالسلب
حلّتم من ملوك الأرض كلهم محلّ سمر القنا من سائر القصب
فلا تنلك الليالي . ان ايديها إذا ضربن . كسرن النبع بالغرب
ولا يعنّ عدواً أنت قاهره فانهنّ يصدن الصقر بالخرب

وقوله . وقد أنفذ اليه سيف الدولة ابنه ومعه هديّة :

ليس الاك يا عليّ . همام سيفه ، دون عرضه . مسلول
كيف لا تأمن العراق ، ومصر وسراياك دونها ، والخيول ؟

* * *

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد ان يكون القفول ؟
وسوى الروم . خلف ظهرك،روم فعلى أي جانبيك تميل ؟
قعد الناس كلهم عن مساعيـ ـك ، وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

وقوله ، عام ٣٥٣ جواباً على رسالة :

أرى المسلمين مع المشركين   اما لعجز . وامّا رهب
وأنت مع الله في جانب   قليل الرقاد ، كثير التعب
كأنّك ـ وحدك ـ وحّدته   ودان البريّة بابن واب

وقوله لأبي الفوارس دلّير ، وقد جاء من بغداد لدفع غائلة الخارجي الذي نجم بالكوفة من بني كلاب :

أرادت كلاب ان تفوز بدولة   لمن تركت رعي الشويهات والابل!
أبى ربّها ان يترك الوحش وحدها   وان يؤمن الضبّ الخبيث من الأكل

وفيها سخرية بالغة بالثائرين هؤلاء . إذ كانوا بخروجهم إنما يعيثون في الأرض فساداً . ويظهر لي فيها لأول مرّة يأسه من قبائل عصره .

وقوله عام ٣٥٤ . لأبي الفضل ابن العميد :

من مبلغ الاعراب اني بعدها   جالست رسطاليس والاسكندرا
ومللت نحر عشارها ، فأضافني   من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه   متملّكاً . متبدّياً ، متحضّرا
ولقيت كل الفاضلين ، كأنما   ردّ الاله نفوسهم . والاعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب . مقدّما   وأتى ، فذلك إذ أتيت . مؤخرا

ولم يتواضع ابو الطيّب لأحد في شعره ما تواضع له . تأمل قوله له في النيروز :

نحن من أرض فارس في « سرور »   ذا الصباح (الذي نرى) ميلاده
عظّمته ممالك الفرس ، حتّى   كلّ أيام عامه حسّاده

تذكّر قوله يوم عيد الاضحى : هو الجدّ حتّى تفضل العين أختها ..

ما لبسنا فيه الاكاليل ، حتى   لبستها تلاعه .. ووهاده

عند من لا يقاس كسرى ابوسا سان ، ملكاً به ، ولا اولاده
عربيّ لسانه ، فلسفيّ رأيه ، فارسيّة أعياده
انّني أصيد البزاة ، ولكنّ أجلّ النجوم ، لا اصطاده

وقوله له مودّعاً :

فان يكن « المهدي » ، من بان هديه فهذا ، والا فالهدى ذا ، فما المهدي ؟
يعلّلنا هذا الزمان .. بذا الوعد ويخدع عمّا في يديه من النقد
هل الخير شيء ، ليس بالخير ، غائب ؟ ام الرشد شيء ، غائب ، ليس بالرشد ؟

فهذا رأيه في المهدي المنتظر ، الذي كانت تتحول اليه — ساعتها — آمال الكوفيين ، لأجل الخلاص . آما المهدى بن الحسن الامام (كان مولده عام ٢٥٦) فقد احتجب عن أنظار الشيعة غبّ وفاة والده ، وعمره آنذاك اربع سنوات . (*)

* لما كان القرن الرابع الهجري واستولى الحمدانيون على الجزيرة وحلب ، جعلوا من هذه الربوع منابر لمدح أهل البيت ومنائر للمطالبة بالثأر ، فهم شيعة كلهم ، وشعراؤهم حشدوا قواهم لمدح الشيعة والتفجع لماضيهم ولما حل بهم ، فيهم كشاجم ، والسري الرفاء ، والوأواء الدمشقي ، وابو فراس الحمداني ، والصنوبري ، والخالديان ، ودواوينهم تغص بهذا المدح وتمتليء بهجاء العباسيين ، ترد على شعرائهم وتناقض قصائدهم ، ثم تنثيء في مدح الأئمة والاستشفاع بهم عند الله . راجع « المديح » من فنون الادب العربي ، مطبوعات دار المعارف بمصر .
فمما نظم ابو فراس الحمداني (وهو ناشئ) قوله في أسمائهم :

شافعي احمد النبي ، ومولاي علي ، والبنت ، والسبطان
وعلي ، وباقر العلم ، والصادق ، ثم الامين ذو التبيان
وعلي ، محمد بن علي ، وعلي ، والعسكري الداني
والامام المهدي .. في يوم لا ينفع إلا غفران ذي الغفران

* * *

وما أنشده عضد الدولة :

هو النفيس .. الذي مواهبه أنفس أمواله وأسناها

وكذلك قوله فيه : فان الناس ، والدنيا ، طريق إلى من ما له في الناس ثان
لقد علمت نفسي القول فيهم كتعليم الطراد بلا سنان
ولولا كونكم في الناس ، كانوا هراء ، كالكلام بلا معان

وقوله لعضد الدولة :

وقد رأيت الملوك قاطبـــة وسرت حتى رأيت مولاهـا

قال ابن جنّي : بلغني ان سيف الدولة قال لما سمع هذا البيت : ترى نحن في الجملة ؟

ومن منـاياهم براحتـــه، يأمرهـا فيهم وينهاهـــا
أبا شجاع بفارس ، عضد الدولة ، فنّاخسرو ، شهنشاهـــا
أساميا لم تزده معرفـــة وانّمـا لذّة ذكرناهـــا

° ° °

دان له شرقهـا ومغربهـا ونفسه تستقلّ دنياهـــا
تجمّعت في فؤاده هـمـم ملء فؤاد الزمان احداهـــا

وينتقل المتنبي بعد هذا البيت إلى معنى غريب . هو ما كان يساور ممدوحه العظيم من رغبة ملكية ساسانية لتحقيق وحدة كبرى تلمّ أطراف هذه الدول المترامية . اسمعه يقول :

فأن أتى حظّهـا بأزمنـــة أوسع من ذا الزمان أبداهـا

الضمير في حظّها للهمم .

وقوله : فوق السماء ، وفوق ما طلبـــوا فـاذا أرادوا غـاية .. نزلوا

وقوله : يا « عضد » الدولة ! من « ركنهـا » ابـوه ، والقلب أبو لبـه
ومـن بنـوه زين آبائـــه كأنهـا النور عـلى قضبـه
فخراً لـدهر أنت من أهلـه ومنجب أصبحت من عقبــه
ولم أقل « مثلك » ، أعني بـه « سواك » ، يا فرداً بلا مشبـه

وقوله : ومن أعتاض عنك إذا افترقنـــا وكل النـاس زور ، ما خلاكا

وقوله : أروح وقد ختمت عـلى فـؤادي بحبك ان يحـل بـه سـواكا
أتتركني ، وعين الشمس نعلـي فتقطـع مشيّي فيهـا الشراكا ؟

وهنا أيضاً يعكس ، فقد أراد ان يقول أأتركك ؟ تذكر الشاهدين السابقين .

وصارت الفيلقان واحدة تعثر أحياؤها بموتاها
ودارت النيّرات في فلك تسجد أقمارها لأبهاها

ثم يعود إلى حديثه عن الناس :

الناس كالعابدين آلهة وعبده كالموحّد اللها

وقوله له :

أروض الناس من ترب وخوف وأرض أبي شجاع من أمان
يذمّ على اللصوص لكل تجر ويضمن للصوارم كلّ جان

وقوله له :

ما كانت « الطرم » في عجاجتها إلاّ بعيراً ، أضلّه ناشد

و « الطرم » ناحية وهشوذان الثائر .

تسأل أهل القلاع عن ملك قد مسخته نعامة شارد

والملك الممسوخ هنا هو وهشوذان :

ماذا على من أتى يحاربكم (فذمّ ما اختار) ، لو أتى وافد؟
بلا سلاح .. سوى رجائكم ففاز بالنصر ، وانثنى راشد ؟
يقارع الدهر من يقارعكم على مكان المسود .. والسائد

وقوله له في رثاء عمّته التي توفيت ببغداد :

لو درت الدنيا بما عنده لاستحيت الايام من عتبه
لعلّها تحسب ان الذي ليس لديه ، ليس من حزبه ؟
وانّ من بغداد دار له ليس مقيماً في ذرى عضبه ؟
أخاف ان تفطن اعداؤه فيجفلوا — خوفاً — إلى قربه

وقوله له يودّعه ، وهو آخر شعر قاله — وقد تمثّل فيها كلّ

أنواع الملوك :

فدى لك من يقصّر عن مداكـا ... فلا ملك اذن الا فـدا كـا
ولو قلنا : فدى لك من يسـاوي ... دعونـا بالبقـاء لمـن قلاكـا
وآمنّـا فـداءك كلّ نفـس ... ولو كـانت لمملكـة ملاكـا
ومن يظّنّ نثر الحب جـودا ... وينصب تحت مـا نثر الشباكـا

يعرّض بكافور :

ومن بلـغ الحضيض به كراه ... وان بلغت بـه الحـال السكاكـا

يعرّض بمن في بغداد :

فلو كـانت قـلوبهم صديقـاً ... لقد كانت خلائقهم عـداكـا

فهو قد انتهى — كما ترى — في صفات الملوك إلى « الخلائق » . التي هي في بناء الممالك أصل كل شيء . تذكر قوله لسيف الدولة عام ٣٤٣ : لاقتضته الشمائل .

ويروون — بعد — انه وجدت له قصيدتان في رحله لما قتل(١) . في احداهما قوله :

صحبت ملوك الارض مغتبطاً بهم ... وفارقتهم ملآن من حنق صـدرا

والقصيدتان في الجملة موضع الشكّ عندنا — تاريخياً — ويعوزهما التمحيص .

* * *

فهذا استعراض شامل ، على ضوء المكرّر من شعر المتنبي ، في

١ مما وجد في المخطوطة :

ومصر لعمري اهل كل عجيبة ... ولا مثل ذا المخصي اعجوبة بكرا
يعد ، إذا عد العجائب ، أولا ... كما يبتدا في العد بالاصبع الصغرى

موضوع سواسية الناس ، واندثار الهمم ، وماذا كان يتطلّع اليه من الملوك .. وفيهم . ويتبيّن منه بوضوح انه كان يقسم الناس كلّهم إلى طبقات ثلاث . فأمّا السواد وهم الذين قال فيهم ابو تمام :

ان شئت أن يسودّ ظنّك كلّـــه   فأجله في هــذا السواد الاعظم

فقد كان يعتبرهم صفراً على اليسار ، ولا قيمة لهذا الصفر إلا إذا حوّل بمعجزة إلى اليمين ، فهم الطبقة الدنيا عنده . ويجعل لسراة القوم (وهم الملوك بلغة عصره) المقام الأول في الطبقة العليا ، في اصلاح شؤون العامة وتنظيم أحوالهم . ويشيد بين هاتين الطبقتين — في الطبقة الوسطى — بكل فتى سَميذع .. تأمّل قوله :

وأهوى من الفتيـان كل سميذع   نجيب كصدر السمهريّ المقـوّم
خطت تحته العيس الفلاة ، وخالطت   به الخيل كبّات الخميس العرمرم
ولا عفّــة في سـيفه وسنانــه   ولكنّهـا في الكفّ والفرج والفم

.. من الفتيان الذين يعوّل السراة على أمثالهم في تحقيق الاهــداف البعيدة ، وقد أشار إلى رفقتهم أكثر من مرّة .

في خروجه من مصر مثلاً :

في غلمة .. أخطروا أرواحهم ، ورضوا
بمـا لقـين ، رضى الأيســار بالزلم
تبدو لنا ، كلّما ألقوا عمائمهـــم   عمائم خلقت سوداً ، بـلا لُثم
بيض العوارض ، طعّانون من لحقـوا   من الفوارس ، شلاّلون للنعـــم
قد بلّغوا بقناهم فوق طــاقتـــه   وليس يبلغ ما فيهما مـن الهمـم
في الجـاهليّة .. الا ان أنفسـهم   من طيبهنّ به ، في الأشهر الحـرم

وفي سيره إلى شيراز :

تبدّل أيّامي وعيشي ومنزلــي   نجائب ، لا يفكرن في النحس والسعد

وأوجه فتيان .. حياء تلثّموا عليهنّ . لا خوفاً من الحرّ والبرد
إذا لم تجزهم دار قوم . مودّةً أجاز القنا — والخوف خير من الودّ
يحيدون عن هزل الملوك إلى الذي توفّر . من بين الملوك ، على الجدّ

فهذه معان نشأ عليها منذ صباه .

والذي صدمه من أمر هؤلاء الملوك انه وجدهم لا خلاق لهم . يعيشون لملذّاتهم بالليل .. ودسائسهم في النهار ، باستثناء عضد الدولة الذي تراءى له عنده بواكير العالم الأمثل — ممّا كان يحلم هو بضمّ شمله ولمّ شتاته ، وان تضبط مقاليده قبضة واحدة — لو كانت يده عربيّة (١) . أمّا أمير آل حمدان البطل العربي . فقد ظلّ يشاكسه الزمان ، بين دفع غائلة الروم وقمع ثورات القبائل وتنكّب مؤامرات الممالك المجاورة . فلم يمهله حتى يتنفّس الصعداء (٢) ... إلى ان فرطت المسألة من أيدي العرب .. بالتدريج ، فأخذوا مكانهم — قابعين — في ركن مظلم من التاريخ ... حتى فجر الامس القريب .

وما أشبه حالنا اليوم . بما كان عليه حال القوم ، قبل ألف عام .

يتبيّن لنا من هذا الاستعراض بوضوح — اذن — كيف كان ينظر

---

١ قال الدكتور فيليب حتّي في تاريخه المطول :

بلغ عز بني بويه أوجه في زمن عضد الدولة (٩٤٩ — ٨٣) ابن ركن الدولة . ولم يكن عضد الدولة هذا أعظم امراء بني بويه فحسب بل كان ألمع امراء عصره على الاطلاق . فقد وحد سنة ٩٧٧ الدويلات الصغيرة التي كانت قد ظهرت في فارس والعراق في ظل البويهيين فأنشأ امبراطورية قاربت في اتساعها ما كان لهارون الرشيد . وتزوج من ابنة الخليفة الطائع وزوج الخليفة من بنته (٩٨٠) وهو يأمل بذلك ان تؤول الخلافة إلى أحد ذريته . وكان عضد الدولة أول حاكم في الاسلام لقب بشاهنشاه (ومعناها « ملك الملوك » اتباعاً للقب الملكي الايراني القديم) . وكان من أبنيته الرائعة التي شادها في العراق مشهد الامام علي . راجع « تاريخ العرب » لحتّي .

٢ توفي سيف الدولة عام ٣٥٦ (بعد عامين من مقتل المتنبي) ، وتوفي عضد الدولة عام ٣٧٢ .

المتنبي إلى جمهرة الناس .. وإلى سراتهم من الملوك .. وماذا ظلّ يترجّى على يد هؤلاء الملوك ، والامَ انتهى أمره معهم أخيراً بعد التجارب القاسية من جهاده المضني ...

وحيداً من الخلاّن في كل بلدة إذا عظم المطلوب ، قلّ المساعد

وهو في كلّ هذا لم يخرج عن النظرة العربيّة (١) ، وكما سبق ان جاهر بها شاعرهم اللوذعي ... أيام الجاهلية ... الأفوه الاودي :

البيت لا يبتنى الا له عمد ولا عماد ، إذا لم ترس اوتاد
فان تَجمّع اوتاد وأعمدة وساكن ، بلغوا الأمر الذي كادوا
لا يصلح الناس فوضى ، لا سراة لهم ولا سراة ، إذا جهّالهم سادوا
تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فان تولّت ، فبالأشرار تنقاد
إذا تولّى سراة الناس أمرهم نما على ذاك امر القوم ، فازدادوا

فذلك هو دلالة المكرّر من شعر المتنبي في كلّ هذه الشؤون .

وقد أوردنا هذه الشواهد منسّقة بحسب أطوار عمره في مدى ثلاثة واربعين عاماً من حياته العملية .. منذ صباه ، فرأينا كيف كانت تتطور نظراته في هذه الشؤون ... على توالي السنين . ولقد بلغ من عظم هذا الرجل ان الذين سهروا على شعره ، أصبح عندهم – لصدق نظره وثاقب رأيه – أوّله وآخره في المقام سواء .

---

١ راجع قوله لسيف الدولة عام ٣٤٣ (عام ائتلاف القبائل) : وكل أنابيب القنا مدد له ...

الباب السادس

ملك بين الملوك

والآن وقد تثبّت لدينا ان الخلائق عند المتنبي مردهم كلهم إلى ثلاث طبقات ، كان هو يحشر في قمّتها الملوك ؛ ويعتبر السواد الأعظم هم الطبقة الدنيا الذين لا يسمون بمعانيهم عن البهائم كثيراً ، ويرى بين الطبقتين مكاناً لطبقة فضلى هي التي عمادها كل سميذع من الفتيان ، فقد بقي ان نسأل : في أي طبقة كان يضع المتنبي نفسه ؟ لأن في هذا السؤال كشفاً عن نواحي غامضة من شعره ، ستبقى غامضة على النقد ما لم نجب عليه .

ولا اودّ ان يتقوّل أحدنا بجواب ربما اعتبره بعضهم في هذا المقام فرضاً لرأي غير موطّد أو افتراضاً لنظرية خياليّة ، وإنما سأسوق الشواهد التي لها صلة بالموضوع لعلها تعين القارئ على الاجابة ، ثم اترك له الخيار في ان يجيب على السؤال بنفسه .. غير حائر ولا مرتاب .

فأمّا احتقاره للناس وعدم مبالاته بهم فيظهر بأجلى صورة في حكاية

ابي بكر الخوارزمي عن مجلسه ، والتي يذهب معظم الادباء في تأويلها مذهباً يختلف عن مذهبنا ، إذ وجدوا فيها تأييداً لبخله ، بينما نجد فيها تعليلاً لازدرائه بعض من كانوا يحضرون مجلسه وانصرافه عنهم بوجهه . قال ابو بكر :

كان ابو الطيب المتنبي قاعداً تحت قول الشاعر :

وانّ احقّ الناس باللوم ، شاعر يلوم على البخل الرجال ، ويبخل

وانما أعرب عن عادته وطريقته في قوله :

بليت بلى الاطلال ، ان لم اقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

حضرت عنده يوماً في مجلسه بحلب ، وقد أحضر مالاً بين يديه من صلات سيف الدولة على حصير قد فرشه ، فوزن وأعيد إلى الكيس . وتخلّلت قطعة كأصغر ما يكون بين خلال الحصير ، فأكبّ عليها بمجامعه ، ليستنقذها منه، واشتغل عن جلسائه ، حتّى توصّل إلى اظهارها ، وأنشد قول قيس بن الحطيم :

تبدّت لنا كالشمس ، تحت غمامة بدا حاجب منها ، وضنّت بحاجب

ثم استخرجها ، فقال له بعض جلسائه : أما يكفيك ما في هذه الأكياس ، حتّى أدميت اصبعك لأجل هذه القطعة؟ فقال : انها تحضر المائدة .

ألا تذكّرك الحادثة بقوله :

وربما اشهد الطعام معي من لا يساوي الخبز الذي اكله ؟

وامّا بالنسبة إلى الملوك فمن الخير ان نقتصر في الشواهد على العام الاخير من حياته ابتغاء التأويل . ففي صفر من هذا العام توجه الشاعر

من بغداد ، عن طريق الاهواز ، تلبية لدعوة ابن العميد ، وبلغ أرّجان في الشهر نفسه . وتقول رواية علي بن حمزة البصري :

« كنت مع المتنبي لما ورد ارّجان ، فلما أشرف عليها وجدها ضيّقة البقعة والدور والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال : تركت ملوك الأرض يتعبّدون بي وقصدت ربّ هذه المدرة . فما يكون منه ؟ ثم وقف بظاهر المدينة ، وأرسل غلاماً على راحلته إلى ابن العميد ، فدخل عليه وقال : مولاي ابو الطّيب خارج البلد . وكان وقت القيلولة وهو مضطجع في دسته ، فثار من مضجعه واستثبته ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب واستركب من لقيه في الطريق . ففصل عن البلد بجمع كثير فتلقّوه ، وقضوا حقّه ، وأدخلوه البلد . فدخل على ابي الفضل ؛ فقام له من الدست قياماً مستوياً ؛ وطُرح له كرسي عليه وسادة ديباج ، وقال ابو الفضل : كنت مشتاقاً اليك يا ابا الطّيب ! »

ففي هذه الرواية ترى كيف كانت منزلته بين ملوك عصره .

ولبث ابو الطيب شهرين عند ابن العميد . فتقول الرواية :

« ولما ودّع ابن العميد ... ورد كتاب عضد الدولة يستدعيه . فعرّفه ابن العميد ، فقال : مالي وللديلم ؟ فقال ابو الفضل : عضد الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعاف ما وصلتك به . فأجاب : انّي ملقّى من هؤلاء الملوك ، اقصد الواحد بعد الواحد ، واملّكهم شيئاً يبقى ببقاء النيّرين ، ويعطونني عرضاً فانياً . ولي ضجرات واختيارات ، فيعوقونني عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه . فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث ،

فورد الجواب بأنه مملّك مراده في المقام والظعن . »

تأمّل هنا قوله « لي ضجرات واختيارات » ، وهل لمن يستجدي بالمديح ويستكدي العطاء ضجرات واختيارات ؟ الا ان تكون له الخيرة في أمره مثل الممدوحين ؟

وسار من أرّجان ، فيجيء في رواية أخرى :

« فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ (اخي صاحب كتاب حدائق الآداب) ، فلما تلاقيا وتسايرا استنشده ، فقال المتنبي : الناس يتناشدونه ، فاسمعه . فأخبر ابو عمر انه رسم له ذلك عن المجلس العالي ، فبدأ بقصيدته التي فارق مصر بها :

الا كلّ ماشية الخيزلى ... فدى كلّ ماشية الهيدبى

ثم دخل البلد ، فأنزل داراً مفروشة ، ورجع ابو عمر إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وانشده أبياتاً من المقصورة :

فلما انخنا ركزنا الرماح ... بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبّل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ... ومن بالعواصم ، انّي الفتى
وانّي وفيت ، واني أبيْت ... وانّي عتوت على من عتا

فقال عضد الدولة : هو ذا يهدّدنا المتنبي ! »

تأمّل هذا الاهتمام الكبير من عضد الدولة بشاعر يفد عليه ، ثم تأمّل أي أبيات من شعره كلّه يختارها هذا الشاعر للانشاد ، عندما

يستنشد برسم المجلس العالي . وتمضي الرواية :

« ثم لما نفض غبار السفر واستراح ركب إلى عضد الدولة ، فلما توسّط الدار انتهى إلى قرب السرير مصادمة، فقبّل الارض واستوى قائماً ، وقال : شكرت مطيّة حملتني اليك ، وأملاً وقف بي عليك . ثم سأله عضد الدولة عن سيره من مصر ، وعن علي بن حمدان ، فذكره .. وانصرف . »

وليس في قيامه المذكور ولا في حديثه شيء جديد علينا ، فقد قال لكافور أيضاً كما تذكر :

فزارك منّي من اليك اشتياقه   وفي الناس ، الا فيك وحدك ، زهده

وأخيراً تنقل الرواية عن عبد العزيز بن يوسف الجرجاني ، كاتب الانشاء عند عضد الدولة (وكان أثيراً عنده) قوله :

« لما دخل ابو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه ، وقال له سله : كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الامراء الذين لقيهم منا ؟ قال : فامتثلت أمره ، وجاريت المتنبي في هذا الميدان وأطلت معه عنان القول . فكان جوابه عن جميع ما سمع مني ان قال : ما خدمت عيناي قلبي كاليوم ! »

وقد رأى كاتب الانشاء هذا في قوله اختصاراً للفظ واطالة للمعنى ، أما نحن فنرى فيه شيئاً أعمق هو التفسير العملي لقوله له عند الوداع :

فلو كانت قلوبهم صديقاً   لقد كانت خلائقهم عداكا

تأكيداً لمعنى « الخلائق » والمؤهلات الملكية فيه . وماذا كان يهم

عضد الدولة من رأي شاعر زاره في مجلسه ، لولا انه تلمّس عنده غير ما يتوقّع الناس من التزلّف المعتاد ، لأنه قد كان ممن يعتزّ برأيه الملوك .

فهذا ما بدر منه عام مقتله ، وهو أبعد ما يكون عهداً بالثورة أو الدعوة لها .

* * *

ولم يكن عضد الدولة هو الوحيد في الاهتمام بأمر المتنبي بين الملوك ، فقد رأينا كيف كان سيف الدولة يتتبّع أقواله – بعد مفارقته إياه – في كل شعر جديد يصدر عنه ، ويقيم له وزناً غير قليل في نفسه ، بما قدّمنا من توقيعاته على تلك الاقوال (١) .

حتّى الذين لم يتّصل هو مباشرة بهم من الملوك كانوا يظهرون مثل هذا الاهتمام بشأنه ، وما يفضي اليه أمره . فمما رواه ابو علي الحاتمي ، على اثر المناظرة التي جرت له مع المتنبي في بغداد :

« وتشاغلت بقيّة يومي – بشغل عنّ لي – عن حضرة الوزير المهلبي ، وانتهى اليه الخبر ، فأتتني رسله ليلاً ، فسرت اليه وقصصت عليه القصة بتمامها ، فحصل له من السرور والابتهاج بما جرى ما بعثه على مباكرة معز الدولة ، وأخبره بكل ما أخبرته . وأخبرني الرئيس ابو القاسم محمد ابن العباس انه بمجرد دخوله على معز الدولة قال : أعلمت ما كان من ابي علي الحاتمي والمتنبي ؟ فانه شفى منه صدرا . »

فلماذا هذه العداوة الصريحة من وزير وملك (المفروض ان يكون مقامهما ارفع) لانسان رعيّة لم يسئ اليهما من بعيد ولا قريب ؟ لولا

---

١ راجع الفصل السابق .

ان هناك — مع الكفاء — تخالفاً بين الجانبين في الأرواح ، وتنافراً في الصفات ؟

ثم ان المتنبي عوضاً عن ان يتحمّل منّة ممدوحيه من الملوك ويعترف لهم بالاريحية كان يرفع قدر نفسه وشعره وكان يمنّ بهذا الشعر على الممدوحين . قال ابن جنّي (الشارح كما سمّاه) :

« كنت قرأت ديوان المتنبي عليه ، فلما وصلت إلى قوله (القصيدة) :

اغالب فيك الشوق ، والشوق اغلب ... واعجب من ذا الهجر ، والوصل اعجب

فلما انتهيت إلى قوله :

لحا الله ذي الدنيا مناخاً لراكب ... فكلّ بعيد الهمّ فيها معذّب
ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ... ولا اشتكي فيها ، ولا اتعتّب
وبي ما يذود الشعر عني أقلّه ... ولكنّ قلبي يا ابنة القوم ! قلّب
واخلاق كافور — إذا شئت مدحه ... وان لم أشأ — تملي عليّ وأكتب
إذا ترك الانسان أهلاً وراءه ... ويمّم كافوراً ، فما يتغرّب

فقلت له : يعزّ عليّ ان يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة . فقال : حذّرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحذر ، ألست القائل فيه :

أخا الجود ! أعط الناس ما أنت مالك
ولا تعطينّ الناس ما أنا قائل

فهو الذي اعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلّة تمييزه » .

ولماذا كلّ هذا الاهتمام بسيف الدولة ما دام هناك ملوك آخرون لا يبخلون عليه بالعطايا ؟ لولا انه كان يتطلّب في الملوك الذين يعايشهم

ويعاشرهم – لا منهم فحسب – شيئاً أكثر من المـال .. هو الخلق الملكي .

فهذا الخلق الملكي هو الذي جعله يتذكّر سيف الدولة دائماً ، إذ ما زال بعد مفارقته له يعرّض بمدحه تارة ويصرّح أخرى ؛ كما في قوله أول وفوده على كافور :

فراق ، ومن فارقت غير مذمّم . . . .

وقوله من أخرى ، بعد أن تبرّم بالمقام عند كافور :

عشيّة احفى الناس بي من جفوتـه وأهـدى الطريقين الذي اتجنّب

حتّى انتهى به التبرّم والضجر إلى الخروج من مصر ، بعد مقـام اربع سنوات فيها ، هارباً على وجهه ، ساخطـاً من نفسه ومن الناس ، برماً بالحياة كلها .

أما يتسنى لنا من كل هذا ان نجيب على السؤال : في أي طبقة كان يضع المتنبي نفسه ؟

* * *

وإذا كنا بعد كل هذا لا زلنا في شك من أمر هذا الشاعر فلنصخ بأذن واعية إلى هذه اللهجة المدلّة الـتي كان يخاطب بها المتنبي – أحياناً – ملوك عصره ، ولنستبصر بهـا في الظلمات . في مثل عتبـه علـى أبي العشائر :

وكل وداد لا يـدوم على الأذى – دوام ودادي للحسين – ضعيف
فان يكن الفعل الذي ساء واحـداً فأفعـاله اللائي سـررن ألوف

وتحفيزه لسيف الدولة :

قصدنا له ، قصـد الحبيب لقاؤه الينا ؛ وقلنـا للسيوف : هلمّنا !
وخيل حشوناها الأسنّة ، بعدمـا تكدّسن من هنّا علينا . ومن هنّا

ضربن الينا بالسياط جهالة فلمّا تعارفنا ، ضربن بها عنّا

وتحريره له من الكوفة :

لست أرضى بأن تكون جوادا وزماني – بأن أراك – بخيل
نغّص البعد عنك قرب العطايا مرتعي مخصب ، وجسمي هزيل

ومصارحته لكافور الاخشيدي :

أنت الحبيب ، ولكني اعوذ به من ان أكون محبّاً غير محبوب

وتهنئته له :

وانا منك .. لا يهنئ عضو بالمسرات سائر الاعضاء

ومناشدته له :

وما شئت الا ان ادلّ عواذلي على انّ رأيي في هواك صواب
واعلم قوماً خالفوني فشرّقوا وغرّبت ، أنّي قد ظفرت، وخابوا

وتقديره لأبي شجاع فاتك الأخشيدى :

وما شكرت لأن المال فرّحني سيّان عندي اكثار واقلال
لكن رأيت قبيحاً ان يجاد لنا وانّنا بقضاء الحقّ بخّال

وتشوقه لابن العميد :

أرجان أيتها الجياد ! فانه عزمي الذي يذر الوشيج مكسّرا
صغت السوار لأيّ كف بشّرت بابن العميد ، وأيّ عبد كبّرا

وتذكيره له مودّعاً :

تفضّلت الايام بالجمع بيننا فلما حمدنا ، لم تدمنا على الحمد
جعلن وداعي واحداً لثلاثة جمالك ، والعلم المبرح ، والمجد

وتأكيده لعضد الدولة آخر ما أنشد :

أروح وقد ختمت على فؤادي   بحبّك ان يحلّ به سواكا
وقد حمّلتني شكراً طويلاً   ثقيلاً لا اطيق بـه حراكا
أحاذر ان يشقّ على المطايا   فلا تمشي بنا الا سواكا
لعلّ الله يجعله رحيلاً   يعين على الاقامة في ذراكا

لم يفت صاحب « اليتيمة » ان يرى من بدائع ابي الطيب مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب مع الاحسان والابداع ، فقال : وهو مذهب له تفرّد به واستكثر من سلوكه اقتداراً منه ... ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء ، وتدرجاً لها إلى مماثلة الملوك ، كقوله :

وما أنا بالباغي على الحبّ رشوة   ضعيف هوى يبغي عليه ثواب

إلى آخر ما قال .

وهذه من اللمح (١) التي اشرنا اليها ، وفاتت الناس دلالتها .

والمتنبي كان يصارح الملوك بما يعلم من نفسه دون تلكّوء . في كلّ فرصة مؤاتية . فهو قد قال لأبي العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ   ـظ ، كلانا ربّ المعاني الدقاق
لم تزل تسمع « المديح » ولكـ   ـنّ صهيل الجياد غير النهاق

ولسيف الدولة :

أينكر ريح الليث حتى يذوقه   وقد عرفت ريح الليوث البهائم
لك الحمد في الدّر الذي لي لفظه   فانّك معطيه ، واني ناظم

١ حدث اسحق الموصلي قال : قرأت على الاصمعي شعر امرىء القيس ، فلما بلغت إلى هذا البيت :

أمن اجل اعرابية – حل أهلها   بروض الشرى – عيناك تبتدران ؟

فقال لي : أتعرف في هذا البيت خبئاً باطناً غير ظاهر ؟ قلت : لا ! فسكت عني .
فقلت : ان كان فيه شيء فأفدنيه . قال : نعم ، أما يدلك البيت على انه لفظ ملك مستهين ذي قدرة على ما يريد ؟ قال اسحق : وما رأيت قط مثل الاصمعي في العلم بالشعر .

ولكافور :

فارم بي ما اردت مني ، فـانـّـي أسد القلب ، آدميّ الـــرواء
وفؤادي من المـلوك ، وان كـا ن لساني يرى من الشعراء (١)

أليس في هذا مقنع ان المتنبي كان يرى نفسه من طبقة الملوك ؟

* * *

وهو ما كان يرى نفسه من طبقة الملوك فحسب ، بل كان يعتبر نفسه أكبر من كثير منهم ، واليك البيان :

كان المتنبي يتحلّى بخصال هي الزم مـا تكون للملوك والزعماء ، في كلّ عصر وزمـان ، مهما اختلفت العصور والازمنة ، من علوّ الذمّة .

---

١ قيل للمتنبي ، قولك في كافور :

فارم بي مـا اردت مني ، فانـي اسـد القلب آدمـي الرواء
وفؤادي من الملوك ، وان كا ن لساني يرى من الشـعراء

ليس قول ممتدح ولا منتجع ، إنما هو قول مضاد . فأجاب المتنبي ... إلى ان قال : هذه القلوب كما سمعت ، احدها يقول :

يقر بعيني ان أرى قصد القنـا وصرعى رجال من وغى انا حاضره

وأحدها يقول : يقر بعيني ان ارى من مكانهـا ذرا عقدات الاجرع المتقـاود

وروي انه تذوكر يوماً في حضرة السلطان ابي عبد الله أمير المسلمين بالاندلس تباين قول المتنبي :

أيا خـدد الله ورد الخـدود وقـد قـدود الحسان القـدود

وقول امرئ القيس :

وان كنت قد ساءتك مي خليقـة فسلي ثيـابي من ثيابك تنسـل

وقول ابراهيم بن سهل :

اني له عن دمي المسفوك معتـذر أقول : حملتـه من سفكه تعبـا

قال الامير : بينهم ما بين نفس ملك عربي ، وشاعر عربي ، ونفس يهودي تحت الذمة ، وانمـا تتنفس النفوس بقدر همها .

أهمّ بشيء ، والليالي كأنها ... تطاردني عن كونه واطارد
وحيد من الخلان في كل بلدةٍ ... إذا عظم المطلوب ، قلّ المساعد

وكبرياء النفس :

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها ... لقد ولدت منّي لآنفهم رغما
تغرّب .. لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

والاعتداد بالقلب :

ومهمه جُبته على قدمي ... تعجز عنه العرامس الذلل
بصارمي مرتد ، بمخبرتي ... مجتزئ ، بالظلام مشتمل
إذا صديق نكرت جانبه ... لم تعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطرب ... وفي بلاد من اختها بدل

وعدم المبالاة :

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسّرت النصال على النصال
وهان .. فما أبالي بالرزايا ... لأنّي ما انتفعت بأن أبالي

وكان لا يقصر عنهم إلا في المال ، لأنّه نشأ فقيراً لا يمتلك المال :

لا ناقتي تقبل الرديف ، ولا ... بالسوط يوم الرهان اجهدها
شراكها كورها ، ومشفرها ... زمامها ، والشسوع مقودها
أشدّ عصف الرياح ، يسبقه ... — تحتي من خطوها — تأوّدها

ويُدل عليهم بالوفاء :

أقل اشتياقاً أيها القلب ! ربما ... رأيتك تصفي الود من ليس صافيا
خُلقت ألوفاً ، لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وكان المتنبي يزيد على الملوك بعد ذلك في صدق القول وطهارة الذيل . فهو قد عاش صادقاً عفيفاً ما زنى قط ، ولا كذب قط . وكان أشد شيء وقعاً على نفسه ونكراً عناه من صادفه من الملوك تنقصه احدى هاتين الصفتين . ولذلك هو هجا كافور بعد ان مدحه مستبشراً ، لأنه لم يكن صادقاً فيفي له بوعده . كما ترفّع عن مدح الوزير المهلبي لأنه وجده متمادياً في السخف ، مستهتراً بالهزل ، يستولي أهل الخلاعة عليه .

وهذا الاعتزاز بنفسه وطهارة ذيله هو الذي جعله يصرخ مرّة في وجه سيف الدولة (١) في محفل حاشد (حامت بين رجاله التهم حوله ، وقد لاكتها ألسن السوء ، فكانت سيوفهم مشرعة عليه) ، ويقول بكل اطمئنان :

كم تطلبون لنا عيباً ، فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي انا الثريّا ، وذان .. الشيب والهرم

فقد جعل العيب بعيداً عنه بعد الشيب عن النجم .

° ° °

ولعله قد لا يخلو من المتعة ان نستوفي بحثنا هنا بالحديث عن عفّته . فان هذه العفّة تكاد تعلن عن نفسها في كل صفحة من الديوان . تأمّل قوله :

عواذل ذات الخال فيّ حواسد وانّ ضجيع الخود مني لماجد
يردّ يداً عن ثوبها ، وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها ، وهو راقد

يرد يداً عن ثوبها ...

متى يشتفي من لاعج الشوق في الحشا محبّ ، لها في قربه متباعد ؟
إذا كنت تخشى العار في كلّ خلوة فلم تتصبّاك الحسان الخرائد ؟

١ راجع « المتنبي بين شراحه وناقديه » .

والمتنبي يكرّر هذا المعنى عن نفسه في عدّة مواضع ، حتّى في قوله المكشوف :

انّي على شغفي بمـا في خمرهـا لأعفّ عما في سراويلاتها (كذا)

رواية الصاحب . ويقول الصاحب معلّقاً :

« كانت الشعراء تصف المـآزر ، تنزيهاً لألفاظها عمـا يستشنع ذكره ، حتّى تخطّى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح الذي لم يهتد اليه غيره ... وكثير من العهر احسن من هذا العفاف » .

هذا ما قاله الصاحب « الطاهر الذيل » ، أما أنا فأقول : مهما أنكر عليه الناقدون هذا البيت ، فهو لم يأتِ فيه إلا بما يقوله كل ماجد مثله . تأمّل قول الشريف الرضي ، وهو من تعلم عفّة نفس :

احنّ إلى ما تضمن الخُمر والحلا وأصدف عمّا في ضمان المـــآزر

هل تعدّى مضمونه أو فحواه ؟

وكذلك قول المتنبي :

يترشّفن من فمي رشفـات هنّ فيه أحلى من التوحيـد

فقد خبط الشارحون خبط عشواء في تفسير هذا البيت . فزعم بعضهم انه نوع من التمر ، وذهب آخرون إلى انهـا كلمة الشهادة ، ثم لم يحجموا عن رميه بالالحاد . والمسألة أبسط من هذا كلّه ، فكلّ ما هنالك ان المتنبي — تمسّكاً بخُلقه — يصرّح ان القبل هي الحد الفاصل لاستمتاعه بالحبيب ، فهو لا يتجاوز القبل إلى التمادي في الاتصال ، ولا يجد مطلقاً تلك اللذة في « التوحيد» الذي يشرحه قول أحد شعراء الشباب المعاصرين :

أجب يا سراج ! إذا ما سئلت فما كان غيرك من شاهد
سهرت على اثنين قبل العناق وبعد العناق على واحد

فالمتنبي لا يطيب له الا ان يقف دون التعانق .

دون التعانق ناحلين ، كشكلتي نصب ادقّهما ، وضمّ .. الشاكل

ونفس هذه العفّة يراها منعكسة فيها :

بيضاء .. تُطمع فيما تحت حلّتها وعزّ ذلك مطلوباً إذا طلبا

أما القبل فشأنها هيّن ، فهو يقول عنها :

قبّلتها ودموعي مزج أدمعها وقبّلتني – على خوف – فماً لفم

فليس حكم هذه القبل الا حكم الشباب واللهو عنده :

للّهو آونة تمرّ .. كأنّها قبلٌ ، يزوّدها حبيب راحل

وكذلك شأنه مع فتاة الحيّ إذا طرقها ليلاً ، فان عفّته ومروءته تقفان لهما بالمرصاد :

وقد طرقت فتاة الحيّ مرتدياً بصاحب غير عزهاة ولا غزل
فبات بين تراقينا ندفّعه وليس يعلم بالشكوى ولا القبل
ثم اغتدى وبه من درعها اثر على ذوائبه ، والجفن ، والخلل

يحول بينها وبينه دائماً صاحبه الذي لا يفارقه . فما كان أحقّه ان يقول بعد بيته المكشوف :

وترى المروّةَ والفتوّةَ والأبوّةَ فيّ كلُّ مليحة ، ضرّاتها
هنّ الثلاث المانعاتي لذّتي في خلوتي ، لا الخوف من تبعاتها

ذلك هو المتنبي في كبريائه وشموخه .

* * *

كان المتنبي يرى نفسه – اذن – أكبر من كثير من ملوك عصره ، الذين عرفهم واحداً واحداً ، لهذه الخلال الملكيّة التي كان يتحلّى بها : من علوّ الهمّة ، وكبرياء النفس ، والاعتداد بالقلب ، وعدم المبالاة ، وصدق اللهجة ، والعفّة والوفاء ، دع عنك ما يتفرّع عنها من العجب والاباء ، والجرأة والاقدام ، والصبر والشجاعة في قلب ثائر مثله .

فتلك كانت صفاته الخلقية التي كان يعتد بها في شده وترحاله ، وحبّه وبغضه ، وراحته وقلقه . وقد نجم عنها في شعره – على هدي فطرته الواعية – مميّزات ، طبعت اسلوبه بطابعها ، وشقّت له هذه «الطريقة» الفذّة في البيان . وهذه المميزات – ان اردنا الاقتصار على أهمّها ، وابرزها للعيان – هي :

(أ) الصراحة الجارحة .

(ب) دقّة الملاحظة .

(ج) الاستقصاء الفنّي في التمثيل .

(د) نظرة الطائر .

مزوّدة كلّها بالثقافة العميقة ، ومدعمة بالفطرة الواعية . انما تشرف عليها جميعاً الفطرة الواعية .

فهذه المميّزات في ملابساتها لشعره وتمكّنها منه انما ترجع إلى تلك الصفات الملكيّة لا غير التي درسناها في هذا الفصل ، والتي جعلت المتنبي – على خصاصته – ملكاً بين الملوك .

وسنرى كيف تتألف هـذه المميّزات في شعره في الفصول التالية .

الباب السابع

الصّراحة الجارحة

ليس من قصدنا ، وقد بنينا هذا الفصل على معنى الصراحة الجارحة عند شاعرنا ، ان نوحي بأننا لا نلقى عند سواه شواهد عليها ، فان الشعراء الآخرين لا تخلو دواوينهم من شواهد صريحة أو غير صريحة على هذا النوع . ولكن هذه الامثلة ان وجدت عندهم فمعدودة ، لا تعدو كونها عثرات في الطريق ، بينما هي عند المتنبي سيره القويم في الطريق (١) بلا ملل ، لا يخف منها ولا يشذ عنها طول سيره في الطريق (٢) .

ولقد رأينا في بعض المكرّر من شعر المتنبي كيف كان يجابه النـاس بصراحته ، وينظم فيهم كلمات جارحة ، في مثل قوله :

---

١ راجع الفصل « على ضوء ما نظم الصبي » .

٢ يتميز الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري بين شعرائنا المعاصرين بهذه الظاهرة على اشدها . . الصراحة الجارحة . . ولكنه لا يملك – على قدرته – ملكة سواها – ، يمكن ان يظاهر بها الشعراء الآخرين . واشك ان كان حتى هذه سلمت له الآن .

ومن عرف الايام معرفتي بهـا وبالناس ، روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا بـه ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وقوله :

غيري بأكثر هذا الناس ينخـدع ان قاتلوا جبنوا ، أو حدّثوا شجعوا
أهل الحفيظة ، الا ان تجرّبهـم وفي التجارب ، بعد الغيّ ، ما يزع

وكانت بعض هذه الكلمات الجارحة تشمل حتّى ممدوحيه من الملوك :

لا اقتري بلـداً الا عـلى غـرر ولا امر بخلق غـير مضطغـن
ولا اعـاشر من املاكهم ملكاً الا احق بضرب الرأس من وثـن
مدحت قوماً ، وان عشنا نظمت لهم قصائداً من اناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيهـا مضمّـرة إذا تنوشدن لم يدخلـن في الأُذن

وقوله :

بكلّ منصلت ما زال منتظـري حتّى ادلت له من دولة الخـدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحلّ دم الحجّاج في الحـرم

* * *

أيملك الملك (والاسياف ظامئـة والطير جائعة) لحم على وضم ؟
من لو رآني ماءً ، مات من ظمأ ؟ ولو عرضت له في النوم لم ينم ؟
ميعاد كلّ رقيـق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا .. فما قصدي بهـا لهـم وان تولّوا .. فمـا ارضى لها بهم

كما مرّ بنا من شواهدها الكثيرة .

على انه لم يقتصر – في المبادهة بهذه الصراحة الجارحة – على من يزدريهم من هؤلاء ، وانمـا يتجاوز بهـا إلى اولئك الذين كان يبجّلهم (إذا تنكّر لهم) من ممدوحيه ، وفي مقدّمتهم سيف الدولة . تأمّـل

كيف يضيق به ذرعاً ، فيهدّده بالرحيل :

أرى النوى تقتضيني كل مرحلة — لا تستقلّ بهـا الوخّادة الرسم
لئن تركن « ضميراً » عن ميامننـا — ليحدثنّ لمـن ودّعتهم نـــدم
إذا ترحّلت عن قوم ، وقد قدروا — ان لا تفارقهم ، فالراحلون هم
شرّ البـلاد مـكان لا صديق به — وشرّ مـا يكسب الانسان مـا يصم
وشرّ مـا قنصتـه راحتي قنص — شهب البزاة سواء فيه والرخـم

وكيف يناشده الانصاف :

وما لي ، إذا ما اشتقت ، ابصرت دونه — تنـائف — لا اشتاقها — وسباسبا
أهذا جزاء الصدق ، ان كنت صادقاً ؟ — أهذا جزاء الكذب ، ان كنت كاذباً ؟

وتظهر هذه الصراحة ، اجرح ما تكون ، عندما كان يعنّ للمتنبي وهو في حلب ان يعرض بمن كانوا يحاربون سيف الدولة من قبائل العرب ، بله الروم اعداء العرب الالداء .

فمن قوله في وقيعة سيف الدولة ببني كلاب :

رميتهم ببحر من حديـد — له في البرّ خلفهم عباب
فمسّاهم ، وبسطهم حرير — وصبّحهم ، وبسطهم تراب
ومن في كفّه منهم قنـاة — كمن في كفّه منهم خضاب

وقوله في ايقاعه بالقبائل المتمرّدة :

وأجفل « بالفرات » بنـو نمـير — وزأرهم (الذي زأروا) خــوار
فهم حزق على « الخـابور » صرعى — بهم ، من شرب غيرهم ، خمـار
فلم يسرح لهم في الصبح مـال — ولم توقـد لهـم بالليـل نـار
حذار فتى إذا لم يرض عنهـم — فليس بنـافع لهـم الحـذار

أما إذا جاوز قبائل العرب إلى اعدائهم الروم ، فهناك الهول الذي

يتصاغر دونه الهول ، وقصف الملاحم التي يتضاءل تحتها كل ما سمعت أو تسمع من هزيم الرعود ، في كلمات مكهربة لا تبقي ولا تذر .

في مثل قوله يذكر بناءه مرعش ، ومحاولة الدمستق فصله .

أتى « مرعشاً » يستقرب البعد ، مقبلا ... وأدبر . إذ أقبلت . يستبعد القربا
مضى بعد ما التفّ الرماحان ساعة ... كما يتلقّى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنّه ولّى وللطعن سَورة ... إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

وفي قوله يعرّض بضربة أصيب بها الدمستق في وجهه . وأسر ابنه :

لعلّك يوماً يا دمستق ! عائد ... فكم هارب ممّا اليه يؤول
نجوت باحدى مهجتيك جريحة ... وخلّفت احدى مهجتيك تسيل
أتُسلم للخطّية ابنك ، هارباً ... ويسكن في الدنيا اليك خليل ؟
بوجهك ما انساكه من مُرشّة ... نصيرك منها رنّة وعويل

وفي قوله يصف انهزام جموعهم بعد أن حاولوا الاحاطة بثغر الحدث :

نزلوا في مصارع عرفوها ... يندبون الاعمام والاخوالا
تحمل الريح بينهم شعر الها ... م . وتذري عليهم الاوصالا
تنذر الجسم ان يقوم لديها ... فتريه لكلّ عضو مثالا

وفي قوله عند منصرفه من بلاد الروم مكتسحاً ظافراً :

حتّى عبرن « بأرسناس » سوابحا ... ينشرن فيه عمائم الفرسان
يقمصن في مثل المدى من بارد ... يذر الفحول . وهنّ كالخصيان
والماء بين عجاجتين مخلّص ... تتفرّقان به وتلتقيان
ركض الامير وكاللجين حبابه ... وثنى الأعنّة وهو كالعقيان
فتل الحبال من الغدائر فوقه ... وبنى السفين له من الصلبان

وفي قوله يتهكّم بقسَم البطريق انه يعارض سيف الدولة في الدرب :

وأسلم « ابن شمشقيق » أليّتــه   الا انثنى ، فهو ينأى .. وهي تبتسم
لا يأمل النفس الاقصى لمهجتــه   فيسرق النفس الادنــى ويغتنم

وهو لا يستنكف حتى عن ذمّ الجيوش المقاتلة من المسلمين ، إذا خذلوا أميرهم

قل للدمستق : ان المسلمين لـكم   خانوا الامير ، فجلزاهم بماصنعوا
وجدتموهم نياماً في دمــائكم   كـأنّ قتلاكمْ ايـاهم فجعـوا
ضعفى ، تعفّ الايادي عن مثالهم   من الاعادي ، وان همّوا بهم نزعوا
لا تحسبوا من اسرتم كان ذا رمق   فليس يأكل الا الميّت الضبــع
هلاّ على عقب الوادي ، وقد طلعت   أســد تمــرّ فرادى ، ليس تجتمع
تشقّكم بفتاهــا كلّ ســلهبة   والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع ؟
وانّما عرّض الله الجنود بــكم   لكي يكونوا بلا فسل إذا رجعوا

* * *

فإذا غادر سيف الدولة إلى الفسطاط أخذه الحنين اليه فلم تفته ولا مناسبة لمؤاخذته بما صدر منه في حقّه ، والتشهير به ، في مثل قولـه معرّضاً بالحنين اليه :

حببتك قلبي قبل حبّك من نـأى   وقد كان غدّاراً ، فكن أنت وافيا
وأعلم انّ البين يشكيك بعــده   فلست فؤادي ان رأيتك شاكيــا
فانّ دموع العين غدر بربّهــا   إذا كنّ اثر الغادرين جواريا

وقوله معرّضاً يألم فراقه :

وما منزل اللذات عندي بمنــزل   إذا لم ابجّــل عنده واكــرّم
سجيّة نفس .. ما تزال مليحــة   من الضيم ، مرمياً بها كلّ مخرم
رحلت ، فكم باك بأجفان شـادن   عليّ ، وكم باك بأجفان ضيغـم

قال الثعالبي : المصراع الثاني تصديق لقوله : ليحدثن لمن ودعتهم ندم .

وما ربّة القرط المليح مكانه ... بأجزع من ربّ الحسام المصمّم
فلو كان ما بي من حبيب مقنّع ... عذرت ، ولكن من حبيب معمم
رمى ، واتّقى رميي ، ومن دون مااتقى ... هوى كاسر كفّي وقوسي ، واسهمي

ثم قوله معرّضاً بالقدح في جنابه :

قالوا : هجرت اليه الغيث ، قلت لهم : ... إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ... ولا يمنّ على آثار موهوب
ولا يروع – بمغدور به – أحداً ... ولا يفزّع موفوراً .. بمنكوب

ويعود فيعرّض بهذا القدح في كافور :

أما تغلط الأيام فيّ .. بأن أرى ... بغيضاً تناءى ، أو حبيباً تقرّب ؟
ولله سيري ما أقلّ تئيّة ... عشية شرقيي « الحدالى » و «غرّب»
عشية أحفى الناس بي من جفوته ... وأهدى الطريقين التي أتجنّب

وينعاه قوم في مجلس سيف الدولة ، ويبلغه ذلك ، فيعلّق :

يا من نعيت على بعد بمجلسه ... كلّ بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قتلت ، وكم قد متّ .. عندكم ... ثم انتفضت ، فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفني قبل قولهم ... جماعة ، ثم ماتوا .. قبل من دفنوا
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدرّ على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظّ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم ... حتى يعاقبه التنغيص والمنن
فغادر الهجر ما بيني وبينكم ... يهماء . تكذب فيها العين والأذن

تحبو الرواسم ، من بعد الرسيم، بها وتسأل الأرض –عن اخفافها– الثفن

ويلتفت إلى كافور فيعرّض بما يأمل منه :

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة وان كان قرباً بالبعاد يُشاب
وهل نافعي ان ترفع الحجب بيننا ودون الذي أمّلت منك حجاب
وما أنا بالباغي على الحبّ رشوة ضعيف هوى يبغي عليه ثواب
وما شئت الا ان ادلّ عواذلي على انّ رأيي في هواك صواب
وأعلم قوماً ، خالفوني – فشرّقوا وغرّبت – انّي قد ظفرت، وخابوا

ويخيّب أمله ، فيقول عند اصابته بالحمّى :

أقمت بأرض مصر ، فلا ورائي تخبّ بي الركاب ، ولا أمامي
وملّنيَ الفراش ، وكان جنبي يملّ لقاءه في كلّ عام
قليل عائدي ، سقم فؤادي كثير حاسدي ، صعب مرامي
عليل الجسم ، ممتنع القيام شديد السكر ، من غير المدام

° ° °

يقول لي الطبيب : أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبّه اني « جواد » أضر بجسمه طول الجمام
تعوّد أن يغبرّ في السرايا ويدخل من قتام في قتام
فأمسك .. لا يطال له ، فيرعى ولا هو في العليق ، ولا اللجام

ويصمم على الخروج من مصر ، فيقول ليلة سفره :

أمسيت اروح مثر خازناً ويداً انا الغنيّ ، واموالي المواعيد
انّي نزلت بكذّابين ، ضيفهم – عن القرى وعن الترحال – محدود
جود الرجال من الايدي ، وجودهم من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود

ويذكر فاتكاً الاخشيدي الذي فجع فيه بعد الاستئناس به ، فيقول

متحسراً :

لا فاتك آخر في مصر نقصده ... ولا له خلف في الناس كلّهم
من لا تشابهه الاحياء في شيم ... امسى تشابهه الاموات في الرمم
عدمته ، وكأنّي سرت أطلبه ... فما تزيدنيَ الدنيا على العدم

ويعود إلى مراسلة سيف الدولة من الكوفة ، فيعرّض بمن هم وراء ظهره :

أنت طول الحياة للروم غاز ... فمتى الوعد ان يكون القفول ؟
وسوى الروم ، خلف ظهرك ، روم ... فعلى أيّ جانبيك تميل ؟
قعد الناس كلّهم عن مساعيـ ... ـك . وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا ... كالذي عنده تدار الشمول

* * *

وهو قد بلي في حياته المريرة بالشامتين والحاسدين في كلّ مكان ، فلم يكلّ لسانه ولا هدأ جنانه لحظة في التنكيل بهؤلاء . كقوله لبدر بن عمّار في طبريّة :

وانه المشير عليك فيّ بضلّة ... فالحرّ ممتحن بأولاد الزنا
ومكايد السفهاء واقعة بهم ... وعداوة الشعراء بئس المقتنى

وقوله في مجلس سيف الدولة :

انا السابق الهادي إلى ما أقوله ... إذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس ، فيما يريبني ... اصول . ولا للقائليه اصول
اعادي على ما يوجب الحبّ للفتى ... وأهدأ . والافكار فيّ تجول
سوى وجع الحساد داو ، فانه ... إذا حلّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعنْ من حاسد في مودّة ... وان كنت تبديها له وتنيل

وانّا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن ّ قليل
يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

أمّا الشعراء فقد عرفهم على حقيقتهم — بعد ان شالت كفّتهم في ميزانه — فلم يتردّد عن مكاشفتهم في كلّ أطوار حياته برأيه الصريح. ولنبدأ معه منذ حداثته حيث نسمعه يقول :

ما مقامي بأرض « نخلة » الاّ كمقام المسيح بين اليهود

* * *

لا بقومي شرفت ، بل شرفوا بي وبنفسي فخرت ، لا بجدودي
وبهم فخر كلّ من نطق الضا د ، وعوذ الجاني ، وغوث الطريد
ان اكن معجباً ، فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ، وربّ القوافي وسمام العدا ، وغيظ الحسود
أنا في أمة — تداركها اللـ ـه — غريب ، كصالح في ثمود

حكى ابن جني قال : سمعت ابا الطيب يقول : انما لقّبت « المتنبي » لقولي هذا . فهو يقول في الشعراء أوائل عهده بهم :

ارى المتشاعرين غروا بذمّي ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

ويقول :

ما نال أهل الجاهليّة كلّهم شعري ، ولا سمعت بسحري بابل
وإذا أتتك مذمّتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنّي كامل

ويصطدم بهم في مجلس سيف الدولة ، فيقول :

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ، ويختصمُ
بأيّ لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك ، لا عرب ولا عجم؟

ويطول تحمّله لهم فيقول :

أفي كلّ يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني ، قصير يطاول ؟
لساني – بنطقي – صامت عنه ، عادل
وقلبي – بصمتي – ضاحك منه ، هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا يشاكل
وما التيه طبّي فيهم ، غير انّني بغيض إليّ الجاهل المتعاقل

وينشد سيف الدولة آخر قصائده بحلب ، فيقول مودّعاً ... أو كالمودّع :

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته انّ الكرام ، بأسخاهم يداً ، ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول ، حتى أحمد الصمم

* * *

قلت ان المتنبي كان يتطاول على الملوك لما يتحلّى به من خصال ابرزها الصدق والعفّة ، وهذا الذي جعل هيّناً عنده ان يسمّي الأشياء بأسمائها ، غير مبال بوقعها في النفوس لأنه حر ، بينما ساء موقعها في الناس ، وهم الذين لا يجرون في مثل هذه الامور الا على الحذلقة والنفاق ، لأنهم غير أحرار .

وانما نحن في جيل سواسية شرّ ، على الحرّ ، من سقم على البدن
حولي بكلّ مكان منهم خلق تخطي إذا جئت في استفهامها بـ «من»

وهي تعيش « للصوم والفطر والاعياد والعصر » . كما قال مهنّئاً سيف الدولة مرّة :

ما الدهر عندك الا روضة انف يا من شمائله في دهره زهر
ما ينتهي لك في ايّامه كرم فلا انتهى لك في أعوامه عمر
فانّ حظّك من تكرارها شرف وحظّ غيرك منها الشيب والكبر

ويروى : النوم والسهر .

ولذلك تبلغ هذه الصراحة الجارحة عنده أقصى حدها من الايجاع ، إذا هجا من اساءوا اليه ظالمين ، أو خيّبوا أمله عامدين أو أثاروا حفيظته متطفّلين ، وهو جادّ كلّ الجدّ إذا هجا ، يعني ما يقوله غير هازل ؛ وهجاؤه مقذع .. لا يحجم هو عن الافحاش فيه .. فيرمي من يهجوهم — صادقاً غير كاذب — بكلمات كالحمم تترك للكيّات اثرها على الخدود والجباه ، لا يندمل جرحه .

فهو قد هجا اسحق بن كيغلغ مثلاً لانه وقف له عائقاً كحجر عثرة في الطريق ، فلم يتمالك دون ان يركله برجله ليزيح ثقله عن الطريق . وهو قد هجا كافور الاخشيدي لأنه ضيّق عليه الاقامة في مصر اربع سنوات ، بعد ان بنى له قصوراً من الاحلام الكاذبة في الهواء ، فلم يسعه الا ان يكشف صفحته السوداء للناس ، ويظهره على حقيقته البشعة في شخصه . وهو قد هجا ضبّة لأنه كان لئيماً نجساً اجتمعت فيه كل صفات الخسّة والنذالة ، فلم يقل فيه الا ما كان مشهوراً عنه بين العراقيين ، ولم يأتهم بجديد .

فإذا هو عرّض بعرس الأول في قوله :

يحمي ابن كيغلغ الطريق ، وعرسه ما بين رجليها الطريق الاعظم(١)
أقم المسالح فوق شفر سكينة ان المنيّ بحلقتيها خضرم

١ لم يشذ المتنبي عن اساليب العرب فقد قال الفرزدق قبله لجرير :
وأبحت امك يا جرير كأنها في الناس — باركة — طريق معمل

إلى آخر الابيات ، فقد كانت هي كذلك .

وإذا هو قال في كافور عشيّة فراقه :

العبد ليس لحرّ صـالح بـأخ ... لو انّه في ثياب الحرّ مولـود
لا تشترِ العبد إلاّ والعصا معه ... ان العبيـد لأنجـاس مناكيـد

* * *

من علّم الاسود المخصيّ مكرمة ... اقومه البيض ؟ أم آباؤه الصيد ؟
ام اذنه في يد النخّاس داميـة ؟ ... ام قدره ، وهو بالفلسين مردود ؟
اولى اللئـام كويفير بمعـذرة ... في كلّ لؤم ، وبعض العذر تفنيد
وذاك ان الفحول البيض عـاجزة ... عن الجميل ، فكيف الخصية السود

فقد كان هو – عنده – كذلك .

وإذا هو قال في ام ضبّة :

مـا أنصف القوم ضبّه ... وأمّـه الطرطبّـه
رموا برأس أبيـه ... وباكوا الأمّ غلبـه

إلى آخر ما قال ، فقد كان الكوفيّون (١) يعلمونها وابنها كذلك .

والمتنبي إنمـا نظم هذه الاهاجي امّا تنفيساً عن نفسه الثائرة ، أو تقريراً للواقع القبيح ، أو تلبية لرغبة الغلمة الذين كانت لهم الدالة عليه – من كلّ فتى سميذع – هم الذين كان يعوّل عليهم في مغامراتـه ، ويرافقونه في الحلّ والترحال (٢) .

---

١ كان قوم من أهل العراق قتلوا أبا ضبة بن يزيد العيني ونكحوا أمه . وكان هذا العبد فيمن كان مع الخارجي الذي نجم في بني كلاب وحاول غزو الكوفة هذا العام ، فدفع عن أبوابها بعد قتال شديد اشترك فيه المتنبي ، وذلك قبل وصول القائد دلير بن لشكروز من بغداد بالنجدة ، كما مر بك . راجع ما قاله المتنبي في بني كلاب فصل « دلالة المكرر من شعر المتنبي » في احداث عام ٣٥٣ .

٢ راجع الفصل نفسه .

وكانت مأساته في حياته المكشوفة . هذه الحظوة الكبرى – عامل مجده – التي كان يلقاها شعره (١) . حتى الذي لم يكن يقصد به وجوه الناس – في مباذله – ولا هو ملقى لآذانهم . وإنما يسوقه للخاصة من معارفه عفواً وحي ساعته . فباستثناء ما نظمه في كافور . الذي رآه لم يتخلق بأخلاق الملوك فسجل فيه رأيه الصحيح :

أخذت بمدحه ، فرأيت لهواً   مقالي للأحيمق : يا حليم !
ولما ان هجوت رأيت عيّاً   مقالي لابن آوى ! يا لئيم !
فهل من عاذر في ذا وفي ذا   فمدفوع إلى السقم السقيم

كان قد تكلف لرفقائه ان يجيب ضبة بمثل ألفاظه على كراهة ، وقالها وهو على ظهر فرسه . قال ابن جني :

« ورأيته وقد قرئت عليه هذه القصيدة وهو يتكره انشادها » .

وهو أيضاً لو وصل إلى انطاكية دون التخلف المزري به شاتياً في

---

١ في رواية الربعي عن بعض أصحاب ابن العميد قال : دخلت عليه يوماً قبل دخول المتنبي فوجدته واجماً ، وكانت قد ماتت أخته عن قريب ، فظننته واجماً لاجلها ، فقلت : لا يحزن الله الوزير ، فما الخبر ؟ قال : انه ليغيظني امر هذا المتنبي ، واجتهادي في ان اخمد ذكره ، وقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منها إلا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة .. حتى جاءني خبر   فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه املا   شرقت بالدمع ، حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى اخماد ذكره ؟ فقلت : القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ في اشاعة الذكر واشتهار الاسم ، فالأولى ان لا تشغل فكرك بهذا الامر .

قال ابن جني : وحدثني المتنبي قال حدثني فلان الهاشمي من اهل حران بمصر قال : احدثك بطريفة . كتبت إلى امرأتي وهي بحران كتاباً تمثلت فيه ببيتك :

بما التعلل لا أهل ولا وطن   ولا نديم ولا كاس ولا سكن

فأجابتني عن الكتاب وقالت ما انت والله كما ذكرته في هذا البيت ، بل انت كما قال الشاعر في هذه القصيدة : سهرت بعد رحيلي وحشة لكم   ثم استمر مريري ، وارعوى الوسن

الطريق لما نظم قصيدته في ابن كيغلغ ، فقد املاها على من يثق بـه ، فلما ذاب الثلج وخفّ عن لبنان خرج كأنّه يسيّر فرسه وسار إلى دمشق ، فأتبعه ابن كيغلغ خيلاً ورجلاً ، فأعجزهم ولم يلحقوه ، وظهرت القصيدة .

قال المتنبي : ولو فارقته قبل قولها لم أقلهـا (أنفــة من اللفظ بمـا فيهـا).

ولم يجاوز المتنبي ، في كلّ ما ألصق بهؤلاء ، من جارح القول ، الصدق الذي عرفه عنهم – غير مدار ولا ممار – ولكنه لم يشفق عـلى نفسه المؤمنة ولا رحم شاعريته في جيشان غضبه ، فلم يرحمه النـاس وكفروا بكلّ نزاهته .

ودفع بحياته النّقية – أخيراً – ثمناً غالياً لصراحته الجارحة .

الباب الثامن

دقة الملاحظة

من الصق الصفات التي تلازم الصدق في البيان دقّة الملاحظة . لانك ان لم تكن دقيق الملاحظة تشعّبت بك السبل عن الاحاطة بالموصوف — دون تحديد بيّن لصفاته — وخرج بك غائم الوصف عن التعريف المشمس ... او ما يسمونه في لغة التشريع بالتعريف « الجامع المانع » . وهذه الصفة هي — لو تأملنا — من أقوى الصفات عند المتنبي وأظهرها في شعره للعيان .

ففي أبياته التي وصف بها الجيش ذا اللجب مثلاً :

وذي لجب .. لا ذو الجناح أمامه بناج . ولا الوحش المثار بسالم
تمرّ عليه الشمس . وهي ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدوّر فوق البيض مثل الدراهم
ويخفى عليك البرق والرعد فوقه من اللمع في حافاته والهماهم

قال ابن جنّي : سألت أبا الطيب بآمد . وهو يملي علينا هذه

القصيدة . فقلت : ان هذا المعنى حسن فمن أين أخذته ؟ فقال : رأيت بالرملة بارية على باب بعض الحوانيت ، وقد طلعت الشمس عليها ، وقد دخل من نور الشمس على البطيخ من البارية . فهو عليها كالدراهم .

وإذا كان هو قد نقل الصورة في هذه الابيات من واقع رؤيته إلى الخيال ، فانه – أثناء اجتيازه شعب بوّان ، في طريقه إلى شيراز – بعد عشرين عاماً – رأى الشيء نفسه تحت ظلال الاشجار من خلال الاغصان ، فقال يصف :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنّ الفتى العربي فيها غريب الوجه ، واليد ، واللسان
ملاعب جنّة ، لو سار فيها سليمان ، لسار بترجمان
طبت فرسانا والخيل ، حتى خشيت – وان كرمن – من الحران

وناهيك بهذه الابيات دقّة ملاحظة .

غدونا، تنفض الاغصان فيه على أعرافها مثل الجمان
فسرت ، وقد حجبن الحرّ عني وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً .. تفرّ من البنان

فالروح التي أملت الصورة واحدة ، وقد روي ان عضد الدولة حينما سمع هذا البيت قال لأقرّنّها في يدك .

لها ثمر يشير اليك منه بأشربة ، وقفن بلا أوان
وأمواه .. تصلّ بها حصاها صليل الحلي في أيدي الغواني

وهذه الصفة ربما شاركه فيها شاعر آخر في الادب العربي هو ابن الرومي ، ولكن ابن الرومي خير ما يقال فيه انه ينطق أفكاره

نظماً (١) ، مما كان يجرّه إلى الاسفاف أحياناً . فبينما نراه إذا تناول معنى استرسل فيه حتى يستوعب جزئياته ويتغلغل إلى دقائقه ويأتي في غضون ذلك بما يبهر من وجوه الشبه والمقارنة ، كوصفه بكاء الطفل ساعة يولد :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والاّ فما يبكيه منها ، وانها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد؟
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدّد

فهو في هذه الدالية أيضاً يصف الفجيعة في الشباب :

سلبت سواد العارضين .. وقبله ... بياضهما المحمود ، إذ انا امرد
وبدّلت من ذاك البياض وحسنه ... بياضاً ذميماً ، لا يزال يسوّد
لشتّان ما بين البياضين ، معجب ... أنيق ، ومشنوء إلى العين أنكد
وكنت جلاء للعيون من القذى ... فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد

ثم ينتقل إلى معنى جديد فيقول في الاعين النجل :

هي الاعين النجل التي كنت تشتكي ... مواقعها في القلب ، والرأس اسود
فمالك تأسى الآن ، لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواك تعمّد؟
تشكّى إذا ما أقصدتك سهامها ... وتأسى ، إذا نكّبن عنك ، وتكمد؟
كذلك تلك النبل .. من وقعت به ... ومن صرفت عنه من القوم ، مقصد
إذا عدلت عنّا ، وجدنا عدولها ... كموقعها في القلب ، بل هو اجهد

ولذلك فانه كان إذا مدح الرؤساء والأدباء ، فسر غريب كلماته في القرطاس الذي يثبت فيه قصائده ، ثم لا يفوته ان يردفها بقوله معتذراً :

لم افسر غريبها لك ، لكن ... لامرئ يجهل الغريب سواكا
أو لغيرك ، لا لك ، التفسير .. أنى ... يفسر لابن بجدتها الغريب ؟

وهذه خطرات لا تستحق النظم ، لولا انها خلة في ابن الرومي جرى عليها في كل ما نظم من شعر .

فلا اظنّ أي شاعر آخر ، او تناول هذه المعاني ، يفصح عنها هذا الافصاح .

... فانّا نرى المتنبي رغم دقة ملاحظته يكتفي في مثل هذا الوارد باللمح ، فيلمّ بالمعنى الماماً على شمول من بعيد . ويشير اليه اشارة على احاطة وهو طائف ، ثم ينتقل إلى معنى آخر وهكذا دواليك . وقلّ ان تطول وقفته عند صورة يجلوها حتى يباغتنا بغيرها من غير هوادة . كقوله في عكس معنى ابن الرومي هذا (١) .

---

١ تأمل دقة الملاحظة عند هذا الشاعر الشعبي في قوله :

ما انس لا أنس خبازاً مررت به … يدحو الرقاقة . مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة … وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة … في لجة الماء ، يرمى فيه بالحجر

أو قوله : وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً … من الجو دكنا ، والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر … على اصفر ، في أحمر ، اثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل … مصبغة . والبعض أقصر من بعض

أو قوله : قينة ملعونة ... من أجلها … رفض اللهو معا ، من رفضه
تضغط الصوت الذي تشدو به … غصة في حلقها معترضه
فاذا غنت .. بدا في جيدها … كل عرق ، مثل بيت الأرضه

أو قوله : رأيته سحراً يقلي زلابية … في رقة القشر . والتجويف ، كالقصب
كأنما زيته المقلي حين بدا … كالكيمياء – التي قالوا ، ولم تصب
يلقي العجين لجيناً من أنامله … فيستحيل سبابيكاً من الذهب

أو قوله : كل امرئ مدح امرأ لنواله … وأطال فيه ، فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى … عند الورود ، لما أطال رشاءه
غيري .. فاني لا أطيل مدائحي … إلا لأوفي من مدحت ثناءه

قال له بعض معاصريه يلومه : لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال له : أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله . فأنشده قوله في الهلال :

أنظر اليه كزورق من فضة … قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدني . فأنشده قوله في الآذريون ، وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود :

منى كنّ لي ان البياض خضاب   فيخفى بتبييض القرون شباب
ليالي عند البيض فوداي فتنة   وفخر ، وذاك الفخر عندي عاب
فكيف اذمّ اليوم ما كنت اشتهي   وأدعو بما أشكوه حين اجاب ؟
جلا اللون عن لون هدى كل مسلك   كما انجاب عن ضوء النهار ضباب

ثم ينتقل إلى معنى جديد فيقول في فتوّة نفسه :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه   ولو انّ ما في الوجه منه حراب
لها ظفر ، ان كلّ ظفر ، أعدّه   وناب .. إذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر مني الدهر ما شاء ، غيرها   وأبلغ أقصى العمر .. وهي كعاب

فترى رغم دقّة الملاحظة عند الشاعرين كيف انّ روح المتنبي روح ملك ، بينما روح ابن الرومي لا تعدو روح السوقة .. وانما هي تعبّر عن خوالجهم وأحاسيسهم بلغة شاعرية فصيحة لا غير .

° ° °

وتبدو لنا دقة ملاحظة المتنبي على اجلاها في وصفه للأسد ومصرعه على يد بدر بن عمّار .

أمعفّر الليث الهزبر بسوطه   لمن ادّخرت الصارم المصقولا ؟

تقول الرواية : كان هاجه عن بقرة افترسها بعد ان شبع وثقل ، فوثب على كفل فرسه . فأعجله عن استلال سيفه ، فضربه بسوطه ودار الجيش به فقتل .

كأن آذريونها   غب سماء هاميه
مداهن من ذهب   فيها بقايا غاليه

فصاح راغوثاد ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك انما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصنف ؟ ولكن أنظر إذا وصفت اين يقع قولي من الناس . فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام (وقد نشرت ايدي الجنوب ... الابيات) وقولي في صانع الرقاق (ما انس لا أنس خبازاً .. الابيات) ؟

وقعت على «الأردنّ» منه بليّــة   نضدت بـه هـام الرفـاق تـلولا
ورد .. إذا ورد «البحيرة» شارباً   ورد «الفرات» زئيره و «النيلا»

في المواقع التي تحتلها اسرائيل الآن .

متخضّب بدم القوارس ، لابس   في غيله ، من لبدتيه ، غيــلا
ما قوبلت عينــاه الا ظنّتــا   تحت الدجى نار الفريق حلولا

هل رأيت عيني القط ، دعنا من عيني الاسد ، في الليل ؟

في وحـدة الرهبان ، إلا انــه   لا يعرف التحـريم والتحليــلا
يطـأ الثرى مترفّقاً من تيهــه   فكـأنّه آس .. يجسّ عليــلا

والشيء نفسه يمكن ان يقال عن مشية القط الناعمة .

ويـردّ عفرتــه إلى يأفوخـه   حتّى تصير لرأســه اكليــلا
وتظنّــه ممـا يزمجر نفســه   عنها ، لشدة غيظه ، مشـغولا

ثم ينتقل إلى وصف اثر ريح الاسد في نفوس الحيوان :

قصرت مخـافته الخطى ، فكأنّما   ركب الكميّ جـواده مشـكولا
ألقى فريسته وبربر دونهـا   وقربت قرباً .. خـاله تطفيـلا

ويقارن بين الاسد والمقدم عليه :

فتشابه الخلقان ، في اقـدامــه   وتخالفـا ، في بذلك المأكـولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما   متنـاً أزلّ ، وساعداً مفتـولا

ويصف الفرس التي كان راكبها :

في سرج ظامئة الفصوص ، طمرّة   يأبى تفرّدهـا لهـا التمثيــلا

(ظامئة الفصوص أي دقيقة المفاصل)

نيّالة الطلبات ، لولا انهـا   تعطي – مكان لجامها – ما نيـلا
تندى سوالفها . إذا استحضرتّها   ويظنّ عقـد عنانهـا محـلولا

ثم يعود إلى وصف ما فعل الاسد :

ما زال يجمع نفسه في زوره   حتى حسبت العرض منه الطـولا
ويدقّ بالصدر الحجار . كأنّه   يبغي إلى ما في الحضيض سـبيلا
وكـأنّه غرّته عـين . فادّنـى   لا يبصر الخطب الجليـل جليلا

* * *

سبق التقاءكه بوثبـة هـاجم   لو لم تصـادمه لجازك ميـلا
خذلتـه قوّتـه . وقد كافحتـه   فاستنصر التسـليم والتجديـلا
قبضت منيّته يديـه وعنقـه   فكأنّمـا صادفتـه مغلولا (١)

وفي وصفه الحمّى التي أصيب بها في مصر :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي   تخبّ بي الركاب ، ولا أمـامي
وملّني الفراش . وكان جنبي   يمـلّ لقاءه في كلّ عـام

واليك ابيات البحتري في هذا لمعنى يصف قتل الفتح بن خاقان اسداً عرض له ، حتى تدرك الفارق بين اسلوب واسلوب في معنى الملاحظة الدقيقة عند الشاعرين . قال البحتري :

غداة لقيت الليث ، والليث مخـدر   يحدد نابأ ، باللقـاء ، ومخلبـا
يحصنه مـن نهر « نيزك » معقـل   منيـع ، تسامى غـابه .. وتأشبا
إذا شاء ، غادى عانة ، وغدا عـلى   عقائل سرب ، أو تنقص ربربـا
يجر إلى أشباله ، كل شـارق ،   عبيطـاً ، مدمى ، او رميلا مخضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكمـا   عراكاً ، إذا الهيابة النكس كذبـا
هزبر مشى يبغي هزبرا ، وأغلب   من القوم يبغي باسل الوجه اغلبـا
اذل بشغب . ثم هـالته صولـة   رآك لهـا أمضى جنـاناً واشغبا
فأحجم لـما لم يجـد فيك مطمعـا   وأقدم لـما لم يجد عنك مهربـا
حملت عليه السيف ، لا عزمك انثنى   ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبـا
وكنت متى تجمع يمينك ، تهتك الـ   ـضريبة .. او لا تبق للسيف مضربـا

فهو على اجادته لم يتجاوز الوصف إلى التصوير .

قليل عائدي ، سقم فؤادي   كثير حاسدي ، صعب مرامي
عليل الجسم ، ممتنع القيام   شديد السكر من غير المدام

ثم يدخل في وصف عوارض هذه الحمّى ، ولكن بلغته الشعريّة :

وزائرتي .. كأنّ بها حياء   فليس تزور الا في الظلام

فهي إذن تنتابه ليلاً .

بذلت لها المطارف والحشايا   فعافتها ، وباتت في عظامي

يشعر أثرها في العظام .

يضيق الجلد عن نفسي ، وعنها   فتوسعه بأنواع السقام

تحمل له وخزات وآلاماً في كل جسمه .

إذا ما فارقتني غسّلتني   كأنّا عاكفان على حرام

لا تفارقه إلا بعد ان يتصبّب عرقاً :

كأنّ الصبح يطردها فتجري   مدامعها بأربعة سجام

وهذا تعبير شعري آخر للمعنى نفسه (١) .

أراقب وقتها من غير شوق   مراقبة المشوق المستهام

---

١ يكثر ذكر العرق في شعر المتنبي كلما اقتضت ملاحظته الدقيقة ذلك . تأمل قوله مثلا في الخيل المغيرة

يقبلهم وجه كل سابحة   أربعها قبل طرفها تصل
جرداء ، ملء الحزام ، مجفرة   تكون مثلي عسيبها الخصل
ان ادبرت قلت : لا تليل لها   أو اقبلت قلت : ما لها كفل
والطعن شزر ، والأرض واجفة   كأنما في فؤادها وهل
قد صبغت خدها الدماء ، كما   يصبغ خد الخريدة الخجل
والخيل تبكي جلودها عرقاً   بأدمع ما تسحها مقل

وقوله : خرجن من النقع في عارض   ومن عرق الركض في وابل

ومن الذي لا يرقب موعد الحمّيات ؟

ويصدق وعدها . والصدق شرّ   إذا ألقاك في الكرَب العظام

فليس في الادب العربي كله دقّة ملاحظة لنوبات الحمّى كهذه ، وانه ليستطيع أي طبيب اليوم ان يشخص نوع تلك الحمّى على ضوء وصفه لهذه العوارض . وذلك ما حصل بالفعل .

يقول لي الطبيب : أكلت شيئاً   وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبّه انّي « جواد »   أضرّ بجسمه طول الجمام

وهذا توقيع المتنبي الملكي على الحادثة كلها .

وفي وصفه الاعراب :

كم زورة لك في الاعراب خافية   أدهى ، وقد رقدوا ، من زورة الذيب
أزورهم ، وسواد الليل يشفع لي   وأنثني ، وبياض الصبح يغري بي
قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها   وخالفوها بتقويض وتطنيب
جيرانها . وهم شرّ الجوار لها   وصحبها ، وهم شرّ الاصاحيب
فؤاد كلّ محب في بيوتهم   ومال كلّ اخيذ المال محروب

ويعرّض فيها بأحوال الحضريّات .

أفدي ظباء فلاة .. ما عرفنَ بها   مضغ الكلام ، ولا صبغ الحواجيب

فلما نشفن ، لقين السياط   بمثل صفا البلد الماحل
شفن لخمس إلى ما طلبن   قبل الشفون إلى النازل
فدانت مرافقهن البرى   على ثقة بالدم الغاسل
وما بين كاذتي المستغير   كما بين كاذتي البائل

فدقة الملاحظة هي التي تجمع عنده بين الوابل وقطرات العرق والدموع في لوحة واحدة ، ويجتزئ باحداها عن الأخرى . حتى في مثل قوله الذي تلاعب فيه بالمعنى التقليدي للجود وطوره تطويراً :

لم تحك نائلك السحاب ، وانما   حمت به ، فصبيبها الرحضاء

وسيأتي الحديث عن هذا بعد في الفصل الذي نتناول فيه تطوير المعنى التقليدي .

ولا برزنَ من الحمّام مـائلة أوراكهنَّ صقيلات العراقيـب

كحالها المشهود اليوم في كل مكان .

ومثل هذا قوله من أخرى :

هـام الفؤاد بأعرابيّة .. سكنت بيتاً من القلب ، لم تمدد له طنبـا
مظلومة القدّ في تشبيهه غصنـاً مظلومة الريق في تشبيهه ضربـا

وحديثه عن الريق يذكّرنا بقوله :

في مقلتي رشـأ تديرهمـا بدويّة ، فتنت بهـا الحلـل
تشكو المطـاعم طول هجرتها وصدودها .. ومن الذي تصل ؟
ما أسأرت في القعب من لـبن تركته وهـو المسـك والعسـل

يصفها بقلّة الاكل ونزاكة الفم .

وقوله في دموع الثاكلات من الحسان :

وأبرزت الخـدور مخبّـآت يضعن النقس أمكنة الغـوالي
أتتهنّ المصيبـة غـافـلات فدمـع الحزن في دمع الدلال

وهل أدقّ من هذه الملاحظة ؟ وفي هذه القصيدة يصف المطـر قـائلاً :

سقى مثواك غـاد في الغـوادي نظير نوال كفّك .. في النـوال

وهذا أيضاً من ذلك .

لساحيه على الاجداث حفـش كأيدي الخيل ، ابصرت المخـالي

وعلى ذكر الخيل ، المتنبي فيصل في تمييز الخيول ، ولذلك يكثر وصفها الدقيق في شعره . تأمّل قوله :

قاد الجياد إلى الطعان ، ولم يقـد إلا إلى العـادات والاوطـان

ان خلّيت ، ربطت بآداب الوغى فدعاؤها يغني عن الارسان
في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان

وقوله :

وشزّب .. أحمت الشعرى شكائمها ووسّمتها على آنافها الحكم
حتى وردن بـ « سمنين » بحيرتها تنشّ بالماء في اشداقها اللجم

غاية الدقّة في الملاحظة . وقوله عند وروده مصر وهو يصف رحلته الشاقّة :

وجرداً .. مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافا ، يتبعن العواليا
تماشى بأيد ، كلّما وافت الصفا نقشن بها صدر البزاة حوافيا
وتنظر من سود صوادق في الدجى يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجرس الخفيّ سوامعاً يخلن مناجاة الضمير تناديا
تجاذب فرسان الصباح أعنّة كأنّ على الاعناق منها افاعيا
بعزم .. يسير الجسم في السرج راكبا به . ويسير القلب في الجسم ماشيا

وقوله ، وهو يفكر في الخروج من مصر :

ويوم ، كليل العاشقين ، كمنته أراقب فيه الشمس ايّان تغرب
وعيني إلى أذني أغرّ ، كأنّه من الليل ، باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء ، ادني عنانه فيطغى ، وارخيه مراراً فيلعب
واصرع أيّ الوحش قفّيته به وانزل عنه مثله حين اركب

وقوله يصف انطلاق الجواد :

ومهجة .. مهجتي من همّ صاحبها ادركتها بجواد ظهره حرم

رجلاه في الركض رجل ، واليدان يـد
وفعـله مـا تريـد الكفّ والقدم (١)

واسأل من يشهدون سباق الخيل فعندهم الخبر اليقين . وقوله يصف وطـأها :

اول حرف من اسـمه كتبـت سنابك الخيـل في الجلاميـد

وقوله عنها في وصف جيش سيف الدولة وقـد ركب غلمانـه بالتجافيف والسلاح :

ولمّا عرضت الجيش ، كان بهـاؤه على الفارس المرخى الذؤابة منهم
حواليـه بحـر للتجافيف مـائج يسير بـه طود من الخيـل أيهـم
كأجناسها راياتهـا وشعارهـا وما لبسته ، والسلاح المسمّـم
وأدّبها طول القتـال ، فطرفـه يشير اليها من بعيـد ، فتفهـم
تجاوبه فعلا ، وما تسمع الوحى ويسمعها لحظـاً ، ومـا يتكلّـم
على كلّ طاو ، تحت طاو ، كأنه من الدم يسقى ، أو من اللحم يطعم
لها في الوغى زيّ الفوارس فوقها فكلّ حصـان دارع متلثّـم

وقوله يصف الدارعين من الروم :

أتوك يجرّون الحديد ، كأنّهـم سروا بجياد مـا لهنّ قـوائـم
إذا برقوا .. لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلهـا والعمـائـم
خميس بشرق الارض والغرب زحفـه وفي أذن الجـوزاء منـه زمـازم

---

١ زعم العميدي ان للأقيشر ما يقارب هذا المعنى في نعت فرسه وهو قوله :

يجري كما أختـاره ، فكأنـه بجميع مـا أبغيه منـه عـالم
رجلاه رجل ، واليدان يد ، إذا احضرتـه ، والمتـن منـه سالم

والحاسم بين النعتين هو قول المتنبي « في الركض » تحديداً للحال الموصوفة .

تجمّع فيه كل لسن وأمّة فما تفهم الحدّاث الا التراجم

كانوا خمسين الف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والروس والبلغر والصقلب والخزرية .

وقوله يصف نجاة ابن شمشقيق هارباً بفرسه :

تردّ عنه قنا الفرسان سابغة صوب الأسنّة في أثنائها ديم
تخطّ فيها العوالي ، ليس تنفذها كأن كلّ سنان فوقها قلم

ويلخّص رأيه فيها بقوله :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وان كثرت في عين من لا يجرّب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها ، فالحسن عنك مغيّب(١)

---

١ والذي يدلك على انشغال ذهن المتنبي بصفات الخيل ايراده معانيها هذه الموارد الكثيرة في مثل قوله :

كرم تبين في كلامك ماثلا ويبين عتق الخيل في أصواتها

وقوله : لم تزل تسمع المديح ولكن صهيل الجياد غير النهاق

وقوله : فان تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جري ، فلي فيهن تصهال

وقوله : ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر اظلافه والغبب

وقوله الذي مر بنا : وما في طبه اني « جواد » أضر بجسمه طول الجمام

تعود ان يغبر في السرايا ويدخل من قتام في قتام

فأمسك . . لا يطال له ، فيرعى ولا هو في العليق ، ولا اللجام

وقوله يصف سيف الدولة :

صدمتهم بخميس أنت غرته وسمهريته في وجهه غمم

وقوله في كافور : فدى لأبي المسك الكرام ، فانها سوابق خيل .. يهتدين بأدهم

وقوله في بني كعب : لعل بنيهم لبنيك جند فأول قرح الخيل المهار

وقوله لأبي العشائر ، وقد سأله : أفي هذه السرعة قلت هذا ؟ فقال مجيباً :

أتنكر ما نطقت به بديهاً وليس بمنكر سبق الجواد ؟
أراكض معوصات القول قسرا فأقتلها ، وغيري في الطراد

وأخيراً قوله البالغ حده من السخرية :

إذا شاء ان يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له : الحق !

وهناك أيضاً قوله بصدد ناقته التي أقلّته إلى ابن العميد :

تركت دخان الرمث في أوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا
وتكرّمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه ، وليس مسكاً اذفرا
فأتتك دامية الأظلّ ، كأنّما حذيت قوائمها العقيق الاحمرا

وقوله مستأنساً بنفسه معها :

عيون رواحلي ان حرت عيني وكلّ بغام رازحة بغامي
فقد ارد المياه بغير هاد سوى عدّي لها برق الغمام

روى ابن جنّي عن يعقوب قوله : العرب إذا عدوا للغمامة مائة برقة لم يشكّوا انها ماطرة ، فيتبعونها واثقين من انها قد سقت ، وربما ساروا خلفها عشراً أو أقل أو أكثر .

وما احلى قوله في مراع مغزل صادوه :

اغناه حسن الجيد عن لبس الحلي وعادة العري عن التفضّل

والكلب الذي اطلق لصيده : فحلّ كلاّبي وثاق الاحبل .

عن أشدق ، مسوجر ، مسلسل أقبّ ، ساط ، شرس ، شمردل
منها(١) ، إذا يثغ له لا يغزل موجّد الفقرة ، رخو المفصل

وما أشبه وصفه الدقيق هنا بالشعر الجاهلي .

له إذا ادبر لحظ المقبل كأنما ينظر من سجنجل
يعدو إذا احزن علو المسهل إذا تلا جاء المدى وقد تلي
يقعي جلوس البدوي المصطلي بأربع مجدولة .. لم تجدل
فتل الايادي ، ربذات الارجل آثارها امثالها في الجندل
يكاد في الوثب من التفتّل يجمع بين متنه والكلكل

١ اي من الكلاب . وهو يتعلق بقوله « فحل كلابي » ..

إلى آخر الارجوزة :

ولا تقتصر دقّة ملاحظة المتنبي على الاشياء المرئيّة ، فهو يتجاوزها حتّى إلى غير المرئيّات . كقوله في نظر العدو :

يخفي العداوة ، وهي غير خفيّة   نظر العدو بما أسرّ يبوح

وقوله في اثر الشمس على البشرة :

ان تريني ادمت بعد بياض   فحميد من القناة الذبول
صحبتني على الفلاة فتاة   عادة اللون عندها التبديل
سترتك الحجال عنها ، ولكن   بك منها من اللمى تقبيل

وقوله في تغيّر الحال مع الزمان :

تغيّر حالي ، والليالي بحالها   وشبت ، وما شاب الزمان الغرانق

وقد كرّره بعد :

تسوّد الشمس منا بيض اوجهنا   ولا تسوّد بيض العذر واللمم
وكان حالهما في الحكم واحدة   لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم

وقوله أمام جلال الموت :

كأن الموت لم يفجع بنفس   ولم يخطر لمخلوق ببال

أو :

من لا تشابهه الاحياء في شيم   امسى تشابهه الاموات في الرمم

وقوله في وصف الموت نفسه :

وما الموت إلا سارق ، دقّ شخصه   يصول بلا كف ، ويسعى بلا رجل

وقوله في وصف مفعول الكرم في النفوس :

كرم .. خشّن الجوانب منهـــم　　فهو كالمـــاء في الشــفار الرقـــاق

ولعل هذا يذكرك بقوله في وصف السيف :

كفرندي .. فرند سيفي «الجــراز»　　لذّة العــين ، عــدّة للــبراز
تحسب المـاء خطّ في لهب النا　　ر أدقّ الخطوط في الاحــراز
كلّما رمت لونــه ، منع النـــا　　ظر موج ، كــأنه منك هــاز
ودقيق — قدى الهبـــاء — أنيـــق　　متوال في مستو هزهـــاز
ورد المــاء ، فالجوانب قــدرا　　شربت ، والتي تليهـــا جــواز

فهو أدقّ وصف للسيف وأصدقه في الادب العربي كله .

حتى قوله في الخمرة مصبحاً على البديهة ، بعد ان رعش بها ليلته مرّة :

وجــدت المدامــة غلاّبة　　تهيّـــج للقلب اشوافـــه
تسيء مــن المرء تأديبــه　　ولــكن تحسّن أخــلاقــه
وأنفس مــال الفتى لبّــه　　وذو اللب يكره انفاقـــه
وقــد متّ أمس بهـــا موتــة　　وما يشتهي الموت من ذاقــه

فما عرف الشاربون عنها　　ولا المانعون أوغل مما قال .

وقوله أخيراً لكلّ من يتعجّل بالقبول أو يشفّ في الحكم :

أعيذهـــا نظرات منك صادقـــة　　ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

فذاك هو ابو الطيب في وصفه الواقعي وملاحظته الدقيمة ، وقــد تأتّى له كل ذلك لأنه كان يحرص على الصدق في البيان ويدقق في استعمال الالفاظ دقته في الملاحظة . ولم نورد هذه الشواهد استقصاء وإنما تمثيلاً لهذه الناحية فيه . وقس على الحاضر ما غاب من الأمثلة التي يتلاطم بها الديوان .

الباب التاسع

الاستقصار الفنّي في التمثيل

مرّ بنا في صدد التفريق بين « معنى الشاعر » و « مراد الشاعر » (أي معنى المعنى عند الشاعر) أن البيت :

أبا المسك !.. هل في الكاس فضل أناله
فـانّي اغنّي منـذ حـين وتشرب

يظهر الفرق بينهما واضحاً ، فقد قلت تعليقاً عليه :

فلو كان هناك حقيقة كاس وغناء وشرب ، لكان قول المتنبي هذا تصويراً لواقع الحال ، ولكنه لم يكن معنى بهذه الصورة لذاتها ، وإنما اتخذها مجازاً ليستقصي التمثيل ... تمثيل حاله مع كافور ... وذلك أول وفوده عليه .

وهذه كانت بعض طريقة المتنبي جرى عليها في كلّ شعره .

فعلى هذا الغرار قوله لسيف الدولة بعد عودته من مصر :

وان فـارقتني أمطـاره   فأكثر غدرانهـا ما نضب

ويعقد في هذه القصيدة مقارنة بينه وبين كافور ، فيقول :

ومن ركب الثور بعد الجـواد   أنكـر أظلافـه والغبـب

وقد مرّ بك أي مكان كانت تشغله الحيل في ذهن المتنبي ، فلا كافور كان ثوراً ولا سيف الدولة جواداً بالمعنى القاموسي ، وإنما هو الاستقصاء الفني في التمثيل .

ومثله قوله في اصالة جوهره :

وما أنا منهم ، بالعيش فيهـم   ولـكن معـدن الذهب الرغـام

مشبهاً قوله يرثي أخت سيف الدولة في اصالة جوهرها :

فان تكن « تغلب » الغلباء عنصرهـا   فان في الخمر معنى ليس في العنب

وكذلك قوله قبل موتها في مجلس سيف الدولة وقد أحرج غـايـة الاحراج ، فاستهلّها بعبارة « واحرّ قلباه » ، ثم مضى يستقصي في التمثيل :

ومـا انتفاع أخي الدنيـا بنـاظره   إذا استوت عنده الانوار والظلم
و إذا رأيت نيوب الليث بـارزة   فـلا تظنّن ان الليث يبتسـم
و ما أبعد العيب والنقصان من شرفي   انا الثريا .. وذان الشيب والهرم
و ليت الغمام الذي عندي صواعقه   يزيلهنّ إلى مـن عنـده الديم
و وشرّ مـا قنصتـه راحتي قنص   شهب البزاة سـواء فيـه والرخم

فكل بيت من هذه الأبيات هو الغاية في ذاته والكلمة الاخيرة في موضوعه .

وقد كان شاعر آخر – قبل المتنبي – هو ابو تمام يسلك أيضاً هذا النهج في شعره ، ويعنى بالاستقصاء الفني في التمثيل . مما دعا المعرّي – بعد – ان يعتبره حكيماً مثل المتنبي ، في ردّه التاريخي الشهير : أما المتنبي وابو تمام فحكيمان ، والشاعر البحتري . ولم يخطىء ابو العلاء في التقدير .

تأمّل معي أبيات أبي تمام في الحسد مثلاً :

لولا التفكّر في العواقب . لم تزل   للحاسد النعمى على المحسود
وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت ، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عرف العود

فلن تجد تمثيلاً فنيّاً يستقصي اثر الحسد في شكل ماديّ كهذه الصورة للعود الذي تمسّه النار باشتعالها ، فيفوح بالعرف الزكي .

بيد ان وراء الاستقصاء الفني في التمثيل دائماً هدفاً هو الجو النفسي الذي يخلقه الشاعر لمعاناته ، سعياً وراء مراده ، ويظهر لنا هذا الجو النفسي إذا قارنّا أبيات ابي تمام هذه بقول القائل :

اصبر على حسد الحسود   فانّ صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها   إن لم تجد ما تأكله

فبينما ترى ابا تمام ينظر إلى الموضوع نظرة واعية (١) ، فيلمّ بأطرافه

---

١ ان الشاعر الذي ينشد بين يدي أمير هو احمد بن المعتصم قوله :

اقدام عمرو ، في سماحة حاتم   في حلم أحنف ، في ذكاء اياس

فيقول له فيلسوف العرب يعقوب الكندي – وكان حاضراً المجلس – أتشبه الامير بأجلاف العرب فيطيل اليه الشاعر النظر ، ثم يعطف قائلا :

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلا ، شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا . . من المشكاة والنبراس

ثم يعيد أهل المجلس النظر في القصيدة بعد ان يتم الشاعر انشادها فيبهت الكندي إذ لا يجدون فيها البيتين ، ان هذا الشاعر لجدير بأن يسلم له بصفاء الذهن وجودة التخيل والابتكار . فكيف لا يذعن لزعامته الشعراء ؟

كلها من الجانبين الحاسد والمحسود ، ترى هذا الشاعر لا يستهدف من الموضوع الا الغرض القريب ، فيقصر حكمه على طرف واحد هو جانب الحسود لا غير .. وتبقى بعد ذلك فجوات يعجز عن املائها البيتان . فالنار على أقل تقدير لا تأكل نفسها مثلاً إلا بعد أن تكون قد أكلت كل شيء ، فأين في الاستقصاء هذا من ذاك ؟

وهذا الاستقصاء يدلّ به المتنبي على الشعراء في كلّ علّه ونهله . ولا ينسى معها غربة نفسه .

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريب حيثما كانا

فهو يسير في طريقته الفنية هذه مستوثقاً بنفسه مطمئناً أبداً كما قال :

وعن ذملان العيس، ان سامحت به والاّ ففي اكوارهن ... عقاب

وهذا الذي يجعل الفارق محسوساً ملموساً بينه وبين ابي تمام . فبينما الاستقصاء الفنّي لا يخرج عند ابي تمام عن كونه عملاً عقلياً بحتاً تراه عند المتنبي يأخذ من نفسه وعقله معاً لأنه شيء يمس حياته في الصميم ، لا مجرد انه يقع منها على الهامش . أو يتعلق من مذهبه الشعري بالحاشية دون المتن . ومن هنا يختلف ابو تمام في الصنعة عن المتنبي .

فان ولع ابي تمام بالصنعة كثيراً ما كان يقف حجر عثرة في سبيل تجريد الحقيقة (١) ، ولقد اولع هذا الشاعر بالالفاظ وشتى صورها

---

٢ جاء في مناظرة الحاتمي مما رواه صاحبها عن المتنبي قوله في ابي تمام : أليس هو القائل :

خشنت عليه ، اخت بني الخشين ! وانجح فيك قول العاذلين

وهو الذي يقول : تسمون الفأ، كآساد الشرى نضجت جلودهم ، قبل نضج التين والعنب

وهو الذي يقول : اقول لقرحان من البين، لم يصب رسيس الهوى ، بين الحشا والترائب

ما « قرحان البين » ؟ أخرس الله لسانه !

ونحن وان كنا لا نؤمن بوقوع هذه المناظرة على الوجه الذي نقل الحاتمي ، فانا لا نستبعد ان يكون

وما لأحرفها من اشعة وظلال ، حتّى جعل منها دولة لا تقلّ عن دولة الخيال ، وذهب يتحكّم فيها كيفما شاء مجانسة وبديعاً ، ومطابقة وترصيعاً ، حتّى كاد لا ينظر إلى المعاني إلا من خلال زجاجها الملوّن (١) ، وكثيراً ما تراءت غامضة أو مشوّهة . ولكنّه في جيّده

رأى المتنبي في بعض هذه الابيات ما أورده الحاتمي على لسانه . اذ ان « قرحان » مثلا معناه في اللغة من الابل الذي لم يصب بالجرب ، ومن الناس من لم يشهد الحرب » ، وعلى أقرب الاحتمالات « الذي لم يخرجَ عليه الجدري » . فايراده اذن بمعنى « الذي لم يفجع بأحبابه » ، أقبح ما يكون استعارة ، وابعدها عن التبيان . وانما هو معاسرة لروح اللغة التعبيرية بدون حاجة فنية ماسة ، يمكن ان تحمل معها على الضرورة أو الاضطرار .

١ فهو يقول مثلا بعد بيته المذكور :

أعني افرق شمل دمعي ، فانني ... ارى الشمل منهم ليس بالمتقارب

أفرق شمل دمعي .

فما كان في ذا اليوم عذلك كله ... عدوي ، حتّى صار جهلك صاحبي

عذلك عدوي ، جهلك صاحبي

وما بك اركابي من الرشد مركبا ... الا انما حاولت رشد الركائب

اركابي مركباً من الرشد ، رشد الركائب

فكلني إلى شوقي ، وسر يسر الهوى ... إلى حرقاتي ، بالدموع السوارب

سر ، يسر

أميدان لهوي ! من أتاح لك الردى ... فأصبحت ميدان الصبا والجنائب ؟

ميدان لهوي ، ميدان الصبا والجنائب

أصابتك ابكار الخطوب ، فشتتت ... هواي بأبكار الظباء الكواعب

ابكار الخطوب ، ابكار الظباء

وركب .. يساقون الركاب زجاجة ... من السير ، لم تقصد لها كف قاطب

يسكرون ويسكرون المطي من التعب فكأنهم سقوها زجاجة ، ولكنها ليست على الحقيقة خمرا .

فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى ... فصارت لها أشباحهم كالغوارب

أشباحهم صارت لها كالغوارب ، لأن السرى المتواصل لم يبق لها غوارب .

يقود نواصيها « جذيل » مشارق ... إذا آبه هم ، « عذيق » مغارب

حكيم لا يجارى .. وجيّده غير قليل ، قطالما أبعد المرمى فأوشك أن يطال النجوم .

فالفرق بينهما ما قاله ابن رشيق :

« ان ابا تمام كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعهـا ، ويعطي المعنى حقّه ، بعد طول النظر (تأمّل قوله طول النظر) ، والبحث (كذا) عن البيّنة ، أو كالفقيه الورع يتحرّى في كلامه ويتحرّج خوفاً على دينه . وابا الطّيب كالملك الجبّار (سبحان ربي) يأخذ ما حوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده ولا يبالي ما لقي ولا حيث وقع » .

عمل عقليّ بحت من جهة ، وعمل صادر من صميم الحياة من جهة أخرى ، هو ما ذهبنا اليه في التفريق بين الحكيمين (١) .

فيه إشارة إلى قول الحباب بن المنذر : انا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب .

يرى بالكعاب الرود طلعة ثـائـر ... وبالعرمس الوجنـاء غرة آيب

لبغضه المقام يرى في الكاعب طلعة ثائر دنا لينال منه ، ولحبه السفر يرى في الناقة السريعة غرة كغرة من يفرح الناس بايابه بعد سفر طويل .

كأن بـه ضغنـاً على كل جـانب ... من الأرض ، أو شوقاً إلى كل جانب

ضغنا على كل مكان حتى يفارقه ، وشوقاً إلى كل مكان حتى يبلغه .

وهكذا إلى آخر القصيدة ، استقصاء لا حد له ... ولكن في الاستعارات البعيدة ، والتشبيهات الغريبة ، والتجنيسات اللفظية والمطابقات المعنوية ، ولا تخلو ما بين ذلك أحياناً من الاستقصاء الفني في التمثيل ، ولكن يظهر على كل ذلك – كما قلنا – اثر الاعجاز ، بعد جهد العقل الجهيد .

هذا الحكم صحيح في جملته، فمن الذي ينشد لأبي تمام قوله :

لما رأيتك قـد غذوت مودتـي ... بالبشر ، واستحسنت وجه ثنـائي

أنبطت في قلبي لوأيك مشرعاً ... ظلت تحوم عليـه طير رجائي

وقوله: بني مالك ! قد نبهت خامل الثرى ... قبور لكم مستشرفات المعـالم

ولنعد إلى ما كنّا فيه ، فمن الاستقصاء الفني في التمثيل عند المتنبي في غير باب المديح قوله :

تريدين لقيان المعالي رخيصة ... ولا بدّ دون الشهد من ابر النحل

وقوله :

كلما أنبت الزمان قناة ... ركّب المرء في القناة سنانا

حتى انتهى امرهما أخيراً إلى القنبلة الذرية .

وقوله :

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقوله :

لا يعجبنّ مضيماً حسن بزّته ... وهل يروق دفيناً جودة الكفن ؟

وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرحٍ بميّت ايلام

وقوله :

اليس الجمال لوجه صحّ مارنه ... انف الكريم بقطع العزّ يجتدع

وقوله :

إن السلاح جميع الناس تحمله ... وليس كلّ ذوات المخلب السبع

رواكد .. قيد الشبر .. من متناول ... وفيها على لا ترتقى بالسلالم

وقوله : وكان الأسى قد آل فيه إلى الحشا ... فلما استخفاه جرى في المفاصل

كماء الغدير امتد بعد وقوفه ... بما هاج من فيض التلاع القوابل

وقوله : ولو كان يفنى الشعر ، أفنته ما قرت ... حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول .. إذا انجلت ... سحائب منه ، اعقبت بسحائب

فلا يسلم بأنه حكيم .

وقوله :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا   فأيسر ما يمرّ به الوحول

وقوله :

وغيظ على الأيام ، كالنار في الحشا   ولكنّه غيظ الأسير على القدّ

وقوله :

هو الجدّ .. حتى تفضل العين اختها   وحتى يكون اليوم لليوم سيّدا

وقوله :

ولو لم يعل الا ذو محل   تعالى الجيش ، وانحط القتام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل   تجنب عنق صيقله الحسام

وقد أصبحنا نفهم معنى هذا البيت على حقيقته في عصرنا الآلي .

وقوله :

اعاذك الله من سهامهم   ومخطيء من رميّه القمر

وقوله :

يغادر كل ملتفت اليه   ولبّته لثعلبه وجار

وقد حمّل الكلمة المعنيين .

وقوله :

وما ثناك كلام الناس عن كرم   ومن يسدّ طريق العارض الهطل.

وقوله :

لعلّ عتبك محمود عواقبه   فربّما صحّت الاجسام بالعلل.

وقوله :

انّما انفس الانيس سباع   يتفارسن جهرة واغتيالا

وقوله :

يتلوّن الخرّيت من خوف النوى   فيها ، كما تتلوّن الحرباء

وقوله :

فآجرك الاله على عليل   بعثت إلى المسيح به طبيبا

وقوله :

أتى الزمان بنوه في شبيبته   فسرّهم ، واتيناه على الهرم

أما في مذهب المديح فله مثل قوله :

شجاع .. كأن الحرب عاشقة له   إذا زارها قدّته بالخيل والرجل

وقوله :

كريم .. نفضت الناس لما بلغته   كأنّهم ما جفّ من زاد قادم

وقوله :

مال .. كأنّ غراب البين يرقبه   فكلّما قيل : هذا مجتد ، نعبا

وقوله :

ومعال .. إذا ادّعاها سواهم   لزمته جناية السرّاقِ

وقوله :

ليزد بنو الحسن الشراف تواضعاً   هيهات تكتم في الظلام مشاعل

وقوله :

أعيا زوالك عن محلّ نلته   لا تخرج الأقمار عن هالاتها

وقوله :

وزارك بي دون الملوك تحرّج   إذا عنّ بحر ، لم يجز لي التيمّم

وقوله :

أزالت بك الأيام عتبي ، كأنما   بنوها لها ذنب ، وأنت لها عذر

وقوله في الذمّ :

تستغرق الكف فوديه ومنكبه   فتكتسي منه ريح الجورب العرق

ثم قوله في سيف الدولة خاصّة :

إذا خلعت على عرض له حللا   وجدتها منه في أبهى من الحلل
بذي الغباوة من انشادها ضرر   كما تضرّ رياح الورد بالجعل

وقوله :

رضوا بك ، كالرضا بالشيب ، قسراً   وقد وخط النواصي والفروعا

وقوله :

وليست من مواطنه ولكن   يمرّ بها كما مرّ الغمام

وقوله :

لا يعتقي بلد مسراه عن بلد   كالموت .. ليس له ريّ ولا شبع
تمشي الكرام على آثار غيرهم   وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع
من كان فوق محلّ الشمس موضعه   فليس يرفعه شيء ولا يضع

وقوله :

إلى كم تردّ الرسل عمّا أتوا به   كأنّهم – فيما وهبت – ملام ؟

يقول فيها :

وربّ جواب ، عن كتاب ، بعثته   وعنوانه للناظرين قتام
تضيق به البيداء من قبل نشره   وما فضّ بالبيداء عنه ختام
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة   جواد ، ورمح ذابل ، وحسام

وقوله :

دروع لملك الروم هذي الرسائل ... يردّ بها عن نفسه ، ويشاغل
هي الزرد الضافي عليه ، ولفظها ... عليك ثناء سابغ .. وفضائل

يقول فيها :

أرى كل ذي ملك .. اليك مصيره ... كأنك بحر ، والملوك جداول

وقوله :

إذا رضيت بأن يعطوا الجزى ، بذلوا
فيها رضاك ، ومن للعور بالحول ؟

وقوله :

بناها فأعلى . والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون ، فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم

يقول فيها :

وقفت .. وما في الموت شكّ لواقف ... كأنّك في جفن الردى . وهو نائم
تمرّ بك الابطال .. كلمى هزيمة ... ووجهك وضّاح ، وثغرك باسم

ومنها بيته الشهير :

نثرتهم فوق «الاحيدب» كلّه ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

وكان المتنبي جدّ معجب بهذا البيت (١) .

---

١ قال ابن جني : حدثني أبو علي الحسين بن احمد القسوي ، قال : خرجت بحلب اريد سيف الدولة ، فلما برزت من السور إذا أنا بفارس متلثم ، قد أهوى نحوي برمح طويل ، وسدده إلى صدري ، فكدت أطرح نفسي عن الدابة ، فحسر لثامه فاذا المتنبي ، وأنشد :

نثرتهم فوق الاحيدب كله ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال : كيف هذا القول . أحسن هو ؟ فقلت : ويحك ، قد قتلتني يا رجل .
قال ابن جني : فحكيت هذه الحكاية لابي الطيب بمدينة السلام ، فعرفها وضحك منها

وقوله :

فلم تتمّ « سروج » فتح ناظرها الاوجيشك في جفنيه مزدحم

وقوله :

تغيب الشواهق في جيشه وتبدو صغاراً ، إذا لم تغب

وانّ ما قاله في وصف الحروب وحدها ليسدّ حاجتنا من هذا الباب .. ويزيد .

وهذا الذي جعل عضد الدولة (وكان أديباً شاعراً جيد القريحة) يقول : ان المتنبي كان جيد شعره بالغرب (يعني في الشام والجزيرة ، غربيّ فارس عند عدوه سيف الدولة) ، فيروى انه لما بلغ المتنبي قوله هذا قال : الشعر على قدر البقاع .

وقوله :

ومن الخير بطء سيبك عني اسرع السحب في المسير الجهام

وقوله :

بنو كعب .. وما أثّرت فيهم يد لم يدمها إلا السوار
بها من قطعه الم ونقص وفيها من جلالته افتخار

وقوله :

فدتك نفوس الحاسدين فانها معذبة في حضرة ومغيب
وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها ويجهد ان يأتي لها بضريب

وقوله — من بعد — إلى كافور :

فدى لأبي المسك الكرام ، فانّها سوابق خيل يهتدين بأدهم

وقوله :

فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلّت بياضاً خلفها والمآقيا

يقول فيها :

قواصد كافور ، توارك غيره ومن قصد البحر استقلّ السواقيا

وقد مرّ بنا . فهذه الابيات فيه كلّها الغاية في هذا الباب .

وقوله . وقد هلك شبيب الخارجي الثائر عليه من غير قتال :

لو الفلك الدّوار أبغضت سعيه لعوّقه شيء عن الدوران

فهو بهذا إنما يستقصي التمثيل لـ « جدّ » كافور . الطّعان من غير سنان . ولذلك استعمل كلمة « شيء » . ولن يتخذ كلمة أخرى تقع موقعها هنا لتمثيل هذا الحظ المجدود . وقد كان ابو العلاء هو الوحيد بين الشارحين يدرك هذا بجلاء (١) . حتى إذا انعكست آيته فيه قال :

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفي يده من نتنها عود

فلا تستطيع ان تبلغ في وصف الحطّة أكثر من هذا . ولاحظ هنا الفرق في حكمه بين المظهر الخارجي والمخبر الداخلي .

استشهد صاحب اليتيمة في باب قبح المقاطع به ، وقال : هذا البيت الذي هو عوذتها .
قال ابن فورجة : قرأت على ابي العلاء المعري – ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب – فقلت له يوماً في كلمة هي « شيء » ، في قوله :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران

قلت له : ما ضر ابا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى ... وأوردتها . فأبان لي عوار الكلمة التي ظننتها ، ثم قال لي : لا تظنن انك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب ان كنت مرتاباً . وها أنا أجرب ذلك منذ ذلك العهد ، فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى كان أليق مكانها . وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول .

وقوله – بعد ذلك – لابن العميد :

ودعاك حسّدك الرئيس ، وأمسكوا   ودعاك خالقك : الرئيس الاكبرا
خلفت صفاتك ، في العيون ، كلامه   كالخطّ يملأ مسمعيْ من ابصرا

وقوله لعضد الدولة :

لو كفر العالمون نعمته   لما عدت نفسه سجاياها
كالشمس .. لا تبتغي ، بما صنعت   معرفة عندهم ولا جاها

يقول فيها :

الناس كالعابدين آلهة   وعبده كالموحد اللها

وذلك لأن الناس كان يتولّى أمرهم في انحاء البلاد إذ ذاك ملوك عديدون ، بينما عضد الدولة كان يحكم رعاياه في مملكته بدون منافس ولا منازع . وقوله في وهشوذان الثائر عليه :

وخل زيّا لمن يحققه   ما كل دام جبينه عابد

وقوله :

فأتيت معتزماً .. ولا أسد   ومضيت منهزماً .. ولا وعل

ولذلك قال في رهط عضد الدولة :

لا يستحي احد يقال له :   نضلوك آل بويه ، أو فضلوا
قدروا عفوا ، وعدوا وفوا ، سئلوا   أغنوا ، علوا أعلوا ، ولوا عدلوا
فوق السماء ، وفوق ما طلبوا   فاذا أرادوا غاية .. نزلوا

... أي غاية من غايات الناس ، فلن تستطيع ان تفهم ما تحت هذه الابيات (١) إلا على ضوء هذا التأويل .

* * *

١ تذكر قوله أول وفوده عليه :

ولا تغرنك الامارة في   غير امير ، وان – بها – باهى

وهو إذا توجه إلى نفسه قال مثل قوله :

فمالي وللدنيا .. طلابي نجومها ومسعاي منها في شدوق الاراقم

وقوله :

غير اختيار قبلت برّك بي والجوع يرضي الاسود بالجيف

وقوله :

وإذا خفيت على الغبيّ ، فعاذر ان لا تراني مقلة عمياء

وقوله .

يخيّل لي ان البلاد مسامعي وانّي فيها ما تقول العواذل

وقوله :

وكنت إذا يمّمت ارضاً بعيدة سريت ، فكنت السرّ والليل كاتمه

وقوله :

والهجر اقتل لي .. ممّا اراقبه انا الغريق ، فما خوفي من البلل

وقوله :

وضاقت خطّة .. فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الفدام

وقوله آخر ما انشد :

أتتركني .. وعين الشمس نعلي فتقطع مشيّي فيها الشراكا ؟

وقد مرّ بنا ، وهذا كقوله في حلب :

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله وانعلت افراسي بنعماك عسجدا

فانما الملك رب مملكة قد افعم الخافقين رياها

يرمز بهذا إلى ما يخيم عليها من رفاهية وسلام .

مبتسم ، والوجوه عابسة سلم العدى عنده كهيجاها

وكذلك الملوك .

يقول في هذه الاخيرة :

فلو سرنا ، وفي تشرين خمس   رأوني .. قبل ان يروا السماكا

ويقول :

وما انا غير سهم في هواء   يعود ، ولم يجد فيه امتساكا

آخر دقة في هذا الوتر المرنان ، والواقع اننا كلّنا هذا السهم(١) .

* * *

وهو إذا انتقل بهذا الاستقصاء الفني في التمثيل إلى المعاني المجرّدة ، جاءك بمثل قوله :

واحتمال الاذى ، ورؤية جانيـ   ـه ، غذاء .. تضوى به الاجسام

فالتمثيل هنا بالغذاء الذي تضوى به الاجسام ، وقوله :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة   ففي الناس بوقات لها وطبول

التمثيل لهؤلاء بالبوقات والطبول ، وقوله :

فتاج رأيك في وقت ، على عجل   كلفظ حرف .. وعاه سامع فهم

التمثيل لسرعة انجاز ارادته الملكية في بناء السفن — في أرض العدو — بالحرف الملفوظ وسرعة فهمه من قبل السامع .

وقوله :

فقر الجهول — بلا عقل — إلى ادب   فقر الحمار — بلا رأس — إلى رسن

التمثيل لضياع جهود المعارف بالرسن الذي يحتاج فيه إلى رأس قبل كلّ شيء .

---

١ يفسره قوله :   إلف هذا الهواء أوقع في الأنفس ان الحمام مر المذاق

وربّما استقصى في التمثيل من جنس صناعة الكلام ، وقد فطن لها صاحب اليتيمة فاعتبرها من بدائع ابي الطّيب وجعلها باباً خاصاً ، وهي عندنا من هذا الباب أيضاً ، مثل قوله :

دون التعانق ناحلين ، كشكلتي نصب . أدقّهما .. وضمّ الشاكل

وقد مرّ بنا في محلّه . وقوله :

أمضى ارادته فـ « سوف » له « قد » واستقرب الاقصى فـ « ثمّ » له « هنا »

وقوله :

« قشير » و « بلعجلان » فيها خفيّة كرائين .. في الفاظ الثغ ناطق

وقوله :

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعاً مضى ، قبل ان تلقى عليه الجوازم

وقوله :

من اقتضى بسوى الهنديّ حاجته اجاب كل سؤال عن « هل » بـ « لم »

وقوله في وصف كثرة قلة لعضد الدولة ، وقد مرّ بنا أيضاً :

وكان ابنا عدوّ كاثراه له ياءي حروف « أنيسيان »

يختمها بقوله :

ولولا كونكم في الناس كانوا هراء .. كالكلام بلا معاني

وأنت تفهم الآن ما يعني بهذا الاستقصاء .

وقوله أخيراً في امكانيّة الاقناع :

وكيف يصحّ في الافهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل ؟

ومع هذا بقيت في الديوان عشرات بل مئات من الأمثلة على هذا النوع لا يسعنا ان نتقصّاها كلّها . وانما نكتفي هنا بالاشارة اليها ، فانّ فيما تمثّلنا من الابيات غناء كشاهد عن ايراد ما بقي من اخواتها الحسان .

الباب العاشر

نظرة الطائر

لاحظنا في بعض ما سبق من الفصول كيف ان الصراحة تقتضي الاعتداد بالنفس ، وقد كان المتنبي عظيم الاعتداد بنفسه ، مدلاً بصدقه ، ولذلك كثيراً ما كانت صراحته جارحة ، وكيف ان الصدق في البيان يستلزم دقّة الملاحظة ، وقد كان المتنبي دقيق الملاحظة جداً(١) وكيف ان الاستقصاء الفني في التمثيل كان يقتضي الالمام الكلّي بأحوال الدنيا وشؤونها ، وقد كان المتنبي ملتهب الذكاء مشبوب العاطفة ، يلمّ بهذه الاحوال في ومضات خاطفة كالبرق ، لا تطيل وقفتنا عندها في القصيدة ، ولكنها تحيل داجي ليلها – لمحة عين – نهاراً ، فتبدو سماتها

---

١ لم يكن هو في دقة ملاحظته يكلف قريحته – كابن الرومي مثلا – وصف المطاعم والمشارب ، وعوارض الصور الخلابة ، والعادات والمهن ، التي هي من مظاهر حياتنا الدنيا وعرضها ، والتي تنزع إلى التمتع برؤيتها والانشغال مدى الحياة بها صغار الهمم والنفوس – كما رأينا – وإنما شغله جوهرها عن كل غرض ، فكان يرمي ببصره إلى المدى الأبعد ، ويترفع عن الصغائر التي تشده إلى التراب .

كلّها وقد طغى عليها النور .. ولو إلى لحظات .

وقد آن ان نتحدّث في هذا الفصل عن ميزة أخرى له ، لا يتّصف بها غير الملوك ، هي ما يسمونها نظرة الطائر (Bird's Eye View) فهذه النظرة لا تقتصر – كدقّة الملاحظة – على اللحظة الراهنة في الزمان أو المكان . وانما تتجاوز هذه الحال المشهودة إلى أسبابها الّتي توغل وراءها في الماضي . وإلى نتائجها الّتي تغيب أمامها في المستقبل .

تأمّل قوله في المال مثلاً :

الا أيّها المال الذي قد أباده   تعزّ ، فهذا فعله بالكتائب
لعلّك في وقت شغلت فؤاده   عن الجود ، أو كثّرت جيش محارب

فهذه نظرة له تستوعب تاريخ المال كلّه . كما ان قوله من ثانية :

وأتعب خلق الله من زاد همّه   وقصّر – عمّا تشتهي النفس – وجده
فلا ينحلل في المجد مالك كلّه   فينحلّ مجد كان بالمال عقده
ودبّره تدبير الذي المجد كفّه   إذا حارب الاعداء ، والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله   ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

يعيد إلى المال اعتباره الاقتصادي الصحيح . كما ظهرت آثاره اليوم في حضارة الغرب المادّية .

فمن الامثلة على نظرة الطائر – عند المتنبي – قوله الفصل في الرأي والشجاعة :

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول ، وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس مرّة (١)   بلغت من العلياء كلّ مكان

١ مرة بالكسر ومعناها قوة الخلق وشدته أو اصالة العقل وهو ما أراده المتنبي . وبعضهم يرويها مرة بالضم اي ضد الحلو ، وبعضهم يجعلها مرة بالفتح أي ولو مرة ، اما ابناء العصر فقد أحالوها إلى حرة ، تشبثاً بمعنى الحرية الّتي يفتقدونها ، ولم ترد عن العرب بهذا المعنى مقرونة بالنفس وانما تقرن عندهم الصفة بالوجه فيقولون وجه حر ، فكل ما جاوز اذن معناها بالكسر ليس بشيء .

(مرّة بالكسر شدّة الشكيمة أو اصالة العقل) .

فالمتنبي يجعل للعقل الحجّة البالغة ، في الحدود التي يخترق فيها نوره حجب الظلام .

ولربّما طعن الفتّى اقرانه بالرأي ، قبل تطاعن الاقران
لولا العقول .. لكان ادنى ضيغم ادنى إلى شرف من الانسان

وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه .

وقوله في الجبن والشجاعة :

ارى كلّنا يبغي الحياة بسعيه حريصاً عليها ، مستهاماً بها ، صبّا
فحبّ الجبان النفس اورده التقى وحبّ الشجاع النفس اورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى ان يرى احسان هذا لذا ذنبا

وفي صفاء الحياة وكدرتها :

تصفو الحياة لجاهل ، أو غافل عمّا مضى منها وما يتوقّع
ولمن يغالط في الحقيقة نفسه ويسومها طلب المحال ، فتطمع

وفي جوهر السيادة :

لولا المشقّة ، ساد الناس كلهم الجود يفقر ، والاقدام قتّال
وانما يبلغ الانسان طاقته ما كلّ ماشية بالرحل شملال

وفي تنازع البقاء :

إنما انفس الانيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
كلّ غاد لحاجة يتمنى ان يكون الغضنفر الرئبالا
من اطاق التماس شيء غلابا واغتصاباً ، لم يلتمسه سؤالا

وفي متاع الدنيا :

أبداً تستردّ ما تهب الدنـ ـيا ، فيا ليت جودها كان بخلاً

فكففتْ كون فرحة تورث الغـ ـم ، وخلّ يغادر الوجد خلاّ
وهي معشوقة على الغدر ، لا تحـ ـفظ عهداً ، ولا تتممّ وصلا
كلّ دمع يسيل منها .. عليها وبفكّ اليدين عنها تخلّى
شيم الغانيات فيها ، فما ادر ي لذا أنّث اسمها الناس ، ام لا

وفي معنى الخلود :

سالم أهل الوداد ، بعدهم يسلم للحزن ، لا لتخليد
فما ترجّى النفوس من زمن احمد حاليه غير محمود

وفي أحوال أهل الأرض :

وقد فارق الناس الاحبة قبلنا وأعيى دواء الموت كل طبيب
سبقنا إلى الدنيا ، فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب
تملّكها الآتي تملّك سالب وفارقها الماضي فراق سليب

وفي أسر الهوى :

لو فكّر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه ، لم يسبه
لم ير قرن الشمس في شرقه فشكّت الانفس في غربه

وفي غرور الحياة :

يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبّه
وربّما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربه
وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه

وفي صداقة العدو :

ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرى عدوّاً له ما من صداقته بد

زعم بعضهم انه كان على المتنبي ان يقول « مداجاته » أو « مداراته »

تحاشياً لمعنى الخلوص والمودة في كلمة الصداقة ، وفاته ان النظرة هنا لا تقف عند حادث يزول بزوال أسبابه ، بل هي نظرة الطائر التي ترى هذا النكد يلازم الحياة في رؤية عدو ما من « صداقته » (١) أي « مصادقته » (بالمعنى المشتقّ من الصدق) بدّ . والمتنبي يعني هنا الصداقة والعداوة في صفات النفس التي تتآلف أو تتخالف — كما سبقت الاشارة اليه — لا فيما يكون من متاع الدنيا في أيدي الناس، ويلقي ضوءاً على كلّ هذا قوله إلى عضد الدولة :

فلو كانت قلوبهم صديقاً لقد كانت خلائقهم عداكا

أي لو كانت قلوبهم مصادقة لك ، لكانت أخلاقهم عدوة لك لمضادّتها لاخلاقك .

وفي بناء الممالك :

اعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبّيهنّ كالقبل
وما تقرّ سيوف في ممالكها حتى تقلقل دهراً قبل في القلل

وفي نجابة الخيل :

وما الخيل الا — كالصديق — قليلة وان كثرت في عين من لا يجرّب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها واعضائها ، فالحسن عنك مغيّب

---

١ قال ابو علي : قيل للمتنبي : على من تنبأت ؟
قال : على الشعراء .
فقيل له : لكل نبي معجزة ، فما معجزتك ؟
قال : هذا البيت .

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ، ما من صداقته بد

ولا وجه لاختصاصه إلا على ضوء هذا التأويل .. تأويلنا ... الذي يضرب بجذوره في علم النفس ، كما توصل اليه المحدثون .

وفي كرامة النفس :

قد هون الصبر عندي كلّ نازلة وليّن العزم حدّ المركب الخشن
كم مخلص وعلىً في خوضِ مهلكة وقتلة – قرنت بالذم – في الجبن

وهذه النظرة إذا ألقاها على ممدوحيه جاءك بمثل قوله إلى سيف الدولة :

نهبت من الاعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

وقوله فيه :

فلما رأوه وحده دون جيشه دروا انّ كلّ العالمين فضول

وقوله :

فلا تنلك الليالي ، ان ايديها إذا ضربن ، كسرن النبع بالغرب
ولا يعنّ عدواً أنت قاهره فانهن يصدن الصقر بالخرب

وقوله إلى ابن العميد :

تفضّلت الايام في بالجمع بيننا فلمّا شكرنا ، لم تدمنا على الحمد

وقوله إلى كافور :

ولكنّك الدنيا إليّ حبيبة فما عنك لي إلا اليك ذهاب

وقوله إلى بدر بن عمّار :

أغرُّ .. أعداؤه إذا سلموا بالهرب ، استكبروا الذي فعلوا

وقوله في بعض من عاشرهم :

ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله ويجهل علمي انه بي جاهل

وقوله في بعض من فتن بها :

بدت قمراً ، ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ، ورنت غزالا

وقوله في وصف زورة الخفاء :

كم زورة لك في الاعراب خافية أدهى ، وقد رقدوا ، من زورة الذيب
ازورهم وسواد الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغري بي

وقوله في وصف فظاعة الحرب :

لجياد يدخلن في الحرب اعرا ء ، ويخرجن من دم في جلال
واستعار الحديد لوناً ، والقى لونه في ذوائب الاطفال

ولعلك لم تنس قوله في خيل الروم المغيرة ، فألق معه عليها الآن – من جديد – نظرة الطائر :

وخيل حشوناها الاسنة ، بعد ما تكدسن من هنّا علينا ومن هنّا
ضربن الينا بالسياط جهالة فلما تعارفنا ضربن بها عنا

أي انها كانت تضرب بالسياط حثّاً لها في الزحف ، فلما تعارف الجيشان توالى ضربها بالسياط لوذاً بالفرار .

وأخيراً تأمّل نظرته في حياته هو :

اهمّ بشيء ، والليالي كأنها تطاردني عن كونه ، واطارد
وحيد من الخلاّن في كل بلدة إذا عظم المطلوب ، قلّ المساعد

ورأيه في عوامل الخيبة والنجاح :

والامر لله .. ربّ مجتهد ما خاب إلا لأنّه جاهد

وكلمته الحاسمة في سعادة الناس وشقائهم :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

لتدرك من أيّ علوّ شاهق كان يلقي هذا الشاعر نظرته السارحة ...

نظرة العُقاب .

* * *

اذكر اني قلت مرة في أثناء حديث لي عن « الطباق » جرى فيه ذكر المتنبي(١) :

لقد كان للمتنبي — وهو الشاعر الحكيم — الحظ الاوفر في المقابلة بين مأساة الحياة ونعيمها على طريقته الفذّة ... لنفاذ نظرته في الحقائق . فمن الخير ان تطيل — معي — التأمل في بعض أبيات له ، لا نشك انها كانت — كأخواتها — ثمرة تجارب العمر في حياته الحافلة بالعبر ، لتدرك إلى أي مستوى كانت تتطاول روح هذا الشاعر العظيم لتلقي — من علٍ — في شؤون الخلق نظرتها السارحة .

فما كان ليتسنى لغير هذه الروح (التي تشرف على الحياة من علٍ) أن تدير في آفاقها الواسعة نظرة الطائر ، فتجمع بذلك — في نظرة خاطفة — بين الضدّين .. فيما سماه البديعيون « بالطباق » .

ثم مضيت في التمثيل ببعض أبيات ، ممهداً لها بقولي :

فمن غيرُه رجّع على رؤوس الاشهاد بمثل صوته الجهوري :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

فكأن في هذا البيت وحده عبرة الحياة كلها ، أو :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وكأن في هذا البيت حسماً نهائياً للتنازع الذي ما برح

---

١ راجع « جولة في الشعر العربي المعاصر » — النظرة الانسانية .

في بعض الاذهان السقيمة قائماً بين الحضارة والبداوة ، أو :

فكثير من السؤال اشتياق وكثير من ردّه تعليل

وكأن في هذا البيت أصدق صورة نفسية للحيرة التي يقع فيها من طال عليه الانتظار . فليست المسألة – عنده – مسألة طباق (بالمعنى البديعي المفهوم) وانما هي النفاذ بشعاع البصيرة إلى كل خبايا الطين .

وختمت الحديث بقولي :

وفي الحق ان الدوافع التي تدفع الملهمين على الطباق هي – في صميمها – الاهتداء إلى موضع العبرة في تجاربنا الارضية ، التي لا تخلو كل أحداثها في أظلم ساعاتها من جانبها المضيء . ومن يقدر ان يستخلص هذه العبرة إلا ذوو البصيرة النافذة من أبنائها الذين تخلص لهم الفطرة ، فيتجردون – ساعة التجلي – من نير الاهواء ، لئلا يخذلهم في تجربتهم التوفيق ، ويتسع أفقهم حتى يشمل الانسانية كلها ؟

والمتنبي ما كانت تفارقه هذه النظرة أبداً . تأمّل حتى في قوله إلى سيف الدولة بعد ايقاعه ببني كعب :

ولو لم تبق ، لم تعش البقايا وفي الماضي لمن بقي اعتبار

فهذا هو للذي يحدث في أعقاب كل حرب ... قديماً أو حديثاً . فلو لم يبق « الحلفاء » مثلاً ، لم تعش البقايا في الحرب العالمية الاخيرة من اليابانيين أو الالمان ، رغم ملايين الضحايا من الجانبين . ويصح أيضاً فيهما كليهما القول كما صح قبلاً في بني كعب : وفي الماضي لمن بقي اعتبار . هذا في الاحوال التي يفرض فيها التسليم على الخصم عنوة .. بدون قيد أو شرط .. كما جرى على هؤلاء . أما إذا كان الحليف هو

الذي قد جاء منقذاً لمن استسلموا وباتوا يتعرّضون للهلاك ، فلا أكثر انطباقاً على حالهم من قول المتنبي أيضاً إلى سيف الدولة ، وقد لبّى الثغور التي كادت تستسلم بعد أن طوّحت جيوش النصرانية بطرسوس ، فبات سهم أهلها تحت الرحمة .

بذا اللفظ ناداك أهل الثغور فلبّيت ، والهام تحت القضب
وقد يئسوا من لذيذ الحياة فعين تغور ، وقلب يجب

* * *

سبقت اليهم مناياهم ومنفعة الغوث قبل العطب

ومحل الشاهد هنا هو هذا البيت الاخير . فانّ لفظه بمعناه ينطبق كل الانطباق على وضع «ستالنغراد» و «لننغراد» في الحرب الاخيرة ، وكيف نجتا من براثن الموت على أيدي المنقذين .

أمّا نظرة هذا الطير الجارح إلى الحياة ، ومتطلّباته هو منها ، فقد ركّزها بما لا مزيد عليه في قوله :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم
يرى الجبناء ان العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكلّ شجاعة في المرء تغني ولامثل الشجاعة في «الحكيم»

قيل له : أنّى يكون الشجاع حكيماً ؟ فقال : هذا علي بن ابي طالب .

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

فهو قد عاش لهذه النظرة ، حتى قضى جارحاً كالعقاب .

الباب الحادي عشر

الفِطرة الواعِيَة

أظنّ اننا قد وفّقنا – الآن – في تحليل « طريقة » المتنبي الفذّة إلى عواملها الاولى ، باجتزائنا في تناول مميزاته ، التي طبعت اسلوبه بطابعها الخاص ، على أهمها وأبرزها للعيان (١) . وهي :

(أ) الصراحة الجارحة

(ب) دقّة الملاحظة

(ج) الاستقصاء الفنّي في التمثيل

(د) نظرة الطائر

مزوّدة عنده – كما رأينا – بالثقافة العميقة ومدعمة بالفطرة الواعية . وكنت قد قلت في موضعه : إنما تشرف عليها جميعاً الفطرة الواعية .

---

١ يدخل في هذه المميزات أيضاً « نجوى النفس » ، ولكنا تحدثنا في هذه الفنا ة الخاصة عند شاعرنا بما فيه الكفاية . راجع فصل « لمن كان ينظم المتنبي ؟ »

فما هي هــذه « الفطرة الواعية » الـتي لم تخن صاحبها في حياتــه أبداً ؟ وكيف نستطيع ان نتلمّس أثرها في شعر هذا الشاعر العظيم ؟

يختلف عمل الفطرة في الطير الجارح عن نظرته السارحة ، فهو إذا سرّح نظره إنما يلمّ بالآفاق المترامية حوله ، بينما إذا لجـأ إلى فطرته عرف ما يأتي وما يدع ، مهما اختلفت الظروف والاحوال . ويدخل عمل الفطرة اليوم في دعم الحقائق الـتي يجلوها علم النفس عن « طبائع النفس ... وأهواء القلوب ... وأغراض الحياة » . وكأنما كان المتنبي في هذه الامور – كما ذكرنا(١) – ينطق بلسان الحياة « الأم » نفسها .

تأمّل قوله في الحياة مثلاً :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس ، واشهى من ان يملّ ، واحلى
وإذا الشيخ قال : أفّ ! فما ملّ حياة ، وانما الضعف ملاّ
آلة العيش صحّة وشبـاب فاذا ولّيا عن المرء ، ولّى

فان هذه الابيات هي خالصاً من وحي الفطرة ، بينما الابيات الـتي تليها في القصيدة مباشرة هي نظرة الطائر السارحة إلى هذا المتاع المردود :

أبداً تستردّ ما تهب الدنيـا فيا ليت جودها كان بخـلا
فكفت كون فرحة تورث الغمّ وخلّ يغادر الوجد خـلاّ
وهي معشوقة على الغدر ، لا تحفظ عهداً ، ولا تتمّم وصلا
كلّ دمع يسيل منها .. عليهـا وبفكّ اليدين عنها تخلّـى
شيم الغانيات فيها ، فما أدري لذا أنّث اسمها الناس ، أم لا

كما سبق أن تمثّلنا بها في حينه .

وكذلك قوله في هذه القصيدة – قبل هذه الابيات مباشرة – في الثكلى :

---

١ راجع الفصل نفسه .

وإذا لم تجد من الناس كفوءاً ذات خدر ، أرادت الموت بعلا

حقيقة نفسية عميقة ، فان معناه غير خاص بالمرثيّة ومنتزع من الفطرة ، ونستطيع على ضوئه ان نعلّل هذه الحوادث الكثيرة للانتحار عند نوع من الفتيات .

والمتنبي كثير التأمّل في شؤون الحياة والموت ، ولكن تفكيره دائماً على هدى الفطرة ، لا ينساق كغيره وراء الاوهام . تأمّل قوله :

الف هذا الهواء اوقع في الأنفـ س ان الحمام مرّ المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

وقوله :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه ؟
تبخل ايدينا بأرواحنا على زمان ، هي من كسبه
فهذه الارواح من جوّه وهذه الاجسام من تربه

وقوله :

تمتّع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فانّ لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

قال ابن جنّي : أرجو ان لا يكون أراد بذلك انّ نومة القبر لا انتباه لها . مسكين ابن جنّي !

والمتنبي نفسه يسلّم من تفكيره بالعجز في هذه القضيّة .

تخالف الناس ، حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب ، والخلف في الشجب
فقيل : تخلص نفس المرء سالمة وقيل : تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكّر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

فهذه هي النتيجة المعقولة التي يمكن ان يصل اليها ، في قضيّة هي خارجة عن نطاق العقل ، ذهن صحيح التفكير لا يعوّل إلا على فطرته (١) .

* * *

وعلى هذا النهج من وحي الفطرة قوله :

لا يخدعنّك من عدو دمعه   وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى   حتّى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس ، فان تجد   ذا عفة ، فلعلّة لا يظلم

تأمّل قوله : ذا عفة ، ثم سائل نفسك ، ما هي تلك العلة ؟..

---

١ تخطر للدكتور طه حسين عند قول المتنبي :

يدفن بعضنا بعضاً ، ويمشي   أواخرنا على هوام الاوالي
وكم عين مقبلة النواحي   كحيل بالجنادل والرمال
ومغض .. كان لا يغضي لخطب   وبال .. كان يفكر بالهزال

الفلسفة العلائية . فيخبرنا هنا ، وفي مواطن شتّى من كتابه الهزيل « مع المتنبي » ، ان هذا الشعر كان نواة فلسفة المعري .

قال الاستاذ مارون عبود معلقاً عليه : قد زعم حقاً ؛ ولكن النواة لا تؤدي المعنى تاماً ، فالمعري في نظري ، شارح لكليات قررها ابو الطيب في شعره ومضى ، كما يفعل الشاعر ، فجاء هذا الضرير يكبرها ، فأفقدها الكثير من روعتها الفنية . راجع كتابه « الرؤوس » .

أما رأينا فهو ان المعري في أكثر أحواله انما يجتر ما يقع له من أقوال الحكماء لا غير ، ولذلك يكثر التناقض في شعره . تأمل هذا التناقض الظاهر لرأيه في المرأة ، وقد عاش أعزب رهين المحبسين بين قوله :

اذا شئت يوماً ان تقارن حرة   من الناس ، فاختر أصلها ونجارها

وقوله : وسيان من امه حرة   حصان ، ومن امه زانية

وشتان بين « حكمة » تنزع إلى صروف الحياة وسننها ، و « فلسفة » تنزع إلى مصادر الحياة ومصائرها . فان هذه مشمسة حجتها في الشاهد والعيان ، وتلك مغيمة قوامها الحدس والتخمين .

وخبرها – ان اردت – عند علماء النفس بلا شك .

ومن البليّة عذل من لا يرعوي عن غيّه ، وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضرّ ويؤلم

وقوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

وقوله :

وما كل هاو للجميل بفاعل ولا كلّ فعّال له بمتمّم
واحسن وجه في الورى وجه محسن وأيمن كفّ فيهم كفّ منعم
وأشرفهم من كان اشرف همّة وأكثر اقداماً على كلّ معظم
لمن تطلب الدنيا ، إذا لم ترد بها سرور محبّ ، أو اساءة مجرم ؟

وقوله :

علينا لك الاسعاد ، إن كان نافعاً بشقّ قلوب ، لا بشقّ جيوب
فربّ كئيب ليس تندى جفونه وربّ كثير الدمع غير (١) كئيب

١ لو كان ابو تمام – او البحتري – بصدد هذا المعنى لما فوت على نفسه ان يقول : ورب ندي الجفن ، حرصا على رد العجز على الصدر ، ولكان بذلك قد فوت على نفسه هذا الاستقصاء للاختلاف الدقيق – في عالم النفس – بين المعنيين .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد :

« ليس الشعراء الذين نتلقى غناءهم كما نتلقى غناء البلبل فياضاً مرتجلا لا حبسة فيه ولا جهد ولا علاج هم الشعراء الذين تسهل عليهم الصياغة ويلين لهم مقاد الكلام . فقد كان البحتري أسلس من المتنبي نظماً واسرى إلى النفس نغماً وأعذبه في الذوق مساً . وكان مع هذا يعاني في النظم ما لم يكن يعانيه المتنبي الذي لا تسمع منه تلك الصيحة البلبلية الدافقة الطيعة ولا تتوسم على قصائده ذلك السخاء الفياض بالخواطر والعبارات . وربما حذف البحتري نصف القصيدة لتسلم له السلامة في بقيتها ، ولم يكن المتنبي يفرط في بيت مما يقصد معناه . »

أما عندنا فتعليله بسيط ، لأنه كان يعني – في مجال الجد – كل كلمة فيما يقول .

وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء ، أو سكون لغوب

أي إمّا انه يتعزّى بالصبر ، أو يعجز اعياء . وقوله :

وفي الاحباب مختصّ بوجد وآخر يدّعي معه اشتراكا
إذا اشتبهت دموع في خدود تبيّن من بكى ممن تباكى

وقوله :

اني لأجبن من فراق احبّتي وتحسّ نفسي بالحمام فأشجع
ويزيدني غضب الاعادي قسوة ويلمّ بي عتب الصديق فأجزع

وقوله :

توهّم القوم انّ العجز قرّبنا وفي التقرب ما يدعو إلى التهم
ولم تزل قلّة الانصاف قاطعة بين الرجال ، ولو كانوا ذوي رحم

يقول فيها :

هوّن على بصر ما شقّ منظره فانّما يقظات العين كالحلم
ولا تشكّ إلى خلق ، فتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

وهذا حكم نافذ في سرائر النفوس ، وان اصطبغ هنا بصبغة التشاؤم ... لظروف المتنبي الخاصة .

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرّك منهم ثغر مبتسم

وقوله :

أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه فما طلبي منها حبيباً تردّه
واسرع مفعول فعلت تغيّراً تكلّف شيء في طباعك ضدّه

وقوله :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّم

وعادى محبّيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشكّ مظلم

وكلها معانٍ نفذ اليها علماء النفس أخيراً ، وقرروها في كتبهم . أفلا يحقّ لصاحبنا اذن أن يقول :

اصادق « نفس » المرء من قبل جسمه واعرفها في فعله والتكلّم

مثل هؤلاء العلماء ؟

* * *

ولعلّ من الشائق هنا ان نرى أي موقف كانت تدعو هذا المليك اليه فطرته بالنسبة إلى المرأة وجمالها . انه كان — وهو في هذا انما يمثل المبادئ العلوية(١) — يرى المرأة نبع الجمال في الطبيعة كلها ومصدر الاشعاع . وقد مرّ بك قوله :

سقانا ، وحيّانا بك الله إنما على العيس نور ، والخدور كمائمه
وما حاجة الاظعان حولك في الدجى إلى قمر ؟ ما واجد لك عادمه

وعنده ان لباس المرأة يجب أن يخدم غرضاً واحداً .

لبسن الوشي لا متجمّلات ولكن كي يصنّ به الجمالا
وضفّرن الغدائر ، لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

وهذا يدلك على فتونه بالشعر الطويل .

وانها هي التي تدفع بالهمم إلى غاياتها البعيدة ، وتحيي الهمم — بنظراتها — وتحيّيها ، فاذا ظفرت منها العيون بنظرة .. ولو خاطفة ، زال عنها الاعياء وتابعت سيرها السوي مهما لاقت من المشقّة :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة اثاب بها معيي المطيّ ورازمه

---

١ راجع الفصل « صبي في المكتب » .

وعنده ان جمال المرأة هذا كل زاد المسافرين في رحلتهم الأرضية .. إلى أن يوارى معالمها التراب :

زوّدينا من حسن وجهكِ ، ما دا م ، فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا ، نصلك في هذه الدنـ يا ، فان المقام فيها قليل

وكان هو ينظر إلى حسن المرأة نظرته الفطريّة الصحيحة :

ما أوجه الحضر ، المستحسنات به كأوجه البدويّات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام – ناظرة ، وغير ناظرة – في الحسن والطيب

وعنده ان العزّة في حسن المرأة هو في عزّة رجالها الذابّين عنها :

ديار اللواتي دارهنّ عزيزة بطول انقنا يحفظن ، لا بالتمائم

وكان يؤمن لذلك ان للمرأة طبيعة انثويّة تختلف عن طبيعة الرجال :

أتراها لكثرة العشّاقِ تحسب الدمع خلقة في المآقي ؟

قال الامام علي : خيار خصال النساء شرار خصال الرجال – الزهو والجبن والبخل .

وانّها إذا اخلصت إلى طبيعتها ، برزت شخصيتها الفاتنة التي لا تفتن المعشوقة بدونها ... وكذلك المربية الام .

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ، ولا صبغ الحواجيب
ولا خرجن من الحمّام ، مائلة اوراكهنّ ، صقيلات العراقيب
ومن هوى كلّ من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

أي انه لا يلبس المكياج للتغرير بالناس ... أو النساء ، وتذكّر أيضاً حنينه إلى جدّته وما قال في رثائها هناك .

ونظرته إلى الشيب – على فكرة – نظرة فطرية صحيحة ، فهو يقول مثلاً :

مشبّ الذي يبكي الشباب مشيبه فكيف توقّيه ، وبانيه هادمه ؟

ولا يلوم الناس على الخضاب :

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ، ولكن احسن الشعر فاحمه

فهذا هو موقف المتنبي من المرأة ونظرته اليها في البداوة .. والحضارة. وقد كان لهذا القلب الكبير شأن مع قلب كبير آخر ، هو قلب خولة أخت سيف الدولة ، التي لعلك تتذكر قصيدته في رثائها :

يا أخت خير أخ ، يا بنت خير أب كناية بهما عن اشرف النسب

وقد نزل عليه خبر موتها ، وهو بالكوفة ، كالصاعقة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه املا شرقت بالدمع ، حتى كاد يشرق بي

والفضل في كشف النقاب عن هذا الجانب الخفي من حياة المتنبي يرجع إلى أخي الاستاذ محمود محمد شاكر ، في دراسته القيمة عن المتنبي ، وان كان لي أن أتمنى عليه شيئاً ، فهو ان يستكمل كتابه هذا – كما طلبت منه مرة – ويوسّعه – كما وعد بنفسه – في اربعة مجلّدات .

فمن شاء أن يدرس هذه المأساة من حياة المتنبي ، فلن يجد خيراً من هذا الكتاب . ويكفينا منها هنا ان نجدها حتى في هذه القصيدة التي رثاها بها مفجوعاً :

قد كان كلّ حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يا أرض بالحجب ؟
ولا رأيت عيون الانس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب ؟

وهل سمعت سلاماً لي ألمّ بهـــا فقد أطلت، وما سلّمت من كثب (١)

ويكاد قلب المتنبي الكبير يتقطّع حسرة بعد هذا البيت ، فاسمعه وكأنه يبكي :

وكيف يبلغ موتانا الـتّي دفنـــت وقد يقصّر عن احيـــائنا الغيـــب

وهو إحساس فطري له ، فقد قضى حياته كلّها بعد مفارقة سيف الدولة — كما تعلم — بعيداً عنها ، يتألّم لفراقها .

وعند الاستاذ الشاكر — ان شئت — التفصيل .

* * *

---

١ قال الصاحب : وما باله يسلم على حرم الملوك ، ويذكر منهن ما يذكره المتغزل ، في قوله :

يعلمن ، حين تحيي ، حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشـــنب

وكان ابو بكر الخوارزمي يقول : لو عزاني انسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها .

كل ذلك لأن نظرتهما إلى المرأة تختلف كل الاختلاف عن نظرة الرجل .

١ قال الاستاذ مارون عبود :

ان في هذه القصيدة شبهة تدعم ظن الاستاذ محمود . فما حدث بين المتنبي وسيف الدولة وابني عمه يثير شكاً قوياً . ولم يخاف الشاعر ليعقب على قوله :

يظن ان فؤادي غير ملتهـــب وان دمع جفوني غير منسكب

بقوله : ولا ذكرت جميلا من صنائعهـــا إلا بكيت ، ولا ود بلا سبب

فمثل هذا التبسط ، بل مثل هذا التعليل لا يطلب من الشعراء . انها عاطفة حاول الشاعر اخفاءهـا فأبت إلا أن تمد أذنيها ، وتظهر بصورة لا تخفى على متأمل لا هوى له .

ثم بماذا نعلل هذا الحنين الدائم إلى سيف الدولة وهو مصطبغ بالوان الحب اشد اصطباغ :

رحلت ، فكم باك بأجفان شادن علي ، وكم باك بأجفان ضيغـــم

ولو ان ما بي من حبيب مقنع عذرت، ولكـن من حبيب معمم

رمى، واتقى رميي، ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي

وما معنى ذلك الائتمار بقتل الشاعر العظيم وقد تشاركت فيه الاسرة الحمدانية من انطاكية إلى حلب ومنبج ، اتبرؤه الاسباب « الأدبية » التي رواها المؤرخون ؟ ولماذا دعا الامير شاعره بعد موت

وفي ديوان المتنبي (ان أردت أن تقف عند مفردات الابيات) عالم زاخر من معاني علم النفس ، أوحت بها له كلّها فطرته الواعية ، فما أشبهها بالنجوم التي يهتدي بهديها السالكون . كقوله :

إذا كان مدح ، فالنسيب المقدّم   اكلّ فصيح ، قال شعراً ، متيّم؟

وكان مثل هذا السؤال جد غريب على عصره في مذهب المديح . (١)

وقوله :

وبي ما يذود الشعر عنّي أقلّه   ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قلّب

وقوله :

وفيك إذا جنى الجاني أناة   تظنّ كرامة ، وهي احتقار

وقوله :

انما انت والد ، والاب القا   طع أحنى من واصل الأولاد

وقوله :

ترفّق ايها المولى عليهم   فانّ الرفق بالجاني عتاب

وقوله :

الام طماعيّة العاذل   ولا رأي في الحبّ للعاقل؟

خولة ، ولم يستدعه حين كتب اليه أول مرة ؟

كل هذا يقرب زعم محمود من الحقيقة .   راجع « الرزوس »

ونضيف نحن إلى هذا ظاهرة لاحظناها أيضاً أثناء دراستنا شعر هذا الشاعر ، فهو كثيراً ما يبوح بما يبوح – جرياً على صراحته – في انصاف أبيات ، ثم يكملها بما يصرفها عن معناها الاصلي ... ليشبه على السامعين . تأمل قوله في موقفه التاريخي المشهود بمجلس سيف الدولة :

مالي اكتّم حباً قد برى جسدي ؟   ثم تجده في شطره الثاني يقول :

وتدعي حب سيف الدولة الامم   صرفاً عن مراده الحقيقي .

١ راجع فصل « المفتاح لتراث العرب الشعري » .

يراد من القلب نسيانكم　　　وتأبى الطباع على الناقل

وقوله :

يخفي العداوة وهي غير خفيّة　　　نظر العدوّ بما اسرّ يبوح

وقوله :

تلف الذي اتّخذ الجراءة خلّة　　　وعظ الذي اتّخذ الفرار خليلا

وقوله :

وإذا ما خلا الجبان بأرض　　　طلب الطعن وحده والنزالا

وقوله :

تمنّ . . يلذّ المستهام بمثله　　　وان كان لا يغني فتيلاً ، ولا يجدي

وقوله :

ابلغ ما يطلب النجاح به الطبـ　　　ـع ، وعند التعمّق الزلل

وقوله :

وإذا كانت النفوس كباراً　　　تعبت في مرادها الاجسام

وقوله :

والهم يخترم الجسيم نحافة　　　ويشيب ناصية الصبيّ ويهرم

وقوله :

وضاقت الأرض،حتّى صار هاربهم　　　إذا رأى غير شيء . ظنّه رجلا

وقوله :

وما ذاك بخلاً بالنفوس على القنا　　　ولكن صدم الشر بالشرّ احزم

وقوله :

ذلّ من يغبط الذليل بعيشٍ ربّ عيش أخفّ منه الحمام

وقوله :

الحبّ ما منع الكلام الالسنا وألذّ شكوى عاشق ما أعلنا

وقوله :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكنّ أمانيا

وقوله :

وبيننا – لو رعيتم ذاك – معرفة ان المعارف ، في أهل النهى – ذمم

وقوله :

إذا ترحّلت عن قوم ، وقد قدروا ان لا تفارقهم ، فالراحلون هم

وقوله :

لهم حقّ بشركك في « نزار » وادنى الشرك في اصل جوار

وقوله :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

وقوله :

وكلّ يرى طرق الشجاعة والندى ولكنّ طبع النفس للنفس قائد

وقوله :

ولم يسلها إلا المنايا ، وإنما أشد من السقم الذي اذهب السقما

وقوله :

وقد يتزيى بالهوى غير أهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه

وقوله :

انّ خير الدموع عوناً لدمعٌ بعثته رعاية فاستهلاّ

وقوله :

تشرق اعراضهم واوجههم كأنها في نفوسهم شيم

وقوله :

كلّ ما لم يكن ... من الصعب في الانفس ، سهل فيها إذا هو كانا

وقوله :

وأفجع من فقدنا ، من وجدنا قبيل الفقد ، مفقود المثال

وقوله :

وإذا اتتك مذمّتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقوله :

انّما تنجح المقالة في المر ء ، إذا صادفت هوى في الفؤاد

وقوله :

افاضل الناس اغراض لذا الزمن يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

وقوله :

أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وقوله :

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الانسان ما يصم

وقوله :

خير الطيور على القصور ، وشرها يأوى الخراب ويسكن الناووسا

وقوله :

كتيبة لست ربّها نفــل　　وبلدة لست حليهـا عطل

وقد دعا فخر الدولة بن بويه وزيره الصاحب بن عباد ان يختار له من شعر المتنبي ما يجري مجرى الامثال ، فاختار له ٣٧٠ بيتاً (١) ، وهو من نعلم بغضاً للشاعر ، في رسالة قال في مقدمتها : « وهــذا الشاعر مع تميّزه وبراعته وتبريزه في صناعته ، له في الامثال خصوصاً مذهب يسبق بــه امثاله » ، والفضل ما شهدت به الاعداء ، وان كان الصاحب يجهل يقيناً من أين كان مأتاها .

وفطرة المتنبي أخيراً هي التي جعلته يحكم بأحكام ، ربما اختلف أمرها الآن عند الناس ، في مثل قوله :

العبد ليس لحرّ صالح بـأخ　　لو انّه في ثياب الحرّ مولود
لا تشترِ العبد ، إلا والعصا معــه　　إن العبيـد لأنجـاس مناكيـد

ومن عرف حكمه في الناس جملة ، لا يستغرب له مثل هذا الحكم في فئة منهم . وقوله :

ولو كنت في اسر غير الهوى　　ضمنت ضمان ابي وائــل
فدى نفسه بضمان النضـــار　　واعطى صدور القنا الذابـل

وهو ما يعنونه في لغة السياسة اليوم « قصاصة الورق » .

فهذا الذي جعل شعره يتألق بمميزات اسلوبه — كما قدّمنا — على تلك « الطريقة » الفذّة . التي عرفناه بها . تشرف عليهنّ جميعاً فطرته الواعية .

---

١ راجع كتاب « انوار الربيع في انواع البديع » لابن معصوم .

الباب الثاني عشر

تطوير المعنى التقليدي

بقيت ناحية واحدة من فنّ المتنبي كانت وبالاً على عبقريته ، تلك هي الناحية التي ظلّت نصب الاعين – أكثر من سواها من نواحي تلك العبقريّة – موضع النظر والتساؤل دائماً عند « اسرة الفنّ » – إعجاباً وتقديراً عند قداماهم ، ومؤاخذة وتجريحاً عند المحدثين .

وهذه الناحية في الواقع لا تتعلّق بـ « الطريقة » الفذّة التي له في البيان ، ولا بميزات شعره الكبرى التي تقوم عليها تلك الطريقة ، وانما تتعلّق بهامش هذه الطريقة اماما ، إذ قد قام بها الشاعر – نزولاً على حكم عصره(١) – التزاماً لطبيعة فنّه في مذهب المديح ، ناشئة عن أسباب موغلة في التاريخ العربي لا نجهلها الآن ، لأننا قد مهدنا لها بالبيان تفصيلا (٢) .

---

١ راجع الفصل « لمن كان ينظم المتنبي ؟ »

٢ راجع الفصل « المفتاح لتراث الشعر العربي » .

ولكن مما يؤسف له ان النقاد في عصر المتنبي كانوا – أول شيء – يبحثون عن هذا النوع لا غير (من التطوير في المعاني .. اختراعاً أو توليداً) في آثار كلّ من نظم شعراً، ويوجّهون اليه بحكم فنّيته عنايتهم، قبل أي شيء آخر، وكانوا يعتبرون ما يجدونه، في شعر الشاعر من اثر هذا التصوير، في رأس قائمة الحسنات للشاعر، تقديراً لابداعه الفنّي.

فالعين اللاقطة عند هؤلاء لم تر في شعر ابي تمام كله (مع انه أكثر المولدين – كما يقولون – معاني وتوليداً) الا ثلاثة شواهد لمعنى جديد عليهم، هكذا زعم القاسم بن مهرويه، احدها قوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

والثاني قوله:

بني مالك! قد نبّهت خامل الثرى قبور لكم، مستشرفات المعالم
غوامض .. قيد الكفّ .. من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلالم

والثالث قوله:

يأبى على التصريد الا نائلاً ان لم يكن محضاً قراحاً يمذق
نزراً كما استكرهت عائر نفحة من فأرة المسك التي لم تفتق

قال بعضهم: وهذا المعنى الثالث ما أروعه! ويكفي ان يكون وحده لأبي تمام.

بينما أصبح هذا النوع – بحكم تغيّر الاذواق – في عصرنا هو الشيء الذي تتلوّع له نفوس النقاد، كلما تعرقلوا بأمثاله، استكراهاً واستنكاراً، ويجعلونه في ميزان القيم أول شيء يحكم به لا للشاعر بل عليه، ويعتبرونه من السيئات التي لا تشفع معها أية حسنة أخرى.

وقد كان من هذا النوع مذهبهم في المبالغة والغلو الذي كان يأخذ به الشعراء أنفسهم أخذاً ، وقد قلنا عنه في فصل سبق (١) :

ان هذا المذهب في الغلو « عاهة » — نقولها بلا مبالغة — ابتلي بها الأدب العربي ، ولكن ليس المسؤول عنه المتنبي ، إذ كان فيه عالة على سواه . وإنما يقع اثمها على الشعراء قبله — عباسيين وأمويين — من اتخذوا الشعر صنعة صرفاً ، وأزجوه بضاعة للكسب في الاسواق ، ففتحوا بذلك الباب للعبث بالتراث العربي ، إذ دأب الشعراء بعدها — وصاحبنا في الطليعة — على التلاعب بالمعاني التقليدية ، وتقليبها على وجوه — مما دعوه « اخيلة شعرية » ، ونضيف هنا « بحكم التزام الشعراء لطبيعة فنّهم ، واستجابة منهم للنزعة الفنية »(٢) امعاناً في الصنعة ، حتى آل بهم الامر أخيراً إلى تقرير القاعدة المشئومة : أعذب الشعر أكذبه !

يستشهد صاحب اليتيمة مثلاً لباب « المدح الموجّه » بالبيت :

نهبت من الاعمار ما لو حويته   لهنّئت الدنيا بأنك خالد

فيقول : هذا المدح كالثوب له وجهان ، ما منهما إلا حسن . ويروى عن ابن جني قوله : لو لم يمدح ابو الطيب سيف الدولة إلا بهذا البيت وحده لكان قد أبقى فيه ما لا يخلقه الزمان .

ويستشهد لباب « حسن التخلص » بالبيت :

وغيث .. ظنّنا تحته ان « عامراً »   علا ، لم يمت ، أو في السحاب له قبر

فيعتبره من فرائده .

١ راجع الفصل « المتنبي بين شراحه وناقديه » .
٢ راجع الفصل « المفتاح لتراث العرب الشعري » .

ويستشهد لباب « حسن الحشو » بالبيت :

ويحتقر الدنيا احتقار مجرّب يرى كلّ ما فيها – وحاشاك – فانيا

فيقول : سبحان الله ، ما أحسن الحشو بقوله : وحاشاك ...

ويستشهد لباب « براعة الاستهلال » بالبيت :

أتُراها لكثرة العشّاق تحسب الدمع خلقة في المآقي ؟

فيقول : وهو ابتداء ما سمع بمثله ، ومعنى تفرّد بابتداعه .

ويستشهد لباب « النسيب بالاعرابيات » بالبيت :

ازورهم ، وسواد الليل يشفع لي وانثني ، وبياض الصبح يغري بي

فيقول : من قلائده ... ولعله امير شعره .

وأخيراً يستشهد لباب الابداع في سائر المدائح بالبيت :

ذكر الانام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

فيقول : وهذا البديع الفرد من أبيات هذه القصيدة .

فهذا كان كل ما يهم القوم من الشعر ... جانبه الفنّي .

على ان الشعراء لم يكونوا يعرضون مثل هذه البضاعة بين يدي الممدوحين أو يتنافسون في صنعها بين أنفسهم على اعتبار انها « الحقّ » الذي لا كذاب فيه . فهم أنفسهم كانوا يعرفون ان هذا الجانب « المترف » من فنهم نوع من العبث المحبّب الذي ارتضوه في الشعر بحكم ظروف مجتمعهم الذي كان لا يهيّئ لوحة لخلق الفنان وابتداعه إلا في هذا المجال الضيّق (من الاخيلة الشعرية) . وبآية ما تعرّض له الشعر نفسه – قبلهم –

من التطور عبر القرون الثلاثة الأولى (١) على هذا الغرار .

وكانوا يستملحون هذا العبث الفنّي في مذهب المديح ، وفي الغزل الذي كانوا يستهلون به قصائد المديح ، ولكنه لم يكن « كلّ شيء » في لوحات الفنانين ، لأن وراء هذا العبث كان يقوم « جدّ » صارم – عند المبرزين منهم كأبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز ممّن سبقوا المتنبي – كان يدركه الممدوحون ويعوّلون عليه في التقييم ... حتى فسدت الاذواق – بعد – بذهاب أهله ، وبقي امام المتأخرين هذا التراث من العبث واللهو مما لا يقوّمه أي جد لأن حياة المتأخرين الاجتماعية نفسها خلت من كل جد .

ومن هنا نشأ عند الطلائع قواعد سلوك لعرض البضاعة التزموها ايغالاً في الفنّ من براعة الاستهلال ، وحسن التخلص ، وبيت القصيد ومسك الختام ... وكلها لا تتعدى عندهم ملتزمات الصنعة التي تواطأوا على وضعها بينهم منافسة وابتهاراً ، فأخذها عنهم المتخلفون – كما سبق ان بيّنا – قضيّة مسلمة .

وقبل ان ننزل مع فنّاننا العبقري في هذا الميدان نود أن نقرّر انه كان من أول الخارجين – بحكم عبقريته على كثير من هذا الالتزام ،

---

١ راجع الفصل « تقصيد القصائد عند المتنبي » . وهذ الحكم يصح أيضاً في الادبين « الفارسي » و « الاردوي » اللذين بات يحسن فيهما من الشطحات الخيالية حتى ما يسوء موقعه عندنا ، نظراً لفطرتنا العربية ، ولاختلاف أثر التطور التاريخي في الآداب بيننا وبينهم . فهذان الادبان يمثلان – مثلنا – ظاهرة تصوير المعنى التقليدي في الشعر أقوى تمثيل ... وفيما يسمونه « الغزل » بصفة خاصة ، كما يركز شعراؤهما معنى « الوحدة » في البيت الفرد ... لا القصيد . تأمل قول غالب ، أكبر شعراء مسلمي الهند في غزلياته :

تيري وعدي برجني هم تويه جان جهوت جانا كهخوشي سي مرنہ جاتي اكراعتبار هوتا

(ان كنا عشنا على وعدك فذاك – فاعلم – لأننا كنا نعرفه كذباً ، والا فإنا كنا نموت له فرحاً لو كان لنا به أدنى اعتبار ؟)

توفي غالب قبل قرن من الزمان ، وكان « اقبال » يدين له بالاستاذية في عصرنا الحديث .

مما أنكره المنكرون عليه (كما رأيت) من معاصريه (١) ، فلم يعبأ بهم ولا بنقدهم بعد أن استقام لـه وجـه الطريق ... الذي شقّه لنفسه في الفنّ .

* * *

والآن إلى موضوعنا .

لقد كثرت اشارتنا إلى ما كان يجري عند الشعراء من تطوير للمعنى التقليدي ، فما هي هذه المعاني التقليدية . وكيف كان يجري تطويرها عند هؤلاء ؟ علينا أن نجيب على هذين السؤالين ، لأنه ما لم نفعل ذلك فلن نستطيع تفهّم ما سوف نسوق عليها من شواهد وأمثلة — أصبحنا نتنكّر لهـا الآن — من شعر « اسرة الفن » والشكل الذي انتهت اليه في شعر المتنبي بالذات ، ولعلّه كان يتعاطاها مثلهم — ولكن على كره — نزولاً على ذوق عصره(١) . ولذلك كان يخرج بها — في شطحاته — إلى حد الاحالة ، كقوله :

ولو قلم ألقيت في شقّ رأسـه   من السقم ما غيرت من خط كاتب

ولنبدأ بالجواب على السؤال الثاني : كيف كان يجري التطوير ؟

خذ على سبيل المثال قول حميد بن ثور في الذئب ، الذي لعلّك أُنسيته .

إذا ما غدا يوماً ، رأيت غمامـة   من الطير ينظرن الذي هو صانـع

فهذه صورة واقعية للذئب الذي يسترق الخطى في الصحراء ، وتحلق فوقه بعض الطيور تنظر ماذا يصنع انساً بجزره . فاذا اعتبرناها كالاصل لهذا المعنى واضفنا اليها قول الافوه الاودي :

وترى الطير عـلى آثارنـــا   رأي عـين .. ثقـة ان ستُمار

---

١ راجع الفصل « المتنبي بين شراحه وناقديه » .

أي انها على ثقة من الميرة .

رأينا كيف أحالها النابغة من الذئب إلى الجيش في قوله :

إذا ما غزوا بالجيش ، حلّق فوقهم عصائب طير ، تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقنّ ان قبيله إذا ما التقى الجمعان ، اول غالب

وهي صورة شعرية أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . فقد أخذها الشاعر قضيّة مسلّمة ان هذه الطيور انما تحلّق فوقهم لأنها تتوقع اللحم من جزرهم ، وهذا ما استأنس به ابو نواس من الصورة ، فانتقل اليه مباشرة وقال :

يتوخّى الطير غدوته ثقة باللحم من جزره

وتصبح عند مسلم بن الوليد هذه — بعد — عادة للطير تتعودها ، لملازمتها غدو الجيش ورواحه .

قد عوّد الطير عادات وثقن بها فهنّ يتبعنه في كلّ مرتحل

ويجيء بعدهم ابو تمام فيجعل الطيور مثل الاعلام فوقها والاعلام كالطيور تحتها ، هذه تظلّل تلك ، مقيمة معها في الحلّ والترحال ... نواهل في الدماء .

وقد ظلّلت عقبان اعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات ، حتى كأنها من الجيش ، إلا انها لم تقاتل

فقد جعل كعادته الاعلام أيضاً ... عقباناً ، لاجل المجانسة اللفظية .
ويصل الامر إلى المتنبي ، فاذا بهذه الطيور تصبح عنده من الكثرة بحيث لا يكاد ينفذ من خلالها ضوء الشمس إلى الجيش الزاحف تحتها :

وذي لجب .. لا ذو الجناح امامه بناج ، ولا الوحش المثار بسالم

تمرّ عليه الشمس وهي ضعيفة   تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة   تدوّر فوق البيض مثل الدراهم

وهي صورة خيالية بحت ، وانما استمد الشاعر مادتها من صورة أخرى واقعية حدثنا عنها كما مرّ بنا (١) . ولا يكتفي المتنبي بهذا بل ينظر إلى معناها الاصلي ، فيحاول ان يغرب في هذا الطريق أكثر ، وقد رأى كيف ان مسلم بن الوليد سبقه في الاغراب حيث قال يخاطب ممدوحه :

أشربت أرواح العدى وقلوبها   خوفاً ، فأنفسها اليك تطير

أي انها تعنو لسيفك خوفاً وهلعاً ، فتهلك .

لو حاكمتك ، فطالبتك بذحلها   شهدت عليك ثعالب ونسور

لأنها هي التي – يوحي لك الشاعر – تولّت تمزيق لحومهم وأكل نثارها بعد الهلاك ...

فيدخل المتنبي في الصورة من الاغراب عنصراً جديداً ... النسور التي هي عادة أطول الطيور عمراً ولكنها من غير مخالب ، فيضمن لها الرزق من لحوم المصرّعين في الميدان ، بحيث لا يسعها الا الشكران .

يفدّي اتمّ الطير عمراً سلاحه   نسور الفلا .. احداثها والقشاعم
وما ضرّها خلق بغير مخالب   وقد خلقت اسيافه والقوائم

ويستمر هذا التطوير للمعنى – معنى الذئب والطير – على السن الشعراء دون تمهّل أو تريث ، حتى في زمان المتنبي ، فيقول ابن نباتة ، وقد أخذ المعنى عنه(٢) :

---

١ راجع الفصل « دقة الملاحظة » .

٢ مصداقاً لقوله : اجزني ، إذا انشدت شعراً ، فانما   اتاك بشعري المادحون مرددا

ويوماك .. يوم للعفاة مذلّل ويوم إلى الاعداء منك عصبصب
إذا حوّمت فوق الرماح نسوره أطار اليها الضرب ما ترقّب

فعند هذا الشاعر يطير الضرب من تحت ، إلى النسور المحلّقة من فوق ، ارزاقها .

وحتى بعد زمان المتنبي ، فيقول ابن شهيد الاندلسي :

وتدري سباع الطير ان كماته — إذا لقيت صيد الكماة — سباع

سباع الطير تدري ان كماته سباع .

تطير جياعاً فوقه ، وتردّها ظباه إلى الأوكار ، وهي شباع

تطير جياعاً وتعود إلى اوكارها شباعاً .

ويجيء بعدهم ابو بكر العطّار ، فيقول ، وكل همه تطوير المعنى أكثر :

تظلّ سباع الطير عاكفة — بهم — على جثث ، قد سلّ أنفسها الذعر

فهذه الجثث — يوحي الشاعر — لم يقض عليها في القتال ، وانما سلّ أنفسها الذعر ، وتظلّ الطير عاكفة عايها بفضل المؤيد المنصور .

وقد عوّضتهم عن قبور حواصلا فيا من رأى ميتاً يطير به القبر ؟

فقد أصبحت هذه الطيور — إذن — قبوراً طائرة ، امعاناً في الاغراب بفضل هذا التطوير . فانظر إلى أين وصل المعنى بصورة الذئب الذي فارقناه ...

إذا ما غدا يوماً ، رأيت غمامة من الطير ينظرن الذي هو صانع ؟

لقد بعد عن ذلك الذئب كثيراً ، ولكن لا بقدر بعده الموغل المسف عن الحياة . وهذا هو العبث الفنّي الذي تورّط فيه بشعرهم كله الشعراء

المتأخرون عندما اقتلعوا جذوره من تربة الجدّ مرة واحدة .

* * *

أما المعاني التقليدية – وهذا جوابنا على السؤال الاول – فما كان لها ان تخرج في مدارها المتّسع عن اربعة أقطاب هي التي يدور عليها مذهب المديح كما بيّن ابن رشيق (١) ، وهي الصفات التي شاد بها العرب من العقل والعفّة والشجاعة والعدل ، وكل من هذه الصفات العربية تقع وسطاً – بعد – بين طرفين مذمومين .

يقول ابن رشيق : ان الفضائل التي يمتدح بها الناس من حيث هم ناس (أي من الناحية الانسانية) ، لا من حيث ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوانات ، على ما عليه أهل الالباب من الاتفاق في ذلك ، إنما هي أربع : العقل والعفة والعدل والشجاعة .

وتفلسف قدامة بن جعفر في شرح هذه الفضائل وما يتفرع عنها ، فذكر (٢) فيما ذكر انه :

(أ) تحت العقل يندرج ثقابة المعرفة ، والبيان ، والسياسة ، والصدع بالحجة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك .

(ب) تحت العفّة يندرج القناعة ، وذلّة الشهوة ، وطهارة الازار .

(ج) تحت الشجاعة يندرج الحماية ، والاخذ بالثار ، والدفع عن الجار ، والنكاية في العدو ، والسير في المهامه والقفار الموحشة وما شاكل ذلك .

(د) تحت العدل يندرج السماحة ، والتغابن والانظلام ، والتبرع بالنائل والاجابة للسائل ، وقرى الاضياف وما جانس هذه الاشياء .

وان هذه الفضائل البسيطة يقترن بعضها مع بعض فتنشأ عنها فضائل

---

١ راجع كتاب « العمدة » لابن رشيق .

٢ راجع كتاب « نقد الشعر » لقدامة .

أخرى مركبة من هذه :

(١) كالصبر على الملمات مثلاً ونوازل الخطوب ، والوفاء بالايعاد ، تنشأ عن اقتّران العقل مع الشجاعة .

(٢) وكالبرّ وانجاز الوعد وما أشبه ذلك ، تنشأ عن اقتّران العقل مع السخاء .

(٣) وكالتنزّه ، والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى المعيشة وما اشبه ذلك ، تنشأ عن اقتّران العقل مع العفة .

(٤) وكالاتلاف والاخلاف وما جانس ذلك ، تنشأ عن اقتّران الشجاعة مع السخاء .

(٥) وكانكار الفواحش ، والغيرة على الحرم ، تنشأ عن اقتّران الشجاعة مع العفة .

(٦) وكالاسعاف بالقوت والايثار على النفس ، تنشأ عن اقتّران السخاء مع العفّة .

ولم يكن الشعراء يتجاوزون هذه الفضائل العربية في مذهب المديح ، مهما أطنبوا ، ولا كان يسعهم في توليد المعاني وتطويرها إلا الاعتماد على متفرّعاتها .. مهما توسّعوا في الخيال . ففي موضوع العقل مثلاً يتكرّر عند المتنبي في ممدوحيه هذا المعنى بوجوه مختلفة .. كقوله :

ذكيّ .. تظنّيه طليعة عينه يرى قلبه في يومه ما يرى غدا (١)

واعاده :

مستنبط من علمه ما في غد فكأن ما سيكون ، فيه دوّنا (٢)

١ فيه نظر إلى قول ابي تمام : ولذاك قيل : من الظنون جليه علم ، وفي بعض القلوب عيون

٢ قول اوس بن حجر : الالمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وقال أيضاً :

ماضي الجنان ، يريه الحزم قبل غد   بقلبه ، ما ترى عيناه بعد غد (١)

وقال :

ويعرف الامر قبل موقعه   فما له بعد فعله ندم (٢)

وهذا ركيزة المعنى في قوله في رثاء جدته :

عرفت الليالي – قبل – ما صنعت بنا   فلما دهتنا ، لم تزدني بها علما (٣)

وقوله :

وما استغربت عيني فراقاً رأيته   ولا علّمتني غير ما القلب عالمه (٤)

وقوله :

فلا يتهمني الكاشحون ، فانني   رعيت الردى حتّى حلت لي علاقمه (٥)

وقوله :

اشفق عند اتّقاد فكرته   عليه منها .. أخاف يشتعل (٦)

وفي موضوع المال تراه يقول :

هم لأموالهم .. ولسن لهم   والعار يبقى ، والجرح يلتئم (٧)

---

١ فيه نظر إلى قول الاعور : لقد أصبحت ما احتاج ، فيما   بلوت من الامور ، إلى السؤال
٢ قول الخزيمي   لقد وقرتني الحادثات ، فما أرى   لنازلة من ريبها اتوجع
٣ قول طفيل   وما أنا بالمستنكر البين ، انني   بذي لطف الجيران قدماً مفجع
٤ قول عدي بن الرقاع : وعرفت .. حتّى لست أسأل عالماً   عن حرف واحدة ، لكي ازدادها
٥ قول القائل   وفارقت حتّى ما احن إلى هوى   وان بان جيران علي كرام
فقد جعلت نفسي على النأي تنطوي   وعيني على فقد الحبيب تنام
٦ قول ابن الرومي   أخشى عليه اتقاد الفكر ، لا حذرا
٧ قول حطايط بن يعفر : ذريني اكن للمال ربا ، ولا يكن   لي المال ربا .. تحمدي غبه غداً

ويستخلص منه :

فأنجم أمواله في النحوس وأنجم سؤّاله في السعود (١)

وينظر اليه في حال السلم والحرب :

فالسلم يكسر من جناحي ماله بنواله ، ما تجبر الهيجاء(٢)

وينقلنا موضوع المال إلى معنى بسط الكفّ والايثار ، فنسمعه ينظم مثل قوله :

وعطاء مال .. لو عداه طالب انفقته في ان تلاقي طالبا (٣)

وقوله :

يتداوى من كثرة المال بالاقـ ـلال جوداً ، كأن مالا سقام (٤)

وقوله :

يا أيها المجدى عليه روحه إذ ليس يأتيه لها استجداء
احمد عفاتك – لا فجعت بفقدهم – فلترك ما لم يأخذوا اعطاء (٥)

وقوله :

لو اشتهت لحم قاريها ، لبادرها خرادل منه في الشـ : واوصال(٦)

١ قول ابي تمام طلعت على الاموال انحس مطلع وعدت على الآمال وهي سعود
٢ قول ابي تمام إذا ما أغاروا واحتووا مال معشر اغارت عليهم فاحتوته الصنائع
٣ قول ابي تمام وفدت إلى الآفاق من نفحاته نعم ، تسائل عن ذوي الاقتار
٤ قول ابن الرومي ارى فضل مال المرء داء لعرضه كما ان فضل الزاد داء لجسمه
فليس لداء العرض شيء كبذله وليس لداء الجسم شيء كحسمه
٥ قول ابي تمام تعود بسط الكف ، حتى لو انه ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها ، فليتق الله سائله
٦ قول ابن الرومي لو حز من جسمه لسائله أنفس أعضائه ، لما المـا

وقوله :

انّك من معشر إذا وهبــــوا ما دون اعمارهم ، فقد بخلـوا (١)

وقوله :

ولو يمّمتهم في الحشر تجـــدو لأعطوك الذي صلّوا وصاموا (٢)

وقوله :

إذا اكتسب الناس المعالي في النـــدى فانك تعطي في نداك المعــاليا (٣)

وقوله معاكساً :

إذا طلبوا جدواك اعطوا وحكّمــوا وان طلبوا المجد الذي فيك خيّبوا
ولو جاز ان يحووا علاك وهبتهـــا ولكن من الاشياء ما ليس يوهب (٤)

وقوله :

تظنّ من فقدك اعتـــدادهم انهم أنعموا ، وما علمـوا (٥)

قال صاحب الوساطة معلّقاً : احسن وتناهى في الاحسان .

ولعل في هذه الشواهد والامثلة كفاية لايضاح معنى التطوير .. في المعاني التقليدية .

---

١ فيه نظر إلى قول بكر بن النطاح ولو خذلت امواله فيض كفه لقاسم من يرجوه شطر حياته

٢ بكر بن النطاح ولو لم يجز في العمر قسم لمالك وجاز له الاعطاء من حسناته
جاد بها من غير شرك بربه وأشركنا في صومه وصلاته

٣ البحتري وإذا اجتداه المجتدون ، فانه يهب العلا في نيله الموهوب

٤ أصل هذا المعنى إلى جابر بن حباب : وان يقتسم مالي بني ونسوتي فلم يقسموا خلقي الكريم ولا فعلي
وقد حوره ابو تمام وانفح لنا من طيب خيمك نفحة ان كانت الاخلاق مما يوهب

٥ فيه نظر إلى قول الخزيمي زاد معروفك عندي عظمـا انه عندك محقور صغيـر
تتناساه ، كأن لم تأتـه وهو في العالم مشهور كبير

وكذلك يفعل المتنبي في موضوع العيادة والمرض ، تأمّل قوله :

لا تعذل المرض الذي بك،شائق   انت الرجال ، وشائق علاّتها

وقد فسّره في البيت التالي :

ومنازل الحمّى الجسوم ، فقل لنا :   ما عذرها في تركها خيراتها ؟

وقوله ، وقد قرنه بمعنى السخاء :

قصدت من شرقها ومغربها   حتى اشتكتك البلاد والسبل
لم تبق إلا قليل عافية   قد وفدت – تجتديكها – العلل

وقوله :

يجشّمك الزمان هوى وحبّاً   وقد يؤذي من المقت الحبيب
وكيف تعلّك الدنيا بشيء   وانت لعلّة الدنيا طبيب ؟
وكيف تنوبك الشكوى بداء   وانت المستجار لما ينوب ؟

ويخرج هذا المخرج من الصنعة قوله في الفِصاد :

مددت في راحة الطبيب يداً   فما درى كيف يقطع الامل ؟
ان يكن البضع ضرّ باطنها   فربّما ضرّ ظهرها القبل
يشقّ في عرقها الفصاد ، ولا   يشقّ في عرق جودها العذل

وينهيها بقوله :

ارث لها ، انها بما ملكت   وبالذي قد اسلتَ ، تنهمل

وكلّ هذا كان عندهم عبثاً محبّباً .

ولا يقتصر اثر الصنعة على المديح ، فانك تراه أيضاً يقول في الغزل :

خسان التثنّي ، ينقش الوشي مثله   إذا مسن ، في اجسادهنّ النواعم
ويبسمن عن درّ .. تقلّدن مثله   كأنّ التراقي وشّحت بالمباسم

ويقول :

شاميّة .. طالما خلوت بها تبصر في ناظري محيّاها
فقبّلت ناظري تغالطني وانّما قبّلت به فاها
كلّ جريح ترجى سلامته إلا فؤاداً دهته عيناها
تبلّ خدّيّ كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

يتصوّر بعض المستشرقين معناه انها إذا ابتسمت تطاير البصاق من فمها على وجهه .. تأمّل ، فماذا نقول لمثل هؤلاء ؟ (١)

ويقول :

كأنّما قدّها إذا انفتلت سكران من خمر طرفها ثمل
يجذبها تحت خصرها عجز كأنه من فراقها وجل

وهو يشبه قوله من ثانية :

أعارني سقم جفنيه ، وحمّلني من الهوى ثقل ما تحوي مآزره

فأي حبيب هذا الذي ينكّت به هذا التنكيت ، لولا انها كلها محض أخيلة شعرية ؟

---

١ ويتعرض الدكتور طه حسين إلى قوله :

ولقد بكيت على الشباب ، ولمّتي مسودة ، ولماء وجهي رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتّى لكدت بماء جفني اشرق

وهذا أيضاً من ذاك ، ومعنى قوله :

طوى الجزيرة حتّى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتّى إذا لم يدع لي صدقه املا شرقت بالدمع ، حتّى كاد يشرق بي

فيتساءل : كيف يشرق الدمع بالانسان ؟

ويقول في هذا الحبيب الخيالي :

مثّلت عينك في حشاي جراحة فتشابها .. كلتاهما نجلاء
نفذت عليّ السابريّ ، وربما تندقّ فيه الصعدة السمراء

هذه الجراحة التي قال عنها مرّة في مورد المديح متخيلاً :

إذا ما ضربت القرن ، ثم اجزتني فكل ذهبا لي مرّة منه بالكلْم

* * *

لقد حاول هذا الشاعر — خاتم الشعراء بحق — أن يجعل شعره جماع ما مرّ باللغة ... وأهلها ... من تجارب قديمة كالذي عهدنا من وضع الاعراب وابداعهم ، وجديدة كالذي شهدنا من صنع الموالي واختراعهم . هي تجارب طويلة مرّت بلغة الضاد — تمرّسنا بها في حديثنا عوداً على بدء — كان بعضها في اعتبار رجال عصره شوائب وبعضها عندهم حسنات ، نختلف في تقييمها معهم الآن .

نختلف في تقييمها معهم لأنهم آمنوا — وكفرنا — بما كأن على الشاعر من التزام لطبيعة فنه في مذهب المديح ، ولذلك تقبّلوا — ونرفض — كل مستلزماته . ولئن كانوا هم أقرب بروحهم عهداً إلى ما استحدث الموالي في الشعر العربي من تطوير وتزوير فانشرحوا له .. وأنكرناه ، فانهم أبعد صلة عن منابعه العميقة — لا في قوالب المعاني ، أو محتويات الدواوين — بل في سرائر النفوس وسنن الحياة ... منّا .

ذلك ما قلته في مستهل الفصول — قبل اقتحام هذه الابواب الاثني عشر إلى ابهاء مدماكه الفني — وهو ما اوطّئ به الآن — ونحن داخله — لخاتمة المطاف ...

الباب الثالث عشر

من شرفة التاريخ

لغز استعصى على الحل في حياة المتنبي

الباب الخلفي لمدماكه الفني

وماذا بقي بعد ..

.. لكي يضاف جديده هنا إلى حديثنا عن فنّ الشاعر ؟

بقي أمر « نسب » المتنبي ...

فان الابواب الاثني عشر ، التي اقتحمنا بها في هذا الكتاب أبهاء مـدماك أبي الطّيب الفنّي ، انما ضمنت كشف النقاب عن انفراد هذا الشاعر بفنّه في أدب العرب « ذروة » وحده .. لا تطاولها الذرى .

فهو ــ كما علّلنا وفصّلنا ــ لم يحاول أن يقف بفنّ القول حيث وقف هــذا الفنّ عند سواه . . » تعبيرا » فحسب ، وان كان هو قد عبّر . . فأحســن التعبير (لا على غرار غيره) . . عن حياة « فتيّة » عاشها صاحبنا الالمعى في القرن الرابع الهجرى ، من دنياهم على أحرّ من الجمر..، متقلّبا وسط اخــلاط جيله متنقّلا بين أقرانه الملوك ، مرّ النفس صعب الشكيمة ، عاثر الجدّ بين أمسه وغده ، متململا ككبش الفداء ، تحت رحمة كلّ ساعة تمرّ به من دهــره . . في الانتظار .

ألم نردّد معه

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتّى يراق على جوانبــه الــدم

* * *

ولست أبا لى بعد ادراكى العــلى أكان تراثا ما تناولت أم كسـبا

* * *

أريــد من زمنى ذا أن يبلغنّــى ما ليس يبلغــه من نفسه الــزمن

* * *

وقت يضيع ، وعمر . . ليت مدّته في غير أمته ، من سالف الأمــم

أتى الــزمان بنــوه في شبيبتــه فسرّهــم ، وأتينــاه على الهــرم

لا ، هو لم يقف بفنّ القول ضمن حدود الشعراء ، بل تغلغل بروحه الثائرة وراءها ــ كما نتبيّن بوضوح ، من الابواب ــ حتّى عاد هذا الفنّ في لغــة الضاد عنده وكأنه « تفسير » لاحتفال من نوع آخر ــ أكبر من احتفالنا المعهود

بالحياة ، والمشهود أثره على السن الشعراء ، جيلا بعد جيل ، وأعمّ بكثير — هو احتفال الحياة « الأمّ » نفسها بنفسها ، وما تطوّره دائبا من الاحوال ، لبنيها فوق وَجه هذه البسيطة ، ولبناتها تحت اغوار مياهها ، على ممرّ الاجيال .

فكلّ ما توصّلت اليه — اذن — من تلك الابواب الاثنى عشر هو انى ضمنت كشف النقاب — لا غير — عن وجه هذه الحقيقة « النيّرة » ، وهى السافـرة أبدا في شعره — لمن يعى — رغم نقابها .

وبقى إلى الاخير أمر « نسب » المتنبي معلّقا (١) .

* * *

ولذلك فانّى عندما أجلت داخل تلك الابهاء ما يسمونه « آخر لحظة » في خاتمة المطاف ، غداة الفراغ من تأليف الكتاب في ١٢ آب من العام الماضى ، كنت — في ذات الحين — أحس احساسا . . مشوبا بالعجز . . بأنى لم أهتد بعد إلى جميع الجوانب الغامضة لهذه العبقريّة ، التى تقف « فذّة » في التـاريخ العربى كله .

فقد بقى لسانها العربى المبين « يعرب » . . .

و « كلمة » في طريق ، خفت اعربها   فيهتـدى لى ، فلم أقدر على اللحن

وكأنّما هو يناشدنى من الغيب . . أما قد آن أن يسلّط النقاد الحديث ضـوء على « لغز » تاريخى ، ظلّ كالمعمّى في حياة صاحب هذا اللسان ؟ فطالما أغرى هذا اللغز بلحمه نهشا وايذاء . . صغار النقّاد (ولهم في ذلك عذرهم) ، ودوّخ بتلمّس التعليلات له . . كبار الشارحين ، كلمّا رأوه — في طوايا هذا الشعر

(١) راجع الفصل « صبي فى المكتب » .

الذى سهروا على سبر غوره – يتطاول عليهم ذ هابا بنفسه .. واعتزازا بمن سمّاهم قومه .

وانى لمن قوم .. كأن نفوسنا بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

* * *

لا بقومى شرفت ، بل شرفوا بى وبنفسى فخرت .. لا بجدودى

وبهم فخر كلّ من نطق الضا د ، وعوذ الجانى ، وغوث الطريد

وهذا (كان عندهم) بلاشكّ يناقض .. الا على وجه وقح من الكذب .. ولا يستقيم على أس ركيز ، مع ما لقّنوه حول ظروف « زريّة » لنشأته الاولى ، مما أفضى به المؤرخون جميعا – خلفا عن سلف – نقلا وحكاية عن ادباء « ثقات » من معاصرى الشاعر ، فظلّوا يكرّرونه .. بلسان واحد .. طوال العشرة قرون الماضية ، من أنه كان ... وضيع الأصل ، خامل النسب .... ابن سقّاء كوفانى (٢)

فكيف يتّفق هذا مع ما تكشّف لنا – بين سمع الزمان وبصره – من نفسية صاحبنا ، وهو – كما خبرناه – أصدق صوت عربى عرفه عصره ؟

هذا هو اللغز الذى يقف أمامه التاريخ مبهوتا .

* * *

ابن سقّاء كوفانى ...

كنت بينّت – في حديثى عن المتنبى صبيّا كيف ان هذه الدعوة لم يتردد

---

(٢) هذه العبارة بنصها وردت فى شعر ابن لنكك ... ومن ثم تناقلها الرواة !

صداها في التاريخ الا منذ عام ٣٥٢ بعد وقيعة شعراء بغداد فيه باغراء الوزير المهلبي (لأن شاعرنا ترفّع عن مدحه) . وذلك قبيل سفره إلى فارس . . . . وكيف ان الدكتور عمر فروخ كشف وجه هذه المؤامرة الدنية – منذ قريب عندما تحقّق أثناء مطالعاته . . مصادفة . . ان « عِيدان السِقاء » (بالكسر في الكلمتين ، لا عَبدان أو عَيدان السَقّاء . بالفتح والتشديد) إنما هو لقب للشخص « حسين » الذى تعهّد المتنبي طفلا .

فقد تآمر من تآمر من معاصريه – وفيهم العلويان(٣) – بالسكوت على (ان لم يكن الرضا بـ(تحويل « عِيدان السقاء » إلى عَبدان السقّاء تعمية لنسب الرجل الحقيقى . الذى كان العلويان على بينة من امره منذ مولده عام ٣٠٣ .

وعجبا كل العجب أن يرجع إلى هذه المغالطة في التسمية (التى تواطأ عليها العلويّان بالسكوت . في آخر حياة الشاعر) الفضل الأكبر في « تنقيب » الاستاذ محمود محمد شاكر(٤) عن دخيلة هؤلاء المتآمرين . ثم الاهتداء إلى حقيقة نسب الرجل . . . بأنه علوي (من الاشراف) . فلولا هذه المغالطة لما كان هناك من داع مطلقا للتفكير في – بله تفنيد الموهوب بـ– خمول أصل الشاعر أو وضاعة

---

(٣) هما :

(١) ابو الحسن محمد بن عمر بن يحيى العلوى الزيدى ، ينتهى نسبه الى زيد بن على بن الحسين عليهم السلام ، ولد فى الكوفة سنة ٣١٥ ومات ببغداد سنة ٣٩٠ ، وكان المتقدم على الطالبيين فى وقته والمنفرد فى علو محله مع المال واليسار ، وكثرة الضياع والعقار . كان يعرف اسرة المتنبى .

(٢) القاضى ابن ام شيبان الحسن بن محمد بن صالح بن على الهاشمى ، ينتهى نسبه الى عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب . قاض ولد فى الكوفة سنة ٢٩٣ و مات فى بغداد سنة ٣٦٩ . وكان يعرف اسرة المتنبى فى الكوفة .

وقد نقل عنهما المحسن التنوخى . . ما يعلم من امره فى كتب الناس . . وعن المحسن اخذ ابنه على .

(٤) فى البحث القيم الذى نشرته له المقتطف فى عددها الخاص . . عن المتنبى . . عام ١٣٥٤ .

نسبه . مع أن تواطؤ من تواطأ منهم بالسكوت عليها — زيادة في التعمية . — انما كان يقصد به ان يغطّى على مؤامرة سابقة أكبر منها نشأت مع ميلاد الشاعر (٥) . واستمرّت باستمرار حياته — هي التى تركزّت عليها نظرة محمود الفاحصة أثناء التنقيب .

وقد أسدى الاستاذ شاكر لتاريخ النقد الأدبى يدا بيضاء ، بكشفه النقاب عن كبرى المؤامرتين ، ولكن . . . يقول الاستاذ شاكر . . مستنتجا . . بعد تدقيق النظر في كل القرائن التى تتصل بهؤلاء من قريب أو بعيد :

« ووجه التمضية عندنا هو هذا : تزوج رجل من العلويين — ولا جرم ان يكون من كبارهم — بنت جدّة المتنبى ، فحملت منه ووضعت احمد ابن الحسين (وهذا الحسين هو غير عبدان السقّاء) ، ولأمرما أرغم هذا الرجل على طلاق امرأته وفراقها . ففارقها وطلّقها فرجعت إلى أمها بجنينها أو طفلها ، وحزنت حزنا أهلكها فاستلّها الموت وذهب بها ، وبقى الطفل وكفلته جدّته . . . »

لا ، ياأخى محمود ! ، ان عِيدان السِقّاء . . كما تحقّق للدكتور فرّوخ (من وجه المؤامرة التالية) ، هو الحسين هذا . . الذى ينتهى نسبه إلى « جعفى ابن سعد العشيرة » ، فهو الذى كان يتعهد المتنبى طفلا في صغره — تحت ارشاد جدّته الصالحة — ويتنقّل به (كما تقول الروايات) في البوادى . . حتى مات عنه صغيرا . ولكنّه لم يكن أباه ، فانّ أباه . . . .

يقول الاستاذ شاكر :

« . . . وبقى الطفل وكفلته جدّته . . . ثم صرحت له بحقيقة أمره وصحيح

---

(٥) سوف يمر بك قوله فى الحبس :

وقيل : عدوت على العالمين بين ولادى وبين القعود

الذى نفهم منه بوضوح انه نكب بما نكب به . . . وكان مصدر شقائه . . . منذ ولادته

نسبه . . . وحذرت الفتى من عواقب التصريح بنفسه . . . حتى كان من أمره ادعاؤه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطر إلى الاخلاد والتسليم . وحرص على أن يطيع جدته . . . »

إلى آخر حياته .

هذا الوالد العلوى الذى لا يخالجنا شك – مع الاستاذ محمود شاكر – في أنه كان من كبار القوم ، والذى ظل أمره مع ذلك مكتما الاعند القلة الذين خالطوه ، ومجهولا لدى معظم الناس ، لا يمزق داجي ليله بصيص من نور ، طوال ذلك العصر الخبيث الطويه المشتت الأهواء

هذا العلوى . . . من تراه يكون ؟

* * *

سؤال . . .

. . . إذا وضعناه بهذه الصورة . . . تبين لنا وجه الجواب او كاد . . .

معنى أن علويا بعينه هذا شأنه ، يحل لنا . . من حياة المتنبي . . كل ما يعقدها من متناقضات ، من دخوله كتاب اشراف العلويين في الكوفة أول الأمر . . . ثم ادعائه العلوية بالشام . . . وطول تكتمه بعد ذلك على نسبه واخفائه جهده من أصحاب الالسنة المتنقلة بين الرجال . . . هذا العلوى ليس الا . .

ليس في التاريخ الاسلامى سوى شخصية واحدة اسدل الزمان حولها ستارا كثيفا من التكتم ، بحيث لا نعى من أمرها رشدا . فكل ما يعلم من أمر صاحبها هو انه عندما ولد شاعرنا (احمد لأبيه العلوى هذا) كان عمره (العلوى هذا) آنئذ ٤٧ سنة ، واسمه . . . . محمد .

(قد جاء في بعض الروايات هذا الاسم مقرونا باسم المتنبي – في سلسلة نسبه – كأبيه ، ثم لبس الامر بادخال التضليل في النص من ناحية أخرى . . . كما

ستری . . . وكذلك جاء في هذه الروايات اسم أبي محمد هذا منصوصا عليه باسم « الحسن » جدا للمتنبي ، ثم لبّس الامر من أطرافه ، ولم يترك على وجهه ابتغاء التضليل .(٦)

هذه الشخصيّة . . . في احتجابها الذى فرضته عليها ظروف ذلك العصر ، عن أعين وشاه الدولة ومن يخشى بأسهم من الدائلين . . . لاسباب سياسية أوّل الامر ، ومذهبية بعد ذلك . . . ما كان لها أن تظهر لشئونها كما يظهر الناس ، ولا أن تتصرّف في حياتها كما يتصرّفون ، ولا ان تتباشر بأيّامها كما هم يفعلون . . حتّى ولا أن تتزوج مثلهم جهارا ، لولا أنها كانت تحمل بين جنبيها قلب انسان يخفق مثل خفقان قلوبهم . وتعصف بها في الغيبة الطبيعة البشرية ، فترضخ لها كارهة . . . الا أن شرفها الرفيع ما كان ليسمح لها أن تعيش — في الغيبة — الا كما عاش آباؤها . . . الطيّبون الطاهرون .

وحصل القران بين بنت جدّه المتنبي وهذا العلوى ، لا على أساس مراسيم الزواج كما هو معهود عند الناس في حفلات الاعراس بالزغردة والغناء ، وإنما بحبس الانفاس على سنّة الله ورسوله تحت ستار الخفاء . . . وهكذا كان . . . نتيجة لهذا القران . . . مولد شاعرنا احمد في الكوفة عام ٣٠٣ .

ما كان لعشيرته الا قربين في مثل هذه الظروف أن ينفضوا يدهم من الطفل — وأبوه في الغيبة — حتّى ولو كانوا للقران . . وكلّ ما أعقب القران . . من الكازهين ، فالطفل هو ولدهم شرعا وابن عمّهم لحمّا . فتعهدوه على مضض

---

(٦) جاء اسم المتنبى مسرونا باسم ابيه محمد . . أو بجده . . فى روايات مختلفة ، ثم تعاورت نسبه التعمية من نواحيه

قالوا : هو احمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفى
احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفى
احمد بن محمد بن الحسين بن عبدالصمد الجعفى
الخ .

وهم يريدون (من جدته وغيرها) بأن لا يعرف هو ولا الناس من أمر قران أبيه في الغيبة شيئا . . . والا فسد عليهم ما هم ماضون في سبيل اصلاحه . وهجم عليهم سقف البيت وانهار من أساسه .

فكان من أمر المتنبي — بعد — ما كان .

* * *

لما صمم المتنبي على المجاهرة بعلويته . . . وطلب حقه (هما حقان . . حقه في العلوية ، وحقه بالعلوية) هذا الحق الذى هو شعار كل علوى يعرف قدر نفسه ، ولباه من لبى من بنى عدى وبنى كلب وسواهما من القبائل في بادية السماوة ترصد له العلويون شيعة أبيه . وسعوا في تلافي الامر الذى فرط زمامه من يدهم خشية أن تتوخم العاقبة .

فقبض على « الداعية » في قرية يقال لها « كوتكين » . واعتقله ابن علي الهاشمى أمير حمص (من قبل محمد بن طغج الاخشيد) جاعلا في رجله وعنقه خشبتين من خشب الصفصاف . وقد قال فيه المتنبي :

زعم المقيم بكوتكين بأنه — من آل هاشم ابن عبد مناف
فأجبته : مذ صرت من أبنائهم — صارت قيودهم من الصفصاف (٧)

كان ذلك والمتنبي بعد صبي ينهج بين العقد الثانى والثالث من عمره .

وقد كان الذين حبسوه — بعد القبض عليه — يعرفون جلية أمره . فلولا ذلك ماناشد الوالى ، بعد أن طال عليه الحبس ، قائلا :

---

(٧) قيودهم اى قيود ابنائهم ، ولا ادرى كيف غاب عن الناس هذه الاشارة من المتنبي . صراحة . . الى علويته . مادام هو قد جعل نفسه من ابنائهم .

بيـــدى ، أيها الامير الاريــــــب لا لـــشىء ، الا لأنـــى غـــريب
أو لأمّ ، لهـــا ــ اذا ذكـــرتنى ــ دم قـــلب ، بدمع عـــين يذوب
ان أكـــن ، قبل أن رأيتك ، أخطأ ت ، فانى عـــلى يديك أتــــوب
عـــائب عابـــنى لديك ، ومنـــه خلقت . في ذوى العيوب . . العيوب

فالاشارة هنا إنما هى إلى جدته .

وأقل ما يقال في هذه المناشدة هى أنها من علوى . . يعترف بخطئه في المجاهرة بالدعوة والخروج على السلطان . . امام علوى ، تواطأ مع « قومه » على كتمان أمر نسب الصبى . . لغرض في نفوس القوم .

وعرفانهم بمقامه هو الذى جعلهم يوصون السجّان . . ابادلف بن كنداج . . به ، وهو معتقل بحمص . فمّما قال شاعرنا وقـــد أهدى اليه أبودلف دـــذا هـــديّة :

أهـــون بطول الثـــواء والتلـــف والسجـــن والقيد يـــا أبا دلـــف
غير اختيار قبلت بـــرّك بـــــــى والجـــوع يرضى الاسود بالجيف
كن أيّها السجن ! كيف شئت فقد وطّنت للمـــوت نفـــس معـــترف

معترف بماذا ؟ . . غير الصبر على مانزل به من الحدثان .

لو كان سكنـــاى فيك مـــنقصـــة لم يكن الدرّ ساكـــن الصـــــدف

ويطول اعتقاله عامين كاملين . . ولا يخرج من المعتقل الا بعد أن يشـــهد على نفسه ــ كما زعموا ــ ببطلان الدعوة . وهل تبطل ــ عند الله أو عند الناس ــ لمجرّد أنّ « قومه » أرادوا منه ذلك مغالبة ؟ وهم يزعمون بعد انّه أخِذ عليه

الاقرار مرّتين . ولا نرى في ضوء تلك الاحداث ما يدعو إلى نفي وقوعه . ولعل القصيدة

أيا خدّ الله ورد الخدود   وقدّ قدود الحسان القدود

التي بعث بها إلى الوالى الاخشيد استعطافا . وفيها البيت

وقيل : عدوتُ على العالمين   بين ولادى وبين القعود(٨)

لم تكن الا بعد اقرار أوّل ، ملافاة لهذا الحجر — الذى طال عليه أمده — في الاعتقال ، حتى بعد الاقرار .

لقد اراد القوم ابطالها في سبيل غاية جلى ترصّدوا لها — وخانتهم — في عصر متخاذل على نفسه ، فاسد الطويّة ، تقاذفته الفتن من كل صوب . فلم يطل بهم — ولا به — الانتظار حتى وجدوا أنفسهم في التيه . ضلّت فيه بالسالكين المسالك وعميت بالسارين السبل . . نحن فيه حتى اليوم تائهون :

وبقيت دعوة المتنبي قائمة بالصدق في طوايا شعره . . لا يدحضها منطق .

* * *

لنعد إلى أمر والد المتنبي العلوى . . .

. . محمد بن الحسن ، الذى كان — آنذاك — يدين بامامته ، أثناء احتجابه عن

---

(٨) سبق التنويه بهذا البيت ، راجع (٥)

الانظار (مما سموه « الغيبة الصغرى ») ، شيعة له (٩) منتشرون في كل بقعة من العالم الاسلامى . . من الهند وفارس حتّى الشام . . ، مراغمة للدول الزمنية القائمة في أرجائه . . . وشتّى اقطاره .

. . محمد هذا لم يكن لأحد من اوليائه اتّصال به ، من قريب أو بعيد ، الا عن طريق الوكلاء

وكان أولهم ابا محمد عثمان بن سعيد، وقد بقى على وكالته من عهد الامام السابق

وكان الثانى أبا جعفر محمد ابن الوكيل السابق توفّى عام ٣٠٦

وكان الثالث ابا القاسم الحسين بن روح النوبختى توفّى عام ٣٢٦

وكان الرابع ابا الحسن على بن محمد السمرى توفّى عام ٣٢٩

ولما حضرت هذا الاخير الوفاة سئل عمّن يعهد اليه بالوكالة — عن الامام الغائب — بعده . فتنهد طويلا ثم قال : لله أمر هو بالغه !

ثم أغمض عينيه ولفظ آخر أنفاسه .

وكان ذلك كما رأيت — عام ٣٢٩ ، وعمر المتنبى إذ ذاك ست وعشرون سنة . وبموت هذا الوكيل بدأت ما يسمّونه بـ « الغيبة الكبرى » للامام المنتظر . . . حتّى اليوم .

---

(٩) على أن هؤلاء لم يكونوا كل الشيعة . . المعروفين بهذا الاسم . فقد كان تفرق امرهم بعد الامام الحسن (والد الامام الغائب) الذى كان توفى عام ٢٦٠ ، الى ٢٠ فرقة . . لم يكن يدين بالامام الغائب منها الا فرقة واحدة هى التى يطلق عليها المسعودى — وكان لها معاصرا — اسم القطيعية . ولكن مع تطاول الزمان ثبت امرها وحدها من بين تلك البقية ، فهى التي ينضوى تحت لوائها الشيعة اليوم باسم « الاثنى عشرية » . . . منذ الغيبة الكبرى .

لمر ما كان من أمر المتنبي خلال هذه الفترة .

كان المتنبي — كما سبق — معتقلا ، (لابدّ عن علم هؤلاء الوكلاء ، ان لم بأمرهم (عامين كاملين ٣٢٤ — ٣٢٥ .

ويخرج من المعتقل فيضرب — كما روينا في غير مكان(١٠) — في الآفـاق عن جديد .

واثناء ما هو ينتقل في ربوع الشام يرد عليه كتاب لجدّته الدليلة من الكوفة تستجفيه (كذا) فيه ، وتشكو شوقا اليه ، وطول الغيبة عنها . . .

ولا يغيبّن عنك هنا دلالة تاريخ هذه الرسالة من جدّته ، فقد حرّرتها اليه عام ٣٢٩ . أفلا يدلنّا ذلك على أكثر من شيء تبطنه الرواية ولا يصرّح بـه التاريخ ؟

أما العلويون — اصحاب الامام — فقد كانوا بيتّوا أمرهم في الكوفة هـذا العام على خطّة ، وضعوا لها يومها — نهجا . . وقيّض الله لها — بعد — نهجـا آخر . فما كان يسعهم (وهم في فاتحة العهد) ان يسمحوا لأحمد بن الحسين الملقّب بعيدان السقاء (هكـذا أصبح يعرف صاحبنا عندهم منـذ الآن) ان يدهمهم بمجيئه في هذا الظرف الدقيق ، فيزيد الموقف حراجة وتحدّجا .

فحزموا أمرهم على منعه من دخول الكوفة — لأسباب تعتل في ضوء ما بيّنا — ولو اقتضى الأمر اغتياله في الطريق (١١) . وفطن المتنبي — الفتى المنـكود الطالع في قومه . . من نسبه — إلى ما بيتّوا له ، فتنكّب الطريق عن الكوفة إلى بغداد . ومن هناك أرسل رسالته ، التي تنبيء بسلامة وصوله ، إلى جدّته .

وتأمّل الآن ما تقول الرواية عندما وصل هذا الكتاب إلى جدّته :

---

(١٠) راجع الفصل « تقصيد القصائد عند المتنبي ».

(١١) وكم قامت محاولات لاغتياله — كما سترى — على يد عبدانهم في كفر عاقب وطبرية وغيرهما ، حتى بعد هذا التاريخ .

« . . . فقبّلت الكتاب ، وخمّت لوقتها سرورا به ، وغلب الفرح على قلبها . . . فقتلها » .

أفتظن أيّ انسان ينتظر قدوم غائب عليه ، وهو من اشتياقه – طيلة الوقت – بين سؤال يكرّره وتعليل يردّده ، ثم يوافيه الخبر القاطع اخيرا بأنه قد تنكّب الطريق عن منزله إلى بلد آخر ، يسرّ بذلك . . . سرورها ، أو يفرح بخبر الغائب هذا . . . ذلك الفرح القاتل ؟

لا ، ليس في كلّ هذا ما يفرح أو يسرّ . . . وانّما الذى كان هو ان جدّته كانت تترامى اليها أنباء مقتله على يد المتربّصين به . فلما وافاها الخبر بسلامة وصول ابنها إلى بغداد – بخطّ يده – متحدّيا الموت نفسه ، سرّت ذلك السرور به . . . بحياته . . . واخذت عند وصول الكتاب – كما جاء في الحديث .

تعجّب من خطّي ولفظي ، كأنها ترى بحروف السطر أغربة عصما

لأنها كانت قد قطعت املها منه ومن بقائه على قيد الحياة .

وتلثمه . . حتى أصار مداده محاجر عينيها ، وأنيابها ، سحما

وهكذا غلب الفرح على قلبها . . . فقتلها.

تأمّل قوله في المرثية :

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سرورا بي ، فمتّ بها غمّا

فاليأس انما كان من انقطاع أملها ببقائه على قيد الحياة ، والسرور هو ببقائه حيّا . وهذا هو الذى يبرر قوله بعد ذلك .

حرام على قلبي السرور (١٢) فانني أعدّ الذى ماتت به – بعدها – سمّا

---

(١٢) تذكر قوله هو في طريق الشام :

فلو انى حسدت على نفيس لجدت به لذى الجد العثور

ولكنى حسدت على حياتى وما خير الحياة بلا سرور؟

والآن ، اقرأ – ان شئت – هذه الرائعة التى رثاها بها مفجوعا . . . بيتـا بيتا . . . بامعان ، لتتبيّن كلّ هذا بوضوح .

فان فضل جدّته هذه الهمدانية على البلد (راجع المرثية) انما كان في الائتمار . . مع العلويين . . بالكتمان على نسب والدها ، خدمة منها للصالح العام ، وان أدّى ذلك إلى التضحية بكلّ شيء .

ومع ذلك فلم تسلم من أذاهم ، فقد عاشت – طوال ايامها – على غرر . يقول المتنبي وهو المصدّق

بكيت عليهـا – خيفة – في حياتها   وذاق كـلانا ثكل صاحبه قدما

خيفة من الاغتيال وحده ، أثناء ما كان هو قائما بثورته (العلويّة) في البوادى (١٣) .

* * *

على أن العلوييّن – وقد طال حديثنا عنهم – لا يجوز اطلاقا ان يكونوا كلهم على خطّة مدبّرة ، ولا كانوا جميعا موالين لهذا البيت وحده ، فان ابناءهم – كغيرهم من بنى عمومتهم – كانت تجمعهم السلالة في جدهم الا على أمير المؤمنين على عليه السلام . وقد كان نسبهم يتفرع عن غصون عدّة تبدأ فـى الجذع ببنى الحسن بن على وبنى الحسين بن على . . . وحتى بنى العباس بن على .

---

(١٣) تأمل اشارته فى المرثية الى هذه الثورة :

طلبـت لهـا حظا ، ففاتت ، وفاتـنى   وقد رضيت بى ، لو رضيت بهـا ، قسما

فأصبحت استـقى الغـام لقبرهـا   وقد كنت استـقى الوغـى والقنـا الصما

كان يستـقّ الوغى (على حد قوله) قبيل زجه فى المعتقل ، ولم يطلق سراحه الا بعد اخـذ الشهادة عليه بنفى العلوية عنه .

وكلّما نزلوا بالأبناء جيلا زاد الفرع تفرّعا وهم أولاء الذين كان يضجّ ذلك العصر بثورات القائمين منهم ايذانا بالحق ، ويرنّ برزايا المصروعين منهم ضحايا في سبيله ، وكلّهم في التاريخ من الدعاة العلويين (١٤) .

ويجب ألا ننسى أن الوضع السياسى في البلاد العربية في أوائل القرن الرابع (عندما كان شاعرنا يتلقى دروسه صبيّا في المكتب) كان يختلف كلّ الاختلاف عمّا آل اليه هذا الوضع بعد ربع قرن . فمنذ عاش العلويون وكل همهم أن ينتزعوا زمام السلطة من أيدى الغاصبين . . . وكان يتركّز كلّ سخطهم — في مستهل القرن — على من يمثل هؤلاء من العباسيين . أما بعد ربع قرن من الزمان (في هذه الفترة التى هى موضوع حديثنا بالذات) فقد تمزّق شمل البلاد من أدناها إلى اقصاها ، وتفرّق نظامها بددا . فالبويهيّون يذرّ قرنهم في الشرق ، وبنو حمدان يحاولون عبثا جمع الكلمة في الشمال ، والاخشيديون يستقلّون بالملك في الغرب ، والقرامطة يعيثون فسادا من الجنوب .

فلا غرو اذا خبت تلك الجذوة التى كان العلويون يشحذون بها الهمم ، وخمدت تلك الريح التى كانوا يعقدون عليها الآمال . وقد وقفوا من زمانهم على مفترق الطرق حائرين .

أما ما بدأ ينقص الدولة من اطرافها وينذر جامعتها بالويل ، في دسائس الفاطميّين الذين بدأ سيلهم يطمى برشاشه من الميمنة ، وغارات الروم الذين أخذ طوفانهم يقصف بأذيّه من الميسرة ، على قلب العالم الاسلامى الواهن ، فلم يستفحل خطبه على الناس الا بعد مضىّ ربع قرن آخر من الزمان .

هذا الوضع الذى لم يسبق للعلويين عهد به من قبل ما كان له الا أن يحدث في صفوفهم خورا وخلفا ، لا يرون لهم فيه من ورطتهم مخرجا . فظلّ منهم من

(١٤) راجع مقاتل الطالبيين لابى الفرج الاصبهانى (صاحب الاغانى) وكان معاصرا للشاعر .

ظلّ على نهجه الثائر ، واختار آخرون الوقوف بجانب الخلفاء في بغداد تحاشيا لما هو أطمّ ، وعقد بعضهم آماله بالفاطميين ، وبقي بين هؤلاء وأولئك من أنكر الفتنة ، فأحب أن يعيش بعيدا عنها . . . بالمسالمة والحياد .

ومن هؤلاء الاشراف الطاهر بن الحسن العلوى الذى كان نازلا بالرملة .

كان الطاهر هذا – وهو الحسنى – واقفا على جليّة امر شاعرنا . . مقدّرا لموقفه . وانّ تأمّلا يسيرا في رواية محمد بن القاسم المعروف بالصوفي الذي يحدّثنا كيف تلقّى هذا الحسنى الشاعرَ ، وتسمّع إلى مديحه فيه ، جالسا بين يدى الشاعر ، ليَدلى في أمر المتنبي بالحجّة القاطعة .

حدّث ابو عمر عبد العزيز بن الحسن السلمى (١٥) قال :

سألت محمد بن القاسم المعروف بالصوفي : كيف كان سبب امتداح أبي الطيب لأبي القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوى ؟ فحدثني : ان الامير ابا محمد (ابن طغج) لم يزل يسأل أبا الطيّب في كل ليلة من شهر رمضان ، إذا اجتمعنا عنده للافطار ، ان يخص ابا القاسم طاهرا بقصيدة من شعره يمدحه فيها . وذكر أنه اشتهى ذلك . ولم يزل أبو الطيب يمتنع ويقول . : ماقصدت غير الامير ، وما امتدح احدا سواه . فقال له أبو محمد : قد كنت عزمت أن أسألك في قصيدة أخرى تعملها ، فاجعلها في ابى القاسم طاهر . وضمن له عنه مئات دنانير . فأجابه إلى ذلك .

فقال محمد بن القاسم الصوفي : فمضيت أنا والمطلبى برسالة طاهر لوعد أبي الطيب . فركب معنا ابو الطيب حتى دخلنا عليه ، وعنده جماعة من أهل بيته اشراف وكتّاب . فلمّا أقبل ابو الطيب نزل ابو القاسم عن سريره ، وتلقاه

---

(١٥) راجع ديوان ابى الطيب تحقيق عزام .

بعيدا عن مكانه مسلّما عليه ، ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التى كان فيها قاعدا ، وجلس بين يديه . فتحدّث معه طويلا ، ثم أنشده وخلع عليه للوقت خلعا نفيسه .

قال عبد العزيز : حدّثنى أبو على بن القاسم الكاتب قال :

كنت حاضرا هذا المجلس ، وهو كما حدّثك محمد الصوفي . ثم قال لى : أعلم ، انى ما رأيت ولا سمعت في خبر ان شاعرا جلس الممدوح بين يديه مستمعا لمدحه غير ابى الطيّب . فانى رأيت طاهرا تلقّاه وأجلسه مجلسه ، وجلس بين يديه .

* * *

والآن . . ماذا أنشد ابو الطيّب طاهرا هذا ؟ اذا شئت فاسمع :

أتانى وعيد «الادعياء» ، وانّهم   أعدّوا لى السودان في » كفرعاقب

ولو صدقوا في جدّهم .. لحذرتهم   وهل فيّ وحدى قولهم غير كاذب؟

الادعياء . . الذين يدّعون الشرف ، بنسبتهم إلى على عليه السلام .

ثم يصدر صاحبنا حكمه في « العلويين » اطلاقا

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله   فماذا الذى تغنى كرام المناصب ؟

وما قربت أشباه قوم أباعـد   ولا بعـدت أشباه قوم أقـارب

أى لا تقرّب الاواصر بين أشباه قوم (هم في الطباع » اباعد . كما تقرب الطباع بين أشباه قوم (هم فى النسبة) أباعد .

اذا » علوّى » لم يكن مثل طاهر   فما هو الا حجـة للنـواصب

النواصب الذين يبغضون أمير المؤمنين .

فقد جعلهم – كما ترى – على قدم المواساة مع غيرهم ، ان لم ترفعهم الفعال نفسها .

وهذا الاهتمام بقضيّة العلويين ، والقول الجارح فيما هم فيه يختلفون لا يمكن أن يكون من انسان لا قدر له عندهم ، ولا ممن جاء يتطفّل على موائدهم . ولا تنس أنّ أبا الطيّب يقف هذا الموقف بعد مضيّ أكثر من عشر سنوات على دعوته العلوية ، ويجأر بها – ثانيا – جالسا في دست من ؟ أحد الاشراف العلويين ! !

فهل خطر لأولئك الرواة قطّ – عندما لبسّوا علينا في أمر نسبه – أن يبينوا لنا كيف جاز له أن يفعل هذا ؟ لولا أنه كان ....

ولم يمدح المتنبي – بعد ثورته العلوية – سواه من العلويين احدا ، . . . الا ما كان من أمره مع رفيق صباه – محمد بن عبيد الله المعروف بالمشّطب – وكان من أترابه ، فقد درسا معا في كتّاب الاشراف . وكان يتعهّد أسرة الشاعر في الكوفة ويرعاه . فأنشده القصيدة التي يقول فيها .

ياليت بي ضربة ، أتيح لها – كما أتيحت له – محمّدها

أثّر فيها ، وفي الحديد ، وما أثّر . . في وجهه . . مهنّدها

كان بذلك لقّب المشّطب ، ويذكر فيها أياديه

له أياد إليّ . . سابقة أُعدّ منها . . ولا اعدّدها

أُعدّ منها أي اعدّ انا منها (على البناء للمجهول) .

انشدها أول رحلته إلى بغداد عام ٣١٨ . . في طريقه إلى الشام . وكان ذلك – كما ترى – قبل ثورته بسنين .

لم يبق للمتنبي بعد هذا ، إذا سئل عن نسبه ، الا التكتّم . وماذا يستطيع أن يقول ــ والحال ما رأيت ــ غير قوله

واذا خفيت على الغبيّ ، فعاذر   ألاّ تـــرانى مقـــلة عميـــاء

وقوله :

أبلو . . فيسجد من بالسوء يذكرنى   فلا أعاتبـــه صفحا وأهـــوانـــا

وهكذا كنت في أهلي وفي وطنى   انّ النفيس غريب ، حيثما كانا

وقوله :

أنا ابن من بعضه يفوق ابا البا   حث ، والنجل بعض من نجلـــه

وإنمـــا يذكر الجـــدود لهـــم   من نفـــروه ، وأنفـــدوا حيلة

* * *

أنـــا الـــذي بيَّن الاله به الاقدا   ر ، والمـــرء حيثما جعـــلـــه

جوهرة . . تفرح الشراف بهـــا   وغصّة . . لا تسيغهـــا السفلـــة

وقد تردّد في شعره كثيرا ذكر الجدود ، فهو يقـــول مـــرّة . بارض « نخلة » (١٦) قرب دمشق ، متأهبّا لثورته

لا بقومى شرفت ، بل شرفوا بى   وبجدّى علوت ، لا بجـــدودى

وبهم فخر كلّ من نطـــق الضا   د ، وعوذ الجانى ، وغوث الطريد

---

(١٦) فى هذه القصيدة يرد قوله الشهير

ما مقـــامى بأرض « نخـــلـــة » الا   كمقـــام المـــسيح بين اليهـــود

* * *

انا فى امة . . تداركها الله . . غريب كصالح فى ثمـــود

والتأكيد منه هنا انما هو على معنى « الغربة » ، وان اقترنت هذه الابيات عند بعضهم بمعنى ادعائه النبوة ، تفسيرا لمـــا زعم الراوون .

ويقول ثانية . . في مصر اثناء اصابته بالحمّى

أرى الأجداد تغلبها كثيرا على الاولاد ، أخلاق اللئام
ولست بقانع من كلّ فضل بأن أدعى إلى جدّ همام

ويقول ثالثة في أرّجان بين يدى ابن العميد

اذا الشرفاء البيض متّوا بقتوه أتى نسب أعلى من الأب والجدّ

وهكذا إلى آخر حياته

وتلاحظ أنه يكرّر هنا – ولا يقول الا – ما قاله آنفا في مجلس طاهر بن الحسن العلوى .

بقى أمر تسميته بالمتنبي . .

. . هذا الاسم الذى أصبح علما عليه ، حتّى في حياته . .

وانّما نشأت التسمية هذه على أثر تشويه غرض تلك الثورة التى قام بها في سبيل – وبدافع من – علويّته ، وتلبيس أمرها من قبل « المغرضين » . ولذلك نجدها – في الروايات – مقرونة بها ومقحمة عليها اقحاما (١٧) .

---

(١٧) نستطيع ان نستجلى غرضه فى تلك الثورة فى قوله الى « ابى عبدالله معاذ » ، وكان نازلا عنده باللاذقية

أبا عبد الاله معاذ ! انى خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جسيم ما طلبى ، وأنا نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلى تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام !
ولو برز الزمان الى شخصا لخضب شعر مفرقه حسامى
وما بلغت مشيئتها الليالى ولا سارت وفى يدها زمامى
اذا امتلأت عيون الخيل منى فويل . . فى التيقظ والمنام

وكان يعزله على ما شاهده من تهوره وعظم همته ، فخاطبه بهذه الابيات .

وقد حاك الرواة حول هذا النكرة (ابى عبدالله معاذ الصيدوانى) . . وعلى لسانه . . قصة واهية ، اختلقوها اختلاقا ، واحتفلوا لها بكامل طاقتهم الفنية ، وبنوا عليها ما ارادوه من تعمية نسب المتنبى ، وتحويل القصد من دعوته العلوية الى الادعاء بالنبوة . . .

. . . وليس لها من اصل تاريخى الا هذه الابيات .

وقد وردت في الصبح المنبى (عن بعض مصادره المفقودة الآن) عبارة غامضة بنّص صغير ، مرّ بها أكثر الادباء غافلين . وهى تحمل في طواياها — لمن يمعن فيها — دلالة لها مغزاها حول ما نحن بصدده .

وهذه هى العبارة :

قال له بعض الأكابر ، وهو في مدينة السلام : أخبرّنى من أثق به انك قلت : أنا نبى !

فقال : الذى قلته . . . . « أنا احمد النبى » . . .

وليس بالجواب المتنبي . . تبريرا لتلك الدعوة التى قام بها ثائرا . . ثم تحولت بعد إلى التهمة هذه . . من معنى يفهم ، الا على أساس ما كانوا يروون في عهده من احاديث حول المهدى المنتظر . . . الذى يأتى فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا .

فالمتنبى هنا يدفع اراجيف التهمة الموجهة اليه بقوله : الذى قلته « انا احمد النبى » (على الاضافة) أى أنا احمد (الذى وردت الاشارة اليه في حديث النبى . (١٨)

وتلصق التهمة بشاعرنا ، فلا يسعه الا أن يردد

ان الكذاب الذى أكاد به   أهون عندى من الذى نقله
فلا مبال ، ولا مداج ، ولا   وان ، ولا عاجز ، ولا تكله

وطالما شوغب بها هو حتّى في مجلس سيف الدولة .

قال له ابن خالويه النحوى يوما في مجلس سيف الدولة :

---

(١٨) ولعلك تستحضر قوله فى آخر عمره عند توديع ابن العميد

فان يكن « المهدى » من بان هديه   فهذا ، والا فالهدى ذا ، فما المهدى !
يعللنا هذا الزمان بذا الوعد   يخدع عما فى يدىء من النقد
هل الخير شئ ، ليس بالخير ، غائب !   ام الرشد شئ ، غائب ، ليس بالرشد !

لولا أنّ الآخر جاهل ، لما رضى ان يدعى بالمتنبي ، لأن « متنبي » معنـاه كاذب . ومن رضى ان يدعى بالكذب فهو جاهل .

فقال له : أنا لست ارضى أن ادعى بهذا ، وانما يدعونى به من يريد الغضّ مني . ولست اقدر على الامتناع . ويقول الاستاذ عزام – في ذكراه – معقبّا :
فلو ان الأمر كان معروفا ما استطاع ابو الطيّب المكابرة فيه .

* * *

ويمرّ زهاء قرن على القضيّة . ويسأل عنها المعرى فيردّ في رسالته الشهيرة – رسالة الغفران – قائلا :

. . . وحدّثت انه كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب ، قال : هـو من النبوة ، أى المرتفع من الأرض .

ثم يستمر قائلا :

وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه . وانّما هى مقادير ،– يديرها في العلو مدير ، يظفر بها من وفّق ، ولا يراع بالمجتهد ان يخفق . . .
والمعرّى هنا – كما ترى – يجمجم ، ولا يصرّح ، بالجواب . . ولكنه أكيداً لا يقصد ادّعاء النبوة .

* * *

ذلك هو أبو الطيّب المتنبي في باذخ نسبه . . .

احمد بن . . . محمد بن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب .

نسب . . كأن عليه من شمس الضحى نورا ، ومن فلق الصباح عمودا فان تدعو الناس لآبائهم اقسط عند الله .

وقد لخّص لنا الشاعر حياته في المقصورة التى أنشدها لنفسه بعد مفارقته كافور

لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومن بالعواصم ، أنّى «الفتى»
وأنّى وفيت ، وأنّى أبيت ، وأنّى عتوت على من عتا

الوفاء هنا — كما يظهر لى ، ويفهم من السياق — بما كان قطعه على نفسه من التكتّم في أمر نسبه ، ولذلك يعقب

وما كلّ من قال قولا ، وفي وما كلّ من سيم خسفا ، أبى

يشير بها إلى مالقيه في مجلس سيف الدولة

ومن بك قلب ، كقلبي ، له يشق إلى العزّ قلب التوى

يعنى بذلك اقتحامه المهالك عائدا من مصر

ولابدّ للقلب من آلة ، ورأى ، يصدّع صمّ الصفا .

أفلا يذكّرك هذا بقوله ، قبل عشرين عاما . .

وما الجمع بين الماء والنار في يدى بأصعب من ان أجمع الجدّ والفهما . . .

راثيا جدّته . فقد كان في الحالين يستعرض تجربة مرّت به ، ومحاولة فشل فيها ؟

واخيرا :

وكلّ طريق أتاه «الفتى» على قدر الرجل فيه الخطا

هذا البيت الذى ذكروا أنه ضرب فيه مثلا مبتذلا . فهو يلخّص لك — لو أعدت النظر في سيرته ، على ضوء ما بيّناه لك — رأيه في حياته تلك كلّها .

رحم الله أبا الطيّب ، فما كان اصدقه حين أنشد سيف الدولة في ظـــروف مأساته :

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنـــا بأننى خير من تسعى به قـــدم
أنا الذى نظر الأعمى (١٩) إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم (١٩

.. على صدقه .. رحمة واسعة ، ونفعنا بإيمانه .

الاربعاء ٢٧ آذار ١٩٦٣
الموافق غرة ذى القعدة ١٣٨٢
البحـــرين

---

(١٩) اعمى .. اعمى عن حقيقتى، به صمم .. صمم عن دعوتى .

مراجع اضافية لهذا الباب خاصّة

١ ــ عقيــدة الشيعة	ــ	للمستشرق دونالدسون
٢ ــ مقاتــل الطالبيــين	ــ	لأبى الفرج الأصبهاني
٣ ــ مروج الــذهب	ــ	للمسعــودى
٤ ــ رسالة الغفــران	ــ	للمعــرى
٥ ــ خــزانة الادب	ــ	للبغــدادى
٦ ــ وفيــات الاعيــان	ــ	لابن خلــكان
٧ ــ تاريــخ الخلفاء	ــ	للسيــوطى

خاتمة المطاف

ما للمتنبّي وما عليه

... حسنات وشوائب يزخر بها ديوان المتنبي ، لما مرّ بنا من أسبابها ، ولكن فطرته العربية كانت أغلب ، فكان بالرغم من كلّ ما آخذه عليه الناس من حق وباطل ، أصدق صوت عربي أخذ من حضاراتهم السائدة بنصيب ، بعد ان فطمته روح البادية . بلى ! اسقطوا من ديوانه ما شئتم — ولن تستطيعوا — فستسلم له بعد الحكمة .. لا وحدها ، بل يدعمها هذا الادب العالي ، وما أروع الحكمة إذا اوتيت منطق الفطرة الواعية(١) ، وزانها هذا الثوب القشيب هو نسيج وحده بين مطارف الفنون .

فلقد رأينا كيف ان نفسه الكبيرة كانت تتحلى بخصال — هي الزم ما تكون للملوك والزعماء ، في كل عصر وزمان — من علو الهمة ، وكبرياء النفس ، والاعتداد بالقلب ، وعدم المبالاة ، وكان لا يقصر

١ راجع الفصل الثاني من « الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث » للمؤلف .

عنهم إلا في المال ، ويدلّ عليهم بالوفاء . وكان يزيد على ملوك عصره بعد ذلك في خلّتين فاضلتين هما صدق القول وطهارة الازار ، نجم عنها جميعاً ما ظهر في « طريقته » الفذّة من مميزات ، أهمها وأظهرها للعيان :

(أ) الصراحة الجارحة

(ب) دقّة الملاحظة

(ج) الاستقصاء الفني في التمثيل

(د) نظرة الطائر

بالاضافة إلى (هـ) نجوى النفس والاستبطان .

مزوّدة كلها بالثقافة العميقة(١) ومدعمة بالفطرة الواعية . انما تشرف عليها جميعاً الفطرة الواعية .

وقد اشرفنا — في بحثنا الطويل — على مولده في مستهل القرن الرابع الهجري . فرأينا بلدته الكوفة ، ورأيناه .. في أي ظروف نشأ وأي محيط كان يتقلّب فيه . كما جلسنا معه في كتاتيب اشراف العلويين . فتلقينا معه ما تلقى من مبادئ القوم ، واستظهرنا معه ما استظهر من محفوظاتهم .

وفي هذه الاثناء تيسّر لنا ان نلقي نظرة سارحة على العالم الاسلامي المترامي الآفاق ، الممزق الاوصال إذ ذاك — ما أشبه الليلة بالبارحة — فرأينا ما كان يسوده من قلق واضطراب ، ويكتسح ارجاءه من ثورات وفتن ، نشأ في وسطها هذا الصبي مع فتيان عصره الذين تشرّبت نفوسهم — منذ الصغر — بروح الثورة على هذه الاوضاع .

١ قال الحاتمي : حدثني من اثق به انه لما قتل المتنبي وجد معه ديوان ابى تمام والبحتري بخطه ، وعلى الحواشي علامة كل بيت أخذ معناه وسلخه ... (كذا) .

ورافقناه في هذه الرحلات الكثيرة التي قام بها ، متقلّباً بين ملوك عصره ، ساخطاً عليهم ، متبرماً منهم ، من بلد إلى بلد ، حتّى استقرّ به المقام – فترة من العمر قصيرة ولكنها سعيدة – في كنف سيف الدولة ، حيث كان يخبئ له القدر « مأساة » جديدة ، بعد مأساته في جدّته .

وكنا معه – قبل وبعد – حيثما سار ، في الشام ومصر والعراق ، حتّى التمت بنا معه عصا التسيار في ارض فارس ، وكانت هي رحلته الاخيرة .

تلك حياته .. حياة مليئة بالمغامرة .. انطوى آخر صفحات سفرها الحافل قبل ألف عام ، وهذا فنّه .. أيّ آية في الفنون هو .. نفتتح معرض لوحاته بعد ألف عام . وقد رأينا في هذه الدراسة لأول مرة ، على ضوء ما نظم صبياً ، تلك « الطريقة » الفذّة التي كان يحاول شقها لنفسه حتّى وهو صبي – تذكّر ...سلك قلائده من الخيطين .. الملوّن والأبيض – تبين لنا منها انه ككل فنان أصيل كان يعيش لفنّه ، ولكنه لا يستطيع ان يستأثر بهذا الفنّ . فقد كان ينظم لعدّة جهات من المستمعين – بالاضافة إلى نجوى نفسه واستبطانها – استعرضناها واحدة واحدة ، ولكنه كان فناناً « فذاً » .. ولا كالفنّانين .. دخلنا معه إلى فنّه – قدس الاقداس – فرأيناه كيف يقصّد قصائده تقصيداً ، لا يعلم الناس عناصر تكوينها ، لأنهم إنما يرون « المكتمل » من مظهرها الملوّن – في اللوحات – وقد شرب فيه كلّ لون اخاه ، ويستطلعونها – بعد – للطرب ، وهي جاهزة .

ثم تبسّطنا في هذا المكرر من شعره (الزاخر بمعانيه) فانتهينا ، في عالمه النفسي – على ضوء بعضه – إلى ما انتهينا اليه ، من نظرته الخاصة التي كان ينظر بها إلى السواد الاعظم من الناس ، وموقفه الفردي الذي كان يقفه من ملوكهم واقيالهم ، عرفنا منها نفسه الحقّة ، واهتدينا

كنتيجة لذلك إلى تلك الصفات التي كانت تباده العيون ، ولا تراها العيون ، في كلّ شعره ...

تأمّل قول ابي القاسم المظفر الطبسي . احد معاصريه ، يرثيه :

لا رعى الله سرب هذا الزمان　　إذ دهانا في مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثاني المتنبي　　أيّ ثان يرى لبكر الزمان؟
كان من نفسه الكبيرة في جيـ　　ـش ، وفي كبرياء «ذي سلطان»
هو في لفظه نبيّ ، ولكن　　ظهرت معجزاته في المعاني

... خلال ملكية عرفها ملوك عصره وعاداه لأجلها — وعادى هو لأجلها — من عاداه منهم . وأحبّه بسببها — وأحبّ هو بسببها — من أحب ، ندرك الآن حقيقتها ، وندركها على حقيقتها . فلم تكن غير تلك «الخلائق» :

فلو كانت قلوبهمُ صديقاً　　لقد كانت خلائقهم عداكا

لا المال ولا الجاه ... اللذين ناله في حياته منهما أكبر نصيب .
فأين عن هذا كان الشرّاح والناقدون ؟

قلت مرّة : (١)

اعتقد ان شعر المتنبي سيبقى محكّاً — ما بقيت لغة الضاد — لمعرفة من ذوقه عربي أصيل . فلقد رأيت ديوانه — بعد القرآن — ترتّل أبياته ترتيلاً عند أهل البادية من ساحل عمان . وهي الحالة الوحيدة التي وجدت فيها شاعراً عربياً ترتّل أبياته .

---

١ محاضرة المؤلف في الدورة الرابعة لمؤتمر الدراسات العربية للجامعة الاميركية ببيروت عام١٩٥٤ .

والآن ... فلو سألنا أنفسنا ما منزلة شعرائنا – وذاك شأنهم – والمتنبي خاصة وذاك شأنه ، من الشعر العالمي .. وبالاخص في طبقات « كبارهم » ، كان رائدنا في الجواب – على الاقل – بيّنا . فأمثال البحتري عندهم كثيرون وكذلك ابن الرومي . لا لن يقوم في الرفرف من اوسط طبقات شعراء العالم إلاّ المعري وابو تمام . واخشى انه ليس في دنيا العرب من ذروة الذرى احد ... الا ان يكون المتنبي وحده .

وليس ذاك لأنه يفصح بعدة ألسنة لـ « ذوات » تظفر منه بالخلق مثل شعرائها (١) ، وإنما لأن « الحكمة » عنده امتداد في الزمان ، بلا تعيين مكان ، لحكم سارٍ كالقضاء على الخلق ، تطبّقه (في الغرب) الفنون عندهم – على مكان بعينه ، في زمنه الخاص – في المسرحيّات .. بالتمثيل .

إن المتنبي يقف مع « شيكسبير » و « هومير » جنباً لجنب ، لأنّ لغة الضاد ولدت فيه ابنها البكر ، فهو لسان غيبها المبين ، وسيد شعرائها على الاطلاق .

قال الاستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله عن سرّ النبوغ في الادب :

« تصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهم في أوقات التجلّي عليه كأنّه كلام صور نفسه وصاغها أو كأنه قطعة من الحس جمدت في أسطر . ولا بُدّ ان تشعرك الجملة انها قذفت وحياً إذ لا تجدها إلا وكأنّ في كلماتها روحاً يرتعش . ولقد يخطر لي وانا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من

---

١ راجع الفصل الأول من « الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث » للمؤلف .

الاذهان الملهمة كشيكسبير والمتنبي وغيرهما حين أتأمّل اختراع المعاني وابداع سياقه وضحى البيان عليه واشراقه به وما أتيح له من جلال ظاهر في شكل حيّ بسرّه في النفس – يخيّل لي من ذلك ان سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن انساني ليخلق تعبيراً عن جلاله في مثل جلاله . »

ثم قال :

« وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الالهام واجريته في كتابة كاتب أو شعر شاعر من الذين ليس لهم إلا اذهانهم يكدّونها وكتبهم يجعلونها أذهاناً أحياناً ... لرأيت لفرق بين شيء وشيء في أحسن ما أنت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريريّة جاءت من عمل انسان بالابرة والخيط وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في غصنها الاخضر من عمل الحياة بالسماء والارض . » (١)

وحسبب هذه الفصول ان تكون بمثابة « مقدّمة » لدراسة كلام (٢) هذا اللوذعي ...

اللوذعي الذي يظنّ بك الظنّ   كأن قد رأى وقد سمعا

ما كان أحوجه اليها وأجدره بها ... منذ عصره ، وما اسعدني الآن

---

١ عن مقال له نشر في المقتطف ، وراجع أيضاً في كتابه « وحي القلم » مقاله عن شوقي .
٢ ان الشعر في اسمى حالاته لا يخرج عن كونه كلاماً .

وأدعاني إلى الفخر والتواضع في آن بهذا التوفيق النادر في وضعها – على هذا التصميم من أساسها الصحيح ، وأسبابها الحقّة – بعد كل هذه العصور .

هذا والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

تم الفراغ منه

يوم مولد النبي صلوات الله وسلامه عليه

الاحد ١٢ ربيع الاول ١٣٨٢

الموافق ١٢ آب ١٩٦٢

البحرين

الفهرست

المراجع

•

القسم الاول

القرآن الكريم		القرن الأول للهجرة
نهج البلاغة		« «
البيان والتبيين	ابو عثمان الجاحظ	من مؤلفات القرن الثالث هجري
حماسة أبي تمام	حبيب بن اوس الطائي	«
حماسة البحتري	ابو عبادة البحتري	«
الموازنة بين ابي تمام والبحتري	ابو حسن الآمدي	من مؤلفات القرن الرابع هجري
كتاب الصناعتين	ابو هلال العسكري	«
تاريخ الطبري	ابن جرير الطبري	«
كتاب الاغاني	ابو فرج الاصفهاني	«
ايضاح المشكل	ابوالقاسم عبدالله الاصفهاني	«
الوساطة بين المتنبي وخصومه	علي بن عبدالعزيز الجرجاني	«

الابانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى	ابو سعيد العميدي	من مؤلفات القرن الخامس هجري
يتيمة الدهر	ابو منصور الثعالبي	»
نقد الشعر	قدامة بن جعفر	»
العمدة في صناعة الشعر	ابن رشيق القيرواني	»
مفردات الفاظ القرآن	الراغب الاصبهاني	»
أساس البلاغة	جار الله الزمخشري	من مؤلفات القرن السادس الهجري
شرح نهج البلاغة	ابن ابي الحديد	من مؤلفات القرن السابع هجري
تاريخ ابي الفداء	اسمعيل ابو الفداء	من مؤلفات القرن الثامن هجري
تاريخ روضة المناظر	ابن الشحنة	من مؤلفات القرن الحادي عشر هجري
الصبح المنبي في حيثية المتنبي	يوسف البديعي	»
أنوار الربيع في أنواع البديع	ابن معصوم	»
مختارات البارودي	محمود سامي باشا	من مؤلفات القرن الثالث عشر هجري
العرف الطيب	ناصيف وابراهيم اليازجي	»

القسم الثاني

ديوان ابي الطيب المتبني ، تحقيق عبد الوهاب عزام		من مؤلفات القرن الحالي
ذكرى ابي الطيب بعد ألف عام	عبد الوهاب عزام	»
ديوان أبي الطيب شرح البرقوقي	عبد الرحمن البرقوقي	»
المتنبي ، عدد المقتطف الخاص ١٣٥٤ هـ	محمود محمد شاكر	»
مطالعات في الكتب والحياة	عباس محمود العقاد	»
ساعات بين الكتب	»	»
وحي القلم	مصطفى صادق الرافعي	»
الموازنة بين الشعراء	زكي مبارك	»
تاريخ النقد الادبي عند العرب	طه أحمد ابراهيم	»
مع المتنبي	طه حسين	»
الرؤوس	مارون عبود	»
تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان	»
تاريخ الادب العربي	أحمد حسن الزيات	»
تاريخ العرب ، مطوّل	فيليب حتّي	»
مستقبل الاسلام	مالك بن نبي	»
محاضرات وتحقيقات	عمر فروخ	»
فن المديح	أحمد ابو حاقة	»

المديح ، من فنون الأدب مطبوعات دار المعارف بمصر من مؤلفات القرن الحالي
الغزل ، من فنون الادب » »
و :
ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين — **Prof. R. Blachere** »
البروفسور بلاشير (ترجمة أحمد احمد البدوي)
محاضرات وتحقيقات — **Prof. L. Massignon** »
البروفسور ل. ماسينيون
الادب العربي في آثار الدارسين الجامعة الاميركية بيروت »

القسم الثالث

من كتب المؤلف في البحث والتحليل
الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث (دار الكشاف ، بيروت ١٩٥٥)
جولة في الشعر العربي المعاصر (دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٢)
الاساليب الشعرية (دار الاديب ، بيروت ١٩٥٠)
الشعر والفنون الجميلة (دار المعارف بمصر ١٩٥٢)


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com